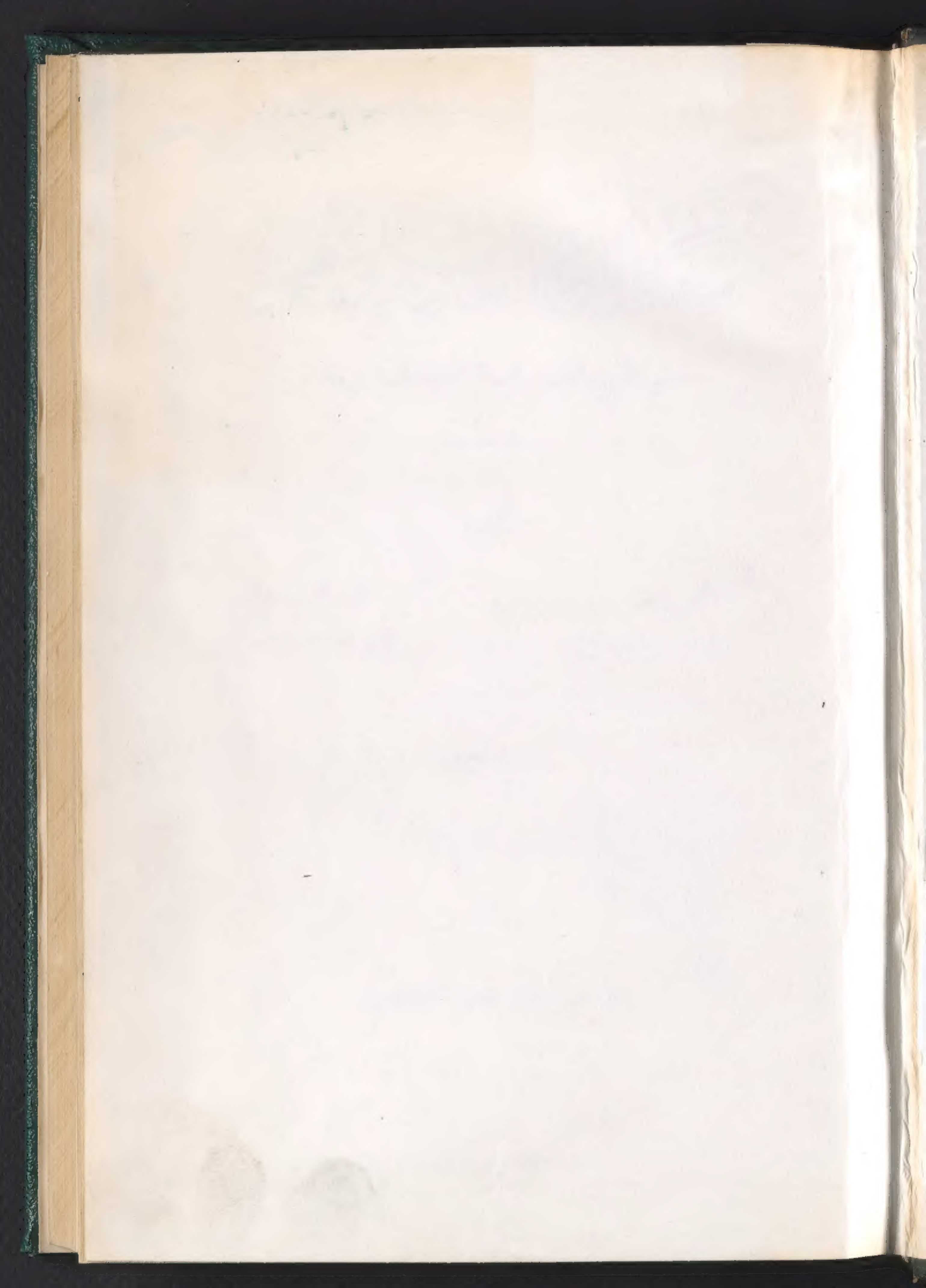
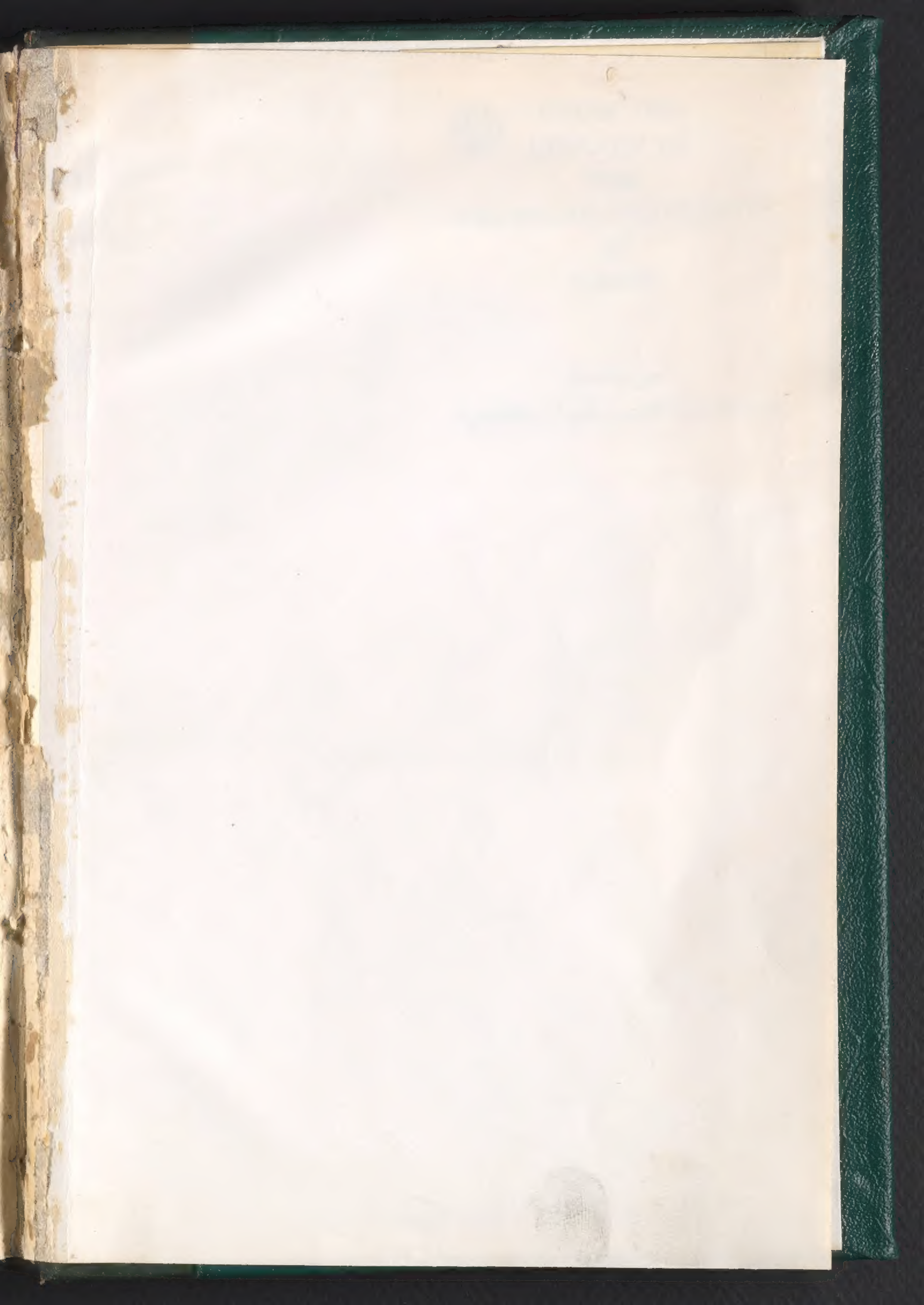






معالم تاريخ العصور الوسطى

حسب المنهج الجديد للسنة الثانية بالمدارس الثانوية

تأليف

محمد رفعت و محمد احمد حسونه

أستاذ التاريخ بمدرسة المعلمين العليا . المفتش بوزارة المعارف العمومية

(الطبعة الاولى)

نوفمبر سنة ١٩٢٥

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

أول ما كتبنا فى موضوع هذا الكتاب كان غرضنا مساعدة طلبة مدرسة المعلمين العليا، فلما عدل منهج التاريخ بالمدارس الثانوية وتقررت دراسة العصور الوسطى فى السنة الثانية، اصبحت الحاجة ماسة الى وضع كتاب يناسب مستوى طلبة هذه المدارس، ويلم بكليات المنهج وجزئياته

لذلك عولنا على اصدار هذا الكتاب رجاء أن يسد فراغاً فى تاريخ العصور الوسطى لا توجد فيه كتب باللغة العربية فيما نعلم. وغاية ما نرجوه أن يجد فيه الطالب خاصة، والمتعلم عامة، مرشداً ومعيناً. ومن أراد التوسع فى الموضوع ولا سيما فيما له علاقة بتاريخ اوربا، فليرجع الى الطبعة الخاصة بطلبة مدرسة المعلمين العليا.

أول نوفمبر سنة ١٩٢٥ — محمد رفعت : محمد احمد حسونه

تنبيـه مهم

ينبغى اصلاح هذه الأغلاط المطبعية قبل الشروع فى مطالعة الـكتاب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٣	٤	Autrasias	Austrasia
٢٣	١٠	٧٨٦	٦٨٧
٢٤	٦	اللعب	اللقب
٦٦	١٤	٨٦-٩٦هـ	٨٦ - ٩٦هـ
٨٨	٥	فى أكبر	فى أنه أكبر
٩١	٦	٤١٨	٨١٤
١٠١	١٦	ومحاولة	محاولة
١٢٩	٥	قصر	قـبر
١٣١	٩	برندبرج	براندنبرج
١٤٧	١٩	Reudolf	Rudolf
١٦٣	٥	الناصر	العاضد
٢٠٠	١٩	٣٧٣٢	٧٣٢
٢٣٧	١٤	البكجيرية	اليكمچيرية
٢٤١	١٣	تقضى	تفضى

الفهـــرس

صفحة

٩ الفصل الاول
سقوط الدولة الرومانية الغربية
والشعوب المتبربرة
١٠ الكلت
١٢ الجرمان
١٣ الصقلب
١٤ بدء غارات القبائل المتبربرة
١٦ قبائل البرغنديين
١٦ » الوندال
١٧ » قبائل الهون
١٩ القوط الشرقيون
٢٠ قبائل الانجليز والسكسون والجوت
٢١ قبائل اللمبارد فى ايطاليا
٢٢ الفرنجة
٢٥ الدولة الرومانية الشرقية
٣٠ الفصل الثانى
تاريخ العرب
٤٢ الخلافة
٤٥ فتوح العرب
٦١ الدولة الاموية

صفحة

٦٩ الدولة العباسية
٧٧ الفصل الثالث
الحضارة الاسلامية
٨٨ الفصل الرابع
قيام دولة الفرنجة
٩٤ الفصل الخامس
النظام الاقطاعي وظهور قوة الكنيسة
١٠٣ ظهور قوة الكنيسة والبابوية
١٠٧ الرهبنة والاديرة
١١٢ الفصل السادس
ظهور الممالك الحديثة فى أوربا
فرنسا
١٢٠ انجلترا
١٣٠ المانيا وايطاليا بعد سقوط دولة شرلمان
١٣٥ الكفاح بين البابوية والامبراطورية
١٤٩ الفصل السابع
الحروب الصليبية

صفحة

١٨٢ الفصل الثامن

ضعف البابوية فى أوربا

١٩٠ الفصل التاسع

فرنسا وانجلترا فى العصر الوسيط

١٩٩ الفصل العاشر

الدولة العربية فى الاندلس

صفحة

٢١٠ الفصل الحادى عشر

مصر منذ الفتح العربى

٢٢٠ الدولة الفاطمية

٢٣٥ الفصل الثانى عشر

نشأة الاتراك العثمانيين

٢٤٨ الفصل الثالث عشر

حضارة العصور الوسطى فى أوربا

الخرائط

صفحة

٢٦٨ أوربا سنة ٣٥٠

٢٦٩ هجوم القبائل المتبربرة

٢٧٠ دولة شرلمان

٢٧١ الامبراطورية فى عهد أتو الاكبر

صفحة

٢٧٢ الدولة الاسلامية بالمشرق

٢٧٣ بلاد الاندلس

٢٧٤ الحروب الصليبية

٢٧٥ حرب مائة السنة

فهرس الصور

صفحة

١١ رئيس كاثى
٣٣ مكة المكرمة
٣٦ المدينة المنورة
٤٧ مسجد باصفهان
٥٠ داخل مسجد عمر بالقدس
٩٣ سفينة نورمندية
٩٦ فارس اقطاعى فى القرن التاسع
٩٧ حصن اقطاعى
٩٩ المبارزة فى العصر الوسيط
١٠٢ فارس فى القرن الخامس عشر
١٠٩ راهب فرنشسكان
١١٦ قصر لويس التاسع على السين
١١٩ قصر امبواز من عهد شارل الثامن
١٢٩ قبر ادوارد الثالث فى وستمنستر
١٥٧ قتال بين الصليبيين والمصريين فى سوريا
١٦٨ قلعة الكرك

صفحة

١٧٢ نسر صلاح الدين على أحد جدران القلعة
١٩٥ شارل السابع
١٩٦ جان دارك
٢٠٩ بهو السباع فى غرناطة
٢٢٥ مشكاة من الزجاج المحلى بالمينا
٢٣٤ صورة حجرة بمنزل فى رشيد
٢٣٤ جامع ابن طولون
٢٣٨ جندى انكشارى
٢٤٦ أسوار القسطنطينية
٢٥٠ ملابس سيد فى القرن الخامس عشر
٢٥١ ملابس سيدة فى القرن التاسع
٢٥١ ملابس سيدة في القرن الخامس عشر
٢٥٣ برج كتدرائية لنكان بانجلترا
٢٥٤ بلدية بروج فى بلجيكا
٢٦١ كنيسة ريم فى فرنسا

موضوعات المنهج الجديد

للسنة الثانية الثانوية

دراسة تاريخ العصور الوسطى فى الشرق والغرب دراسة عامة مع العناية بتاريخ العرب

ا حالة اوربا والشرق قبل ظهور الاسلام

ب ظهور سيدنا محمد والفتوح العربية والخلافة ومدنية العرب

حـ ظهور البابوية والرهبنة فى اوربا وشرلمان والنظام الاقطاعى

ى الحروب الصليبية وعلاقاتها بمصر

هـ الكفاح بين البابوية والامبراطورية

و نشأة الممالك الاوربية وتطور نظم الحكم فيها

« فرنسا الى ابتداء حكم لويس الحادى عشر

ز انجلترا الى نهاية حرب الوردتين

ح اسبانيا من الفتح العربى الى ظهور فرديننـد وايزابلا

ط مصر منذ الفتح العربى الى نهاية حكم الفاطميين

ى الاتراك العثمانيون من نشأتهم الى فتح القسطنطينية

الفصل الأول

سقوط الدولة الرومانية الغربية

والشعوب المتبربرة

في القرن الثالث الميلادى كانت الامبراطورية الرومانية تمتد من المحيط الاطلسى غرباً الى نهر الفرات شرقاً ومن الصحراء الكبرى جنوباً الى الطونة والرين شمالا . وكان يسكن الامبراطورية أقوام يختلفون جنساً ولغة وعادة وديناً ، فكانت رومة تغرس فيهم حضارتها بمجرد إستعدادهم لقبولها . فمتى تم فتح اقليم بدأ صبغه بالصبغة الرومانية واذا أخلد أهله الى السكينة منحوا حقوقاً مدنية تشابه حقوق أهل رومة نفسها . وقد تمت المساواة فى الامبراطورية سنة ٢١٥ م حين أصدر الامبراطور « كَرَكَلاّ » مرسوماً باعطاء جميع الاحرار من سكان الامبراطورية الحقوق التى كانت قاصرة على أهل رومة وباعتبارهم مواطنى هذه المدينة ، لانه رغم الفروق التى كانت تفصل كل ولاية عن الاخرى شاعت بين الجميع مبادىء التهذيب الرومانى وانتشرت عوامل الحضارة الرومانية ، فجعلت الجهات المختلفة تسمو شيئاً فشيئاً الى المستوى الراقى الذى كانت رومة نفسها قد بلغته من قبل

وبسبب ترامى أطراف الدولة وصعوبة الدفاع عن حدودها ، لم يتسع المجال أمام الاباطرة لغزو القبائل المتبربرة التى كانت تتاخم حدود

الدولة فى أوربا، فاقتصروا على بناء الاستحكامات والقلاع وتحصين الحدود وأنشأوا الطرق لتسهيل تسيير الجيوش وتعبئتها. ولما انصرفت رغبة الرومان عن الانخراط فى سلك الجيوش لجأ القواد والأباطرة الى تجنيد المتبربرين فى رتب الجيش المختلفة. فلما صار منهم رؤساء استكثروا من بنى جلدتهم حتى تفوق العنصر المتبربر فى الجيش والادارة، وسيطر المتبربرون على الامبراطور والحكومة، وعرفوا مواطن الضعف فى الدولة ومهدوا السبيل للهجوم العام فى القرن الخامس

وأهم هذه الشعوب المتبربرة التى كانت تسكن وراء حدود الدولة وتغير عليها من حين لآخر قبائل الكلت والجرمان والصقلب

الكلت

فى القرن الرابع بعد الميلاد كان الكلت يقطنون «غالة» وهى فرنسا الحالية، والجزر البريطانية، وكانوا يعيشون قبائل، كل قبيلة تكوّن دولة يحكمها أشرافها، ولم يكن للسواد الاعظم نصيب فى الحكومة، بل كانت السلطة فى يد جماعة من الاشراف ويسمون « درويد Druids » كانوا رؤساء للدين وقضاة ومرجعاً أعلى فى جميع الامور الاخرى، كلمتهم قانون، ومن جرؤ على مخالفتهم جردوا عليه سيف الحرمان الذى يشبه الحرمان البابوى فى العصور الوسطى

وكان الكلت كبار الاجسام أقوياء شجعاناً مخاطرين فى الحروب مولعين بالموسيقى ولا سيما الحربية التى كانوا يتقدمون للقتال على نغماتها الحماسية. مولعين بالشعر تؤثر فيهم بلاغة الخطباء. وكانت لغتهم كاملة

التكوين يمكن بها التعبير عن أنواع شتى من الافكار والعواطف ، كذلك كانوا شديدى الحماسة لزعمائهم الا أنهم كانوا سريعى التقلب والتحول متى أخمدت الويلات حماسهم



رئيس كلتى

وبعد أن فتح « يوليوس قيصر » غالة، سرت فيها ميادىء الحضارة

الرومانية فاصطبغ الكلت هنالك بالصبغة الرومانية تماماً، ونسى أكثرهم لغتهم الاصلية وجعلوا يتكلمون اللاتينية، فأنشأوا مدناً كثيرة ذات معابد وحمامات ومسارح للتمثيل لا تفترق كثيراً عن المدن الرومانية. أما باقى الكلت الذين كانوا يسكنون بريطانيا وايرلنده فبقوا على سذاجتهم وعدائهم لرومة

الجرمان

كان الجرمان يسكنون الاراضى الواقعة بين نهرى الرين والفستولا وبين بحر البلطيق ونهر الطونة، يتاخمون الدولة الرومانية على امتداد نهرى الطونة والرين. ويمكن تقسيمهم بوجه عام الى ثلاثة أقسام :— الجرمان الغربيين ومنهم الفرنجة والالمان والسكسون، والجرمان الشماليين ومنهم الدنمرقيون وأهل اسكندناوة، والجرمان الشرقيين ومنهم القوط والوندال

كان الجرمان يعيشون قبائل مستقلة، وكان نظام حكومتهم ديمقراطياً فكان أحرار كل قرية يشتركون فى تدبير أمورهم المحلية، أما الشئون العامة التى تهم القبيلة كلها فيشترك فى تدبيرها جميع أحرار القبيلة. وأما من الوجهة الاجتماعية فكانوا ثلاث طبقات :— الاشراف والعامة الاحرار والرقيق، وكان الاشراف يتمتعون بميزات خاصة فى المجتمع ولكن صوت الرجل الحر كان مساوياً لصوت الشريف فى الجمعية العامة

وكان من عادة الجرمان أن يلتف فريق من الشبان حول فارس مشهور بالشجاعة والخبرة بالحروب يعيشون معه ويصحبونه فى غزواته،

وكان الفارس يفخر بكثرة مَن حوله من الشبان لانهم يُشيدون بذكره ويساعدونه على نيل مآربه

وكانوا يعبدون الطبيعة ، ويجلّون الغابات وما يشبهها من الظواهر الغريبة ، ولم تنشأ بينهم طائفة من القساوسة كما نشأ بين الكلت والصقالبة

أما معيشتهم فكان قوامها الرعى والزراعة والصيد . وكان أكثر العاملين فى الزراعة والرعى من الرقيق والنساء . وكانوا لايميلون الى انشاء مدن مكتظة بالسكان ، بل يفضلون الاقامة فى منازل متباعدة وسط الريف . وكان الجرمان ضخام الاجسام أقوياء البنية حمر الوجوه يضرب شعرهم الى الشقرة ، ولوعين بالحرب والخمر والميسر وبلغ من شغفهم بالميسر أنهم كانوا يقامرون بأولادهم ونسائهم بل وبحريتهم

الصقلب

أما القبائل الصقلبية فكان مقامها شرقى الجرمان فيما يسمى الآن روسيا . كان كلما تحرك الجرمان غرباً أو جنوباً تبعتهم القبائل الصقلبية واحتلت ما هجروه من البلاد حتى وصلوا الى نهر الالب غرباً

وكانت حكومتهم ديمقراطيــة الا أن النفوذ الاكبر كان للشيوخ أما دينهم فكان ضرباً من الوثنية ، وكان لرجال الدين نفوذ في السياسة والحرب . وعلى الرغم من ضخامة أجسامهم لم يكونوا مطبوعين على الغزو . ولضعف إحساسهم بالقومية سهل امتزاجهم بالاجناس الاخرى وصبغ كثير منهم بالصبغة الجرمانية من بعد القرن التاسع للميلاد

بدء غارات القبائل المتبربرة

نقصد بالبرابرة القبائل السالفة الذكر التى كانت تسكن شمال الدانوب وشرقى الرين وقد واصل الأباطرة خطة أغسطوس الدفاعية إزاء هذه القبائل فاكتفوا ببناء الحصون ووضع الحاميات على الحدود، ولما كانت هذه الحدود ممتدة بدرجة لا يسهل فيها إحكام الدفاع وخاصة بعد أن دب الضعف فى جسم الدولة بدأ البرابرة يشنون الغارة عليها

مبدأ علاقات المتبربرين بالدولة

ولقد كانت العلاقات فى أول الامر بين الدولة والبرابرة قاصرة على تبادل التجارة، ثم تدخّل البرابرة حباً فى الاستطلاع وطلباً للرزق ورغبة فى تعلم نظام الحكم الرومانى، ثم بدأوا يدخلون فى خدمة الجيش

وعلى العموم يمكننا أن نقول إنه قبل سنة ٣٧٤ م كان وجود البرابرة داخل الامبراطورية قاصراً على استخدامهم فى الجيش وفى الادارة، وأما بعد هذا التاريخ فبدأ تدخلهم الحربى الذى أدى الى استيلائهم على ممتلكات الدولة. فكأن وجودهم في الجيش والادارة قد مهد لهم طريق احتلال البلاد

سبب الغارات

بدأ الهجوم العام للقبائل المتبربرة فى أواخر القرن الرابع، وأثناء القرن الخامس بعد الميلاد. والسبب فى هذه الحركة ظهور قوة جديدة من جهة الشرق دفعت هذه القبائل أمامها جنوباً وغرباً. جاء هذا الضغط من ناحية قبائل «الهون» وهم من الجنس المغولى ومهدهم الاصلى وسط آسيا، بدأوا يزحفون غرباً فدفعوا أمامهم القبائل [illegible] أو الجرمانية

القوط الغربيون

لما اندفع «الهون» الى اوربا وغلبوا القوط الغربيين على نهر «دنيستر»

هرع هؤلاء الى الطونة يضرعون الى الامبراطور « فالنز Valenz » أن يسمح لهم بدخول بلاده . فأذن لهم بالاقامة فى شمال البلقان لأن اكثره كان قد خربته الحروب فأصبح غير مزروع فعبر الطونة منهم عام ٣٧٦ عدد يربو على مائة ألف وقد تحالف معهم الإمبراطور الا أنهم ثاروا ونهبوا البلاد سنة ٣٧٨ وخف الامبراطور لإخضاعهم فقتل فى موقعة أدرنة وتبدد شمل جيشه . وقد كشفت هذه الموقعة ضعف الجيش الرومانى بعد أن صار اكثر رجاله وقواده من المتبربرين فطمع القوط وغيرهم فى أملاك الدولة وجعلوا يزحفون اليها بأولادهم ونسائهم

موقعة ادرنه ٣٧٨ م .

وخلفه الامبراطور « تيودوسيوس » فانتصر على القوط وعاهدهم سنة ٣٨٣ على أن يمنحهم أرضاً فى تراقيا وآسيا الصغرى واشترط عليهم أن يقدموا لجيشه كل سنة ٤٠ الف جندى يقودهم ضباط من القوط تحت اشراف الامبراطورية . ولم يظهر خطر ذلك أثناء حكم « تيودوسيوس » لشدة بأسه ، ولكن لما خلفه ابناه الضعيفان « اركاديوس » فى الشرق و« هونوريوس » فى الغرب وعاصمته « رافنا » التى اختارها لمناخها وكثرة المستنقعات حولها ارتقى العرش القوطى « الرك Alaric » وهو أشهر اسم فى التاريخ القوطى . كان متحمساً للحرب طموحاً للفخار شريفاً فى معاملاته ومسيحياً مخلصاً نشب بينه وبين الدولة الشرقية خلاف فحاول أخذ العاصمة فحالت مناعتها دون أمنيته فغزا ايطاليا سنة ٤٠١ فقابلته جيوشها عند « ڤرونا » تحت إمرة قائد من الوندال اسمه « ستليكوه » وطردته من ايطاليا بعد هزيمة منكرة . وعلى الرغم من ذلك تعد سنة ٤٠١ نهاية الدولة الرومانية الغربية ، إذ من ذلك التاريخ بدأ الرومان يجلون حامياتهم

ألرك

عن الولايات الخاضعة لهم لحماية ايطاليا نفسها ولكن لم يمض سنون قليلة حتى سنحت «لالرك» فرصة انتصار سهل ، وذلك ان الامبراطور حسد قائده فأغرى به من قتله سنة ٤٠٨ م فأبى الجيش أن يخدم «هونوريوس» وانضم اكثره الى « الرك » فدخل ايطاليا واستولى على رومة. فأحس الناس أن الارض قد زلزلت، لطول اعتقادهم بأن رومة مالكة العالم ، وأنها المدينة الخالدة الابدية. وتقدم «الرك» لاتمام فتح ايطاليا فمات فى جنوبها سنة ٤١٠ فغادر القوط ايطاليا وزحفوا الى بلاد الغال ومنها الى أسبانيا حيث استقر بهم المقام نهائياً وأسسوا دولة امتدت من نهر « لوار » الى البوغاز المعروف بجبل طارق وبقوا بها الى أن جاء العرب سنة ٧١١ م

قبائل البرغنديين

فى منتصف القرن الثالث ترك البرغنديون موطنهم بين «القستولا» «والاودر» ونزلوا على المين والرين ومنحتهم الامبراطورية الجهة التى تحيط بمدينة « ورمز » سنة ٤١٣ ، ثم انتشروا فى جنوب شرق فرنسا الى أن وصلوا الى البحر الابيض المتوسط . فبقوا مستقلين الى أن هاجمهم الفرنجة نخضعوا لهم سنة ٥٣٤ واندمجوا فيهم ولا يزال الاقليم الذى كوّنوا فيه مملكتهم يعرف ببرغندية الى الآن

قبائل الوندال

فى شتاء ٤٠٦—٤٠٧ عبر عدد عظيم من «الوندال» و«السويفى» — وكلاهما قريب من القوط — نهر الرين الاوسط وتوغلوا فى البلاد على

مهل تاركين الارض بلقعاً أينما ساروا، حتى دخلوا مملكة القوط الغربيين فطردهم هؤلاء الى أسبانيا ثم عبروا الى افريقية

وكان « الوندال » جموعاً من المدمرين النهابين والقرصان الفاتكين تحكموا فى رقاب العباد فبادت حضارة افريقية بعد أن كانت من أغنى ولايات الامبراطورية وأعلاها كعباً فى الحضارة. ولما أقام «جينسرك» فى قرطاجة تطلع الى نهب جديد، وكانت قوته البحرية عظيمة فامتلك الجزر الواقعة فى غرب البحر الابيض المتوسط، ونهب رومة نهباً ذريعاً سنة ٤٥٥ وأصبح الوندال أصحاب السيادة فى تلك الجهة. ولكن مناخ افريقية لم يوافقهم، فضعفوا وانتشر الفساد بينهم فأخضعتهم الدولة الرومانية الشرقية سنة ٥٣٤

همجية الوندال

قبائل الهون

وفى أثناء الهرج الذى احدثه تحرك هذه القبائل واجهت أوربا خطراً داهما من ناحية « الهون » انفسهم إذ اتحدت قبائلهم بين الرين والولغا سنة ٤٤٤ بزعامة قائدهم « اتلا » الذى تمكن من اعداد جيش أكثره من الهون والجرمان وجعل يغير على الدولة الرومانية الشرقية ثم اخترق ألمانيا وأراد الهجوم على فرنسا وكان بعضها بيد الرومان والبعض الآخر بيد قبائل الجرمان كما تقدم فاتحد الجانبان على مقاومة «اتلا» فقابلاه سنة ٤٥١ بقيادة آخر قائد رومانى عظيم وهو «اتيوس Aetius» فهزمه فى « شالون » فتقهقر «اتلا» عن طريق الطونة. وفى السنة التالية اخترق ممرات الالب الشرقية وغزا ايطاليا حتى ميلان حيث تفشت

هجوم الهون

موقعة شالون

الحمى فى جيشه فاجتاز جبال الألب قافلا ومات فى السنة التالية . وتعتبر موقعة « شالون » من الوقائع الحاسمة فى التاريخ إذ تخلصت اوربا من حكم الجنس المغولى فى بلادها . وكان «اتلا» قد أوقع الرعب فى قلوب الرومان والجرمان ، فأطلقوا عليه لقب « عذاب الله » . وبموته تفرقت القبائل ، واستقلت كل العشائر الصقلبية والجرمانية التى كانت خاضعة لحكمه ، وتفرغت للاستفادة من ضعف الدولة الرومانية ، باعادة الكرة عليها ، كما كانت تفعل قبل هجوم «الهون»

نهاية الدولة الرومانية فى الغرب : رغم كل ما وقع بقى طيف الامبراطورية فى ايطاليا وبقى فى «رافنّا» شخص يسمى نفسه امبراطوراً حوله حاشية ضخمة . أما القوة فكانت بيد القواد الذين تعاقبوا على قيادة الجنود وحكموا البلاد باسمه وكلهم متبربرون ، حتى إنه سنة ٤٧٦ توج أحدهم وهو « ارستيز Orestes » ابنه « رميولس أغسطيولس Romulus Augustulus » امبراطوراً وكان يريد أن يحكم بالنيابة عنه ، لكن الجند ثاروا بقيادة زعيم يسمى «أدوكر Odoacer » فقتلوا «ارستيز» وعزلوا ابنه وبقى «ادوكر» صاحب الامر ، ولو أراد لتوج نفسه أو غيره امبراطوراً ولكنه لم يعبأ بذلك بل أرسل الى القسطنطينية التاج وبقية شارات الملك معلناً أن ايطاليا ليست فى حاجة الى امبراطور خاص وطلب أن يمنح لقب حاكم ايطاليا فكان ذلك بمثابة اعتراف منه بسيادة الدولة الشرقية على ايطاليا وان لم يكن لها غير الاسم بينما كان بيد « أدوكر » كل القوة

وبذلك انتهت فى سنة ٤٧٦ الامبراطورية فى الغرب الذى فيه

نشأت والذى كان عماد قوتها ، وان بقى قياصرة الشرق يلقبون أنفسهم روماناً باشكال شتى، نحو ألف سنة أخرى

القوط الشرقيون

بانتصار « ادوكر » سنة٤٧٦ صارت ايطاليا فى قبضته رغم خضوعه للامبراطور نظريا وكان يؤيده جيش عظيم أكثره من الجرمان فحكم البلاد حكما قوياً وأعاد الامن إلى نصابه ونفذ القوانين فبدأت البلاد تُفيق من آثار العسف والظلم وشرع الرخاء يرجع اليها لولا أن فاجأه عدو جديد وهم القوط الشرقيون .

أقام القوط الشرقيون مدة على نهر الطونة الاوسط واضطروا للخضوع للهون واشتركوا فى انتصارات «اتلا» وهزائمه، ثم استقروا شرقى البحر الادرياتى ، تحت حكم ملكهم العظيم « ثيودوريك Theodoric » الذى قضى عشر سنين فى القسطنطينية خبر اثناءها أحوال البلاد الاجتماعية والدينية، وعرف نقط القوة والضعف فى الامبراطورية، وفى سنة ٤٨٩ حرضه الامبراطور « زينو Zeno » الذى كان يود التخلص من «أدوكر» بأية وسيلة ـ على غزو ايطاليا، فغزاها بجميع قومه وهزم أدوكر فى ثلاث مواقع واتفق تيودوريك وأدوكر أن يحكما البلاد معاً إلا أنه اثناء الاحتفال بالصلح قتل أدوكر وصار أمر ايطاليا بيد تيودوريك

أعمال تيودوريك

أبدى تيودريك نشاطاً واسع النطاق وحاول أن ينشىء مملكة قوية على أساس متين فأقام فى « رافنا » وأضاف كثيراً إلى مبانيها وكنائسها مشركا معه فى بنائه وسياسته نوابغ الرومان وقلد مراسم

وشكل حكومة الدولة الشرقية ، وكان غرضه الجمع بين قوة القوط وحضارة الرومان

وعاشت ايطاليا فى هدوء غير معهود إلى أواخر حكم تيودوريك إذ اصلح الطرق وجفف المستنقعات وحافظ على الأمن وأقام ميزان العدل وشجع الزراعة فبدأت التجارة تنتعش بعد أن اضمحلت حتى اعترف البابا « أن ايطاليا قد هدأ روعها بعد عواصف الحرب الدائمة » وكانت له القوة الكبرى فى ايطاليا وغرب أوربا ، تربطه صلات المصاهرة أو المحالفة مع أكثر الممالك المتبربرة التى أنشئت أخيراً من برغنديين وفرنجه وقوط غربيين ووندال وكانوا جميعاً يعترفون له بالمنزلة الأولى الا انه عند موته سنة ٥٢٦ تبدد ملكه لعدم وجود وارث له

قبائل الانجليز والسكسون والجوت

لما أخذت الدولة الرومانية فى الضعف اضطرت إلى سحب حامياتها من الجهات النائية لتحمى وطنها الأصلى من غارة « ألرك Alaric » فترك الرومان بريطانيا بعد أن نسى أهلها صفاتهم الحربية الأولى ، وأصبحوا غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم . فأغارت عليهم قبائل « الانجليز » و « السكسون » و « الجوت » الذين جاءوا من المانيا أثناء القرنين الخامس والسادس عقب سقوط الدولة الرومانية الغربية وسهل عليهم التغلب على البريطانيين الذين احتموا بالمستنقعات والجبال الغربية وأصبحت البلاد تعرف باسم « انجلند » أى أرض الانجليز وَلذا يحسن التكلم عن هؤلاء المغيرين باسم الانجليز

كان الانجليز وثنيين عند ما هاجموا بريطانيا فأولعوا بنهب الاديرة والكنائس ، ولكن البابا « غريغورى الاكبر » أرسل اليهم الراهب «أغسطين» سنة ٥٩٧ م. فانتشرت المسيحية بين الانجليز أنفسهم وارتبطوا من ذلك العهد باسقفية رومة . أما من الوجهة السياسية فقد أنشأوا ممالك صغيرة متنافرة وبقيت فى نزاع وشحناء حتى تغلبت « وسكس » (أى مملكة السكسون الغربيين) على جميع الانجليز سنة ٨٢٥ وأصبح « اجبرت Egbert » ملكا على انجلترا كلها

قبائل اللمبارد فى ايطاليا

(٥٦٨ — ٧٧٤)

نزل بايطاليا قوم متبربرون من الجنس الجرمانى يسمون باللمبارد وكانوا قوماً همجيين وثنيين قطنوا شمال ايطاليا فى وادى نهر « بو »ولا يزال هذا الجزء معروفاً باسمهم للآن . وقد استولوا على كل ايطاليا ما عدا أماكن معينة كانت تحميها الامبراطورية الشرقية بأسطولها مثل صقلية وقرشقة وسردانيا

وقد تحسنت العلاقات بين اللمبارد وأهل ايطاليا، على أثر تحول اللمبارد الى مذهب كنيسة رومة، فأصبح من المستطاع الاختلاط والتزاوج، فتركوا بذلك اسمهم فى شمال ايطاليا، وبقوا عنصرا فى سكان البلاد وحضارتها، بينما لم يترك القوط الغربيون ولا الشرقيون أثراً بعدهم،

الفرنجة

الفرنجة قوم من قبائل الجرمان يبدأ تاريخهم الحقيقي من سنة ٤٨١م وهى ابتداء حكم ملكهم « كلوفس أو كلدوج Chlodwig » حين كان موطنهم وادى الرين الأسفل، والشلد والموزالى دوفر

حالة بلاد الغال

وكانت بلاد الغال متنازعة بين دول مختلفة فكان وادى السين تحت العلم الرومانى يحكمه « سيجريوس Syagrius » وكانت تلك الجهة آخر ما بقي من الدولة الرومانية شمال جبال الألب . وكان القوط الغربيون يقيمون جنوب نهر لوار ، والبرغنديون يسكنون حوض الرون وما يليه شرقا ، والالمان Alamanni ينزلون فى أعالى الرين والغابة السوداء وكل هذه الجهات امتلكها «كلوفس» قبل موته . ووقعت له أثناء قتال الالمان قصة أهمّ من كل انتصاراته فى تاريخ الفرنجة ، وذلك أنه بتأثير زوجته — وكانت برغندية مسيحية — نذر أن يعتنق المسيحية اذا كلله إله المسيحيين بالنصر ، فلما انتصر اعتنق الدين المسيحى على مذهب الكنيسة الغربية سنة ٤٩٦ وتبعه كثير من الفرنجة ، فبدأت العلاقات الودية بين الكنيسة وملوك الفرنجة ، وبقى هذا الاتفاق قروناً طويلة، وسهل على الفرنجة احتلال الاقاليم المجاورة، وتكوين مملكة عظيمة

الفرنج والكنيسة

ولما مات كلوفس سنة ٥١١ قسمت أملاك الفرنجة بين أولاده الأربعة ولكنهم رغم ذلك وسعوا ملكهم بالتغلب على ثورنجيا وبرغندية وبفاريا

وبدأ الفرنجة في الغرب يتأثرون بحضارة الرومان تأثراً سريعاً ،

واختلفوا بذلك عن اخوانهم الذين بقوا فى الشرق محافظين على نظمهم وعاداتهم الجرمانيـة ، وساعد على هـذا الانفصال بقاء القسمين الشرقى والغربى مدة طويلة تحت حكم ملـكين متعاديين ، وسمى الجزء الشرقى « استراسيا Autrasia » والغربى « نستريا Neustria » وكان العنصر الجرمانى متفوقا فى استراسيا التى نشأت منها المانيـا الحديثة ، بينما التأثير الرومانى كان غالباً فى « نستريا » التى صارت فرنسا فيما بعد

حجاب القصر اونظار السراى

ولماعظم قصر الملك أيام «كلوفس» عين على خدمه ناظراً يشرف عليهم صار مسئولا عن ادارة القصر وكانت الوظيفة حقيرة فى أول أمرها الا أن صاحبها صار الواسطة بين الملك والرعية فعظم شأنه تدريجاً حتى أصبح وزيراً مسيطراً على الملك . وقـد تمكن بيپين ٧٨٧ — ٧١٤) من الاستقلال بهذه الوظيفة فى استراسيا واستولى بعد حروب طويلة على نستريا فصار يحكم جميع الفرنجه ووضع بذلك أساس دولة شرلمان الشهيرة وجاء بعده ابنه شارل مارتل (٧١٤ ـ ٧٤١)

شارل مارتل

وسع شارل مملـكته شرق الرين بانتصاره على السكسون والبڤاريين وعاضد الكنيسة داخل بلاده وخارجها — كما عاضدها كل ملوك الفرنجة من بعـده — وشجع المبشرين على نشر المسيحية بين الجرمان شرقى الرين، فحسنت العلاقات بينه وبين البابا . وفى عهده حدثت موقعة «تور سنة ٧٣٢» التى انتصر فيها شارل على عبد الرحمن الغافقى عامل بني أمية على الاندلس ، وخلفه ابنه بيپين فى الحـكم

الفرنجة والبابا

وفى هذه الاثناء كان اللمبارد قد انتزعوا من الدولة الشرقية كل شمال إيطالياء وجاروا على الأراضى التى كان يحكمها البابا بالنيابة عن الدولة

فاحتاج البابا الى حليف يشد أزره على اللمبارد ولم يكن في استطاعته أن يستعين بالامبراطورية لما كان بين رومة وقسطنطينية من العداء الشديد ولهذا استجار البابا بحاجب الفرنجة وكان « بيبين Pippin » يتطلع الى التاج ويخشى العاقبة ، فأرسل وفداً الى البابا يستفتيه فيمن يجب أن يكون ملكا، أصاحب اللقب الذى لا قوة له أم صاحب القوة الذى لا لقب له ؟ فأفتى البابا بأن صاحب القوة يجب أن يحوز اللقب أيضاً، فتشجع « بيبين » بفتوى البابا، وجمع الاشراف ورجال الدين فوافقوا على عزل الملك القديم، وحملوا « بيبين » على أعناقهم حسب عاداتهم وولوه ملكا. وعرفت اسرته بأسم الاسرة « الكارولنجية » نسبة الى ابنه شارل أو شارلمان . وكان لهذا التتويج شأن عظيم فى نظريات الملكية لان الملك كان ينتخبه أشراف البلاد، فلما وافقت الكنيسة على تتويج بيبين ومسحته ملكا، أصبح منصب الملك مقدساً لا يستطيع أحد أن يتعرض له دون أن يستهدف لسخط الكنيسة فأصبح مركز الملك مصوناً من كل اعتداء ونشأت نظرية الحق الآلهى التى مؤداها أن الملك يستمد قوته من الله تعالى

ملك الفرنجة

بيبين في ايطاليا

وفى سنة ٧٥٤ تقدم بيبين الى ايطاليا وهزم اللمبارد، وأجبرهم على رد أكثر ما استولوا عليه من الاقاليم وقدمه منحة للبابا وصار البابا يحكم ما بين راڤنا ورومة كامير دنيوى نائب عن الملك وتابع له، وبهذا تكون ما يعرف فى التاريخ باسم « ميراث القديس بطرس »

وقضى بيبين بقية حياته فى إصلاح شئون بلاده وتمهيد الطريق لقيام دولة شرلمان

الدولة الرومانية الشرقية

الامبراطور جستنيان Justinian ٥١٧ — ٥٦٥ م

على الرغم مما أصاب الغرب بسبب غارات البرابرة ظلت الدولة الرومانية الشرقية قائمة محتفظة بقوتها ومدنيتها مدة ألف سنة بعد سقوط رومة . وذلك بفضل مناعة قسطنطينية وخيرات آسيا التى كانت تتدفق إليها ولصغر مساحتها بعد فقد الغرب ، إذ أن ذلك سهل مهمة الدفاع عنها. إلا أن الدولة لم تكن رومانية إلا اسماً فقط والحقيقة أن مدنيتها ولغتها وجنسيتها أصبحت أغريقية

ومن أعظم الاباطرة الذين أصلحوا حال الدولة «جستنيان» وليس فى تاريخ القياصرة أشهر من اسمه . كان جستنيان ذا مقدرة عظيمة له ولع بأشياء كثيرة كالبناء والقانون والدين والتجارة والصناعة والحرب والسياسة والإدارة ، وكان قوى الارادة يحسن اختيار الرجال. ومن الأسماء الملازمة لاسمه اسم زوجته «ثيودورا» التى تزوج بها وكانت من الممثلات وقد لعبت دوراً هاماً فى تاريخ جستنيان ، واسم قائده «بلساريوس» الذى أحرز انتصارات عظيمة بجنود قليلة ورفع شهرة الجيوش الرومانية إلى أعلى مستوى بلغته فى ماضيها

استرجاع افريقية

فلما أحس الامبراطور بقوة جيشه ومهارة قائده، التفت إلى الولايات الغربية التى لم يزل يعتبرها جزءاً من ملكه ، وأول مانزلت ضرباته على أفريقية التى دخلها بلساريوس عام ٥٣٣ ووجد « الوندال » فى حالة لا يستطيعون معها المقاومة ففتحها فى بحر سنة واحدة

استرجاع ايطاليا

وبعد فتح أفريقية توجه بلساريوس الى غنيمة أكبر فعبر، ومعه ٧٥٠٠ رجل إلى صقلية فاحتلها بدون مشقة عام ٥٣٥، ونزل بجنوب ايطاليا فى السنة التالية فوجد القوط الشرقيين قد انحطوا كثيراً وإن لم يصلوا الى درجة الوندال. ولذا اكتسح «بلساريوس» كل شيء أمامه فسقطت نابلى وروما. وعبثاً حاول القوط استرجاع روما بجيش قدره ١٥٠,٠٠٠ مقابل ٥٠٠٠ كان يقودهم بلساريوس

وفى سنة ٥٤٠ سلمت « رفنا » بسبب الجوع وعصيان الجند وعاد بلساريوس منتصراً إلى قسطنطينية فصار جستنيان أكبر قوة حربية ثم أضاف فى عصره جنوب شرق اسبانيا سنة ٥٥٠

اضمحلال قوة جستنيان

بعد هذا أخذ نجم جستنيان وقائده يأفل حتى لم تحقق نهاية حكمه الآمال التى كانت تنتظر فى أوله. إذ حصلت أزمة مالية شديدة ناتجة عن كثرة المبانى العظيمة التى شيدها والتى تشهد ببراعة المهندسين فى عصره وأهمها كنيسة «القديسة صوفيا»

ظهور الفرس والصقالب

وأهم العوائق التى حالت دون نجاح تصميمات جستنيان مقاومة الفرس والصقالبة. فاما الفرس فبلغت منتهى قوتها فى عهد كسرى الاول (٥٣١ — ٥٧٩) فلم يستطع الأمبراطور أن يخضد شوكتها، بل اضطر بعد جهود كبيرة أن يدفع جزية للفرس ويتنازل لهم عن شيء من أملاكه.

وأما الصقالبة فأقاموا فى البلقان فيما يعرف الآن باسم يوجوسلافيا وبلغاريا واليونان واندمجوا بالسكان بدرجة عظيمة

ضياع ايطاليا ثم استرجاعها

اما فى ايطاليا فكثرت الشكوى من الجباة وساد السخط،

فعرضت الفرصة للقوط الشرقيين ثانياً، واستردوا ايطاليا ماعدا «راڤنا» التى بقيت وحدها فى يد جستنيان

الا أن الامبراطورية لم تيأس من استرجاع ايطاليا فارسلت عام ٥٥٢ ذلك الرجل المسن « نرسيس Narses » وكان ذا مقدرة حربية عظيمة. فتقدم الى ايطاليا براً ووصل الى راڤنا ثم هزم القوط واعاد ايطاليا مؤقتاً الى حكم الدولة الرومانية الشرقية

مجموعة القانون الرومانى

وأهم ما يذكر به عصر «جستنيان» تأليفه لجنة لجمع شتات القانون الرومانى وبهذا ختم وضع المجموعة المعروفة باسمه، خالية من المتناقضات ومن الأغلاط، وظهرت أيضاً مجموعة بأهم الأحكام التى أصدرها كبار المشرعين والقضاة .

واشتهر جستينيان بشدة اضطهاده للوثنيـة وكانت لاتزال باقية فى بعض جهات شـبه جزيرة البلقان وأدى به عداؤه للوثنية إلى غلق جامعة أثينا التى هى مركز للتعاليم الوثنية . وقد توالت المصائب على الدولة للأسباب التى ذكرناها وبسبب انتشار وباء فتاك قضى على عدد عظيم من سكان الدولة وعادت الحال الى ما كانت عليه قبل جستينيان

هرقل الاول

وجاء بعد جستنيان أباطرة ضعاف لم يزيدوا الدولة إلا خبالا الى أن اعتلى العرش « هرقل الأول » (٦١٠ — ٦٤١) فحاول أن ينهض بها، ولكن النوائب ما فتئت تحل بالدولة من جراء المنازعات الدينية التى شغلت أذهان الناس حتى اضطر « هرقل» أن يقضى أكثر وقته فى محاولة حسمها، وبسبب فداحة الضرائب الناشئة من تبذير الاباطرة

واعفاء كثير من الطبقات الشريفة منها ، وازدياد قوة الشعوب الصقلبية النازلة فى البلقان واللمبارد فى ايطاليا

نهوض الفرس

ومما زاد الحالة سوءاً نهوض دولة الفرس الساسانية التى قامت سنة ٢٢٧ ، وأول ملوكها « أردشير الأول » الذى وحد ديانة الدولة ، ثم ما لبثت أن قويت الدولة فى عهد خلفه فهاجمت الدولة البوزنطية وأخذت انطاكية . ومنذ ذلك الوقت استمر الكفاح بين الدولتين حتى خربت الحرب آسيا الصغرى التى كانت ميدان النضال بين الجانبين احداهما تمثل المسيحية والأخرى تمثل الديانة القديمة . ولما اعتلى كسرى الأول عرش الفرس (٥٣١ — ٥٧٩) تجددت قوة الدولة الساسانية فاستولى الفرس على بلاد اليمن التى كانت تحت حكم الحبش وكان كسرى من معاصرى جستنيان واشتهر بحبه للعلم والعلماء والفتوح

وفى عهد خلفه كسرى الثانى (٥٩٠ — ٦٢٨) كسب الفرس عدة انتصارات باهرة ضد الدولة البوزنطية فأخذ دمشق والقدس عام ٦١٤ . وفى ٦١٩ استولى على مصر وبذلك قضى على معظم أملاك الدولة البوزنطية فى الشرق

ولكن ما كاد كسرى يستولى على هذه الاملاك حتى ظهر « هرقل » وصمم على إعادة مجد الدولة فجمع قواته وحارب الفرس وهزمهم فى عدة مواقع أهمها موقعة « نينوى » ٦٢٧ ولكن بينما كان الروم منتصرين فى الشرق كان الفرس يهددون القسطنطينية فى الغرب وما لبث ان خرج ابن كسرى على أبيه وقتله وعقد الصلح مع الامبراطور على أن تبقى حدود الدولتين على ما كانت عليه أولا

وبينما كان أكبر ملوك الأرض إذ ذاك يجدّان فى توطيد ملكهما وتنظيم قواتهما ، اذ وصلت الى كل منهما سنة (٦٢٨) رسالة من شخص غير معروف لهما يدعوهما فيها للأيمان بدين جديد . أما الامبراطور فلم يأبه للدعوة ، وأما كسرى فانه غضب ومزق الرسالة ورمى بهـا فى وجه حاملها . أما الرسالة فهى رسالة الإسلام لصاحبها محمد صلى الله عليه وسلم

الفصل الثاني

تاريخ العرب

بلاد العرب : جغرافيتها وحالتها الطبيعية

بلاد العرب شبه جزيرة واسعة تمتد من صحراء سوريا شمالا إلى المحيط الهندى جنوباً، ومن البحر الاحمر غرباً الى الخليج الفارسى شرقاً. وتنقسم إلى عدة أجزاء متباينة يختلف بعضها عن البعض الآخر من حيث التربة والمناخ والسكان. وأهمها الحجاز وينحصر بين البحر الاحمر وسلسلة الجبال المحاذية له ، وفى الزاوية الجنوبية الغربية توجد اليمن ، ويطلق اسم تهامة على سهول اليمن والحجاز ، وقد يقصر هذا الاسم أحياناً على جنوب الحجاز ، وتقع حضرموت شرقي اليمن على شاطىء المحيط الهندى ، وعمان شرقى حضرموت وتوجد الأحساء والبحرين على خليج فارس ، وفى وسط بلاد العرب توجد هضبة نجد .

وليس بجزيرة العرب أنهار صالحة للملاحة ، انما يوجد نهيرات وسيول قليلة مبعثرة تخصب التربة حولها ، ويندر المطر بهذه البلاد ولذا كانت قاحلة ، اللهم إلا حول الأمواه ، حيث الخصوبة موفورة كما هو الشأن فى وديان اليمن حيث يزرع البن والنيلة والنخيل وأشجار الفاكهة بأنواعها وحيث الجو مائل الى البرودة شتاء .

أما الحجاز فكثيرة الأنجاد والوهاد، ولا سيما حول مكة حيث تسطع أشعة الشمس المحرقة على صخور وعرة ووديان مقفرة، قليل كلؤها ضئيل

حيوانها ، الا أنه الى الشرق من مكة يوجد «الطائف» ببقله واشجاره الضئيلة من تفاح وتين ورمان وعنب

أثر طبيعة البلاد فى أهلها

ولما كان أكثر هذه البلاد صحراء جدباء. يصعب التنقل بين فيافيها القليلة المدن والمؤن والماء، وكان جوها على العموم قارياً، لم يجرؤ المهاجمون على التوغل فيها فتمتع أهلها بالحرية والاستقلال أكثر عصورهم ولم تقم بينهم حكومة مركزية يخضع لها جميع السكان، بل كانت القبيلة هى الوحدة السياسية والاقتصادية، تدافع عن كرامتها وتقوم بحاجاتها وتخضع لحكومة أبوية يرئسها الأكبر سناً أو الارجح عقلا ، لا يقطع أمراً دون أن يتعرف رأى وجوه قومه. وقد أدت قلة خيرات البلاد الى تشاحن القبائل المختلفة على امتلاك الوديان الخصيبة والواحات اليانعة ، فكانت الحرب سجالا وبقى تنازع البقاء بين القبائل قائما على قدم وساق حتى جاء الإسلام

اصل العرب

ويقال ان أول من نزل ببلاد العرب قوم من أصل كلدانى أسسوا حضارة لا تزال آثارها باقية باليمن ، وقد قضى على هؤلاء قبائل من الجنس السامى جاءوا مما يلى الفرات شرقاً ونزلوا بحضرموت واليمن وهم بنو قحطان ومن نسلهم «يعرب» الذى سميت البلاد وأهلها باسمه . ثم جاء بنو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، فنزلوا فى الحجاز وبنوا الكعبة التى كانت ولا تزال أقدس بقعة عند العرب وسائر المسلمين

وينقسم العرب عامة الى حضر يقيمون فى المدن وبدو يسكنون الخيام ويهيمون فى الصحارى والهضاب انتجاعاً للمرعى. وكان عرب الطرف الشمالى الغربى على اتصال بالرومان ، كما أن أهل الطرف الشمالى الشرقى كانوا متصلين بالفرس. أما اليمن فاستولت عليها الحبشة حوالى سنة ٥٠٠ م .

ثم طردها سيف بن ذى يزن بمساعدة الفرس الذين بقوا يحكمونها الى أن بادت حضارتها فى أوائل القرن السابع

الدين

وقد بقى اليهود والمسيحيون الذين دخلوا بلاد العرب على دينهم . أما العرب أنفسهم فكانوا يعبدون الاوثان والنجوم ، لكل جهة ولكل قبيلة آلهة ، وكانت الكعبة مركز عبادتهم جميعاً وبها ٣٦٠ صنماً تمثل آلهة القبائل المختلفة وتقدم لها القرابين حتى من بنى الانسان

اسواق العرب

ولما سئم العرب استمرار القتال جعلوا أربعة أشهر حرما — كما جعل الاوربيون الهدنة الربانية — تبطل أثناءها المنازعات وتحقن الدماء ، واستعملوا هذه الفرصة لتبادل المتاجر وعقدوا أسواقاً كعكاظ وذى المجاز للمباراة فى ميدان الفصاحة شعراً ونثراً ولتوزيع الجوائز على النابغين، فتقاربت أفكار العرب ولهجاتهم وأخذت لغة قريش تسود غيرها حتى نزل القرآن بها وأصبحت اللغة الادبية والرسمية

ظهور قريش

واشتهر من بنى اسماعيل قريش فى القرن الثالث، وعلت منزلتهم بين العرب، ثم ظهر من بينهم «قصى» فى القرن الخامس، فساد مكة ثم الحجاز كله، وأعاد بناء الكعبة، وابتنى قصرا أطلق عليه دار الندوة تجتمع فيها رؤساء القبائل أيام الموسم للتشاور فى أمور العرب كافة . ونظم «قصى» الحكومة وجمع الضرائب وأعدّ الطعام والشراب للحجاج ؛ وورث أبناؤه عنه منزلته ووظيفته الى أن وصلت الى هاشم ثم الى ابنه عبد المطلب سنة ٥٢٠ م ولم يكن لبنى هاشم منافسون سوى بنى أمية وهم أحفاد عبد الدار أحد أخوة « قصى » فحسدوا بنى هاشم على رفيع مكانتهم وحاولوا انتزاع حكم

مكة منهم فأخفقوا فى مسعاهم ، وبقى عبد المطلب يحكم مكة نحو تسع وخمسين سنة

عام الفيل

وفى عهد عبد المطلب أرسلت الحبشة جيشاً الى مكة بقيادة « أبرهة » وكان معه بضع فيلة فوصل مكة عام ٥٧٠ الذى اشتهر بعام الفيل ، فوقع الرعب فى قلوب العرب لأنهم لم يألفوا الغزو الاجنبى ولم يكن لهم علم باستعمال الفيلة فى الحروب ، فاستجار عبد المطلب بالكعبة



مكة المكرمة

وما لبث أن ارتد « أبرهة » على عقبيه لتفشى المرض فى جيشه ولهطول مطر وبرد اكتسح الوادى الذى كان يعسكر فيه جيش الحبشة [1] ولعظم وقع هذا الحادث فى نفوس العرب صاروا يؤرخون به

بعثة النبى صلى الله عليه وسلم

نشأة النبى

كان لعبد المطلب أبناء وبنات كثيرون اشتهر منهم أبو طالب والعباس وحمزة وأبو لهب وعبدالله . وكان عبد الله أصغر إخوته تزوج

(١) سورة الفيل

بآمنة بنت وهب ومات في الخامسة والعشرين، وبعد موته بأيام وضعت آمنة سنة ٥٧٠ ولداً سماه جده «محمداً» وسلمه الى حليمة السعدية لترضعه، فنشأ معها فى الصحراء حتى بلغ السادسة حين ماتت أمه، فكفله جده عبد المطلب، فلما مات سنة ٥٧٩ كفله عمه أبو طالب الذى خلف أباه فى رياسة مكة ولم يكن ثرياً كأسلافه فقام بنوه وابن أخيه برعاية الغنم فكان النبى يفاخر بذلك ويقول ما من نبي إلا وقد رعى الغنم

ثم سافر سيدنا محمد وهو صبي مع عمه الى الشام فزاد علمه بالناس وحالهم وما كانوا عليه اذ ذاك من انحطاط فى الأخلاق وانقسام فى الدين

زواجه من خديجة

ولما بلغ النبى أشده قام بتجارة لخديجة وكانت أرملة من أغنياء مكة وأشرافها، فربح أرباحاً وفيرة وعرفت فيه خديجة الدقة والأمانة فتزوجت به بعد أن رفضت التزوج من أشراف العرب . وكان عمره إذ ذاك خمساً وعشرين سنة وعمرها أربعين فولد لهما ثلاثة أولاد ماتوا أطفالا وثلاث بنات عشن حتى رأين عظمة أبيهن وتزوجت صغراهن «فاطمة الزهراء» من على ابن أبي طالب

حياته قبل البعثة

قضى محمد بعد زواجه خمسة عشر عاما في حياة هادئة بمكة عرف أثناءها بحلاوة شمائله وطهارته وإخلاصه وحبه للواجب وأمانته حتى لقب بالأمين . وظهر شأنه حين شرعت قريش فى إعادة بناء الكعبة واختلف أشراف مكة أيهم يضع الحجر الاسود فى مكانه، فحكم بينهم وأرضاهم بأن وضع الحجر فى ردائه وطلب الى رؤساء القبائل جميعا أن يرفعوا الرداء

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يحب العزلة ويكره الملاهى ولا يشترك مع الجاهلية فى أعيادها أو اجتماعاتها وكان أمياً ولا يقول الشعر ، ولكنه تعلم شيئاً من دين ابراهيم عليه السلام عن قريب له اسمه «ورقة بن نوفل فكان» يعمد إلى غار « حراء » بالقرب من مكة يقيم به شهراً كل سنة متعبداً مفكراً

البعثة

فبينما هو كذلك مرة إذ نزل عليه الوحى وشعر أن مناديا يقول له اقرأ فقال ما أنا بقارىء فكررها عليه مرتين ثم قال « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علّم الانسان مالم يعلم » فارتجف قلب النبى خوفاً ورجع إلى خديجة وأخبرها بما سمع ، فصدقته وأخذته إلى ورقة ابن نوفل فقال « هذا الناموس الذى انزل الله على موسى » فقام عليه السلام ينشر الدعوة سراً بين آله وصحبه فآمنت به خديجة ثم آمن على وابو بكر وعمر وحمزة وعثمان

ايذاء قريش للنبى

ولما علمت قريش بدعوة النبي سخروا منه فلما رأوا قوة تمسكه بدعوته وشدة مراسه شكوه الى عمه أبى طالب فنصح له . فقال رسول الله « والله ياعمى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الامر مافعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه » فجعلت قريش تؤذيه واشتد الأيذاء بعد موت عمه أبى طالب وزوجه خديجه ، وبعد أن صارت زعامة مكة لابى سفيان بن حرب بن أمية. فتحدته قريش بأن يأتى بالمعجزات فنزل قوله تعالى « قل سبحان ربى هل كنت الا بشراً رسولا » وجعل الرسول يتلو عليهم القرآن وهو أقوى معجزات النبى صلى الله عليه وسلم، وبلغ من غلو قريش فى العناد والجحود أن قالوا بلسان

القرآن « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم »

الهجرة ٦٢٢ م

عند ذلك يئس النبي من كفار مكة وأمر أصحابه بالهجرة الى الحبشة، ثم قصد «الطائف» فلم يلب الناس دعوته فعول على نشر ما أمر به فى موسم الحج ، فآمن به جماعة من أهل يثرب وتعاهدوا على حمايته اذا هو انتقل الى مدينتهم . فأرسل بعض أصحابه اليها ثم ترك علياً فى فراشه وهاجر هو وأبو بكر ليلة دبر الاعداء قتله سنة ٦٢٢ م وهى أول التاريخ الهجرى فلما وصل اليها قابله أهلها بالبشر والترحاب (١)

مركز النبي صلى الله عليه وسلم فى المدينة

لما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيثرب سماها المدينة وبنى



المدينة المنورة

(١) استقبله أهل المدينة وهم يترنمون بالانشودة المعروفة حسب رواية بعضهم :

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالامر المطاع

مسجداً عمل فيه بنفسه ومحا العداء بين الأوس والخزرج — وهما أشهر قبائل المدينة وكانت الحرب بينهما سجالا — بتسميتهم جميعاً الانصار، وآخى بينهم وبين المهاجرين فعاشوا على وفاق بفضل قوة الجامعة الجديدة. وحث على الأخاء والرفق بالأطفال واليتامى والأرامل والأرقاء والحيوانات

الجمهورية في المدينة

ولم يكن ببلاد العرب في ذلك الوقت قانون أو نظام عام. بل كانت البلاد في نزاع دائم وفوضى شاملة، فبدأ النبي بوضع نظام ثابت لهذه الجمهورية الصغيرة ونشر عهداً لمنع الترات وإيقاف الشحناء وساوى يهود المدينة وما حولها بالمسلمين في الحقوق، وتعهدوا هم بالاشتراك في الدفاع عن المدينة

الغزوات

وقد اغتاظت قريش لفرار محمد وأصحابه وحقدوا على أهل المدينة إيواءهم المسلمين وتهددوهم، فكان لا بد من الاستعداد للدفاع. وبهذه الظروف أصبح رسول الله، لا داعياً الى الدين فحسب، بل رئيساً لحكومة المدينة وقائداً لجيشها. وقد أدى دفاع المسلمين عن أنفسهم الى سلسلة من الغزوات بها انتشر الاسلام بسرعة لم تعهد في التاريخ، وقد اشترك النبي صلى الله عليه وسلم في تسع منها

وكانت قريش ترى أن محمداً وأصحابه انما هم شرذمة من الثوار يجب قتلهم ولا سيما بعد أن صارت لهم القوة في المدينة وهي على طريق التجارة الى الشام، فجدّ المسلمون في مهاجمة قوافل مكة ونالوا أول انتصار لهم في السنة الاولى بعد الهجرة في غزوة بدر على بضعة أميال من المدينة وقد أحسن المسلمون معاملة الأسرى

بدر

أحد

انقضت السنة الثانية فى هدوء بوجه عام اذا صرفنا النظر عن هجمات قليلة شنها أهل مكة على المدينة . فلما كانت السنة الثالثة جمع أبو سفيان ابن حرب بن أمية — عدو بنى هاشم — جيشاً يبلغ ثلاثة آلاف ، هزم بهم المسلمين علي سفح جبل أحد ، ولكنه لم يستطع التقدم الى المدينة لكثرة خسارته

غزوة الاحزاب

وبعد أن ضمدت قريش جراحها جمعت حلفاءها وهاجمت المدينة بعشرة آلاف فجمع النبي أعوانه وحفر خندقاً حول جزء من المدينة ، واعتمد فى الدفاع عن الجهة الجنوبية على حلفائه من اليهود وهم « بنو قريظة » ولكن هؤلاء انضموا الى الأعداء وضيقوا الخناق على المسلمين مدة ، حتى ظهر كأن العوامل الطبيعية تحارب مع المحصورين اذ هبت عواصف ممطرة قتلت كثيراً من خيل الكفار وقللت من مؤنهم فتفرق شملهم [١]

المسلمون واليهود فى المدينة

ولما نكث بنو قريظة عهدهم وانحازوا الى الاعداء رأى المسلمون انهم لا يأمنون على أنفسهم ما دامت هذه القبيلة قريبة منهم فطلبوا اليهم الأرتحال فابوا ، فقاتلوهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً . وكان المسلمون قبل ذلك يعطفون على اليهود ويولون وجوههم شطر أورشليم « بيت المقدس » فى صلاتهم ، فأخذ النبي بعد هذا يقلب وجهه فى السماء يريد قبلة يرضاها فأمر أن يولى وجهه شطر المسجد الحرام . وفى هذا ارضاء واستمالة للعرب الذين كانوا يخشون على مركز مكة بعد ظهور الاسلام

وفى السنة السادسة أعطى النبى عهداً للرهبان خاصة ، وللمسيحيين عامة المقيمين فى بلاد العرب ، أن يدفع عنهم الاذى ويحمى كنائسهم

(١) سورة الاحزاب

وألا يطرد أسقفاً من أسقفيته ولا يكره أحداً منهم على ترك دينه، ولا يخرج راهباً من ديره، وأن يساعدهم على اصلاح كنائسهم وأديرتهم. ونزل قوله تعالى « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ».

عهد النبي الى النصارى

كذلك أرسل النبي رسلاً الى ملك فارس وامبراطور الدولة الرومانية الشرقية والى النجاشي بالحبشة وغيرهم، يدعوهم الى الاسلام فمزق ملك فارس الخطاب وأحسن امبراطور الروم مقابلة الرسول وأرسل المقوقس هدية وجارية هى مارية أم ولده ابراهيم

رسل النبي الى الملوك

وفى السنة السابعة عقد مع أهل مكة هدنة على إخلاء بلدهم حتى يتمكن المسلمون من الحج ففعلوا، وحج المسلمون وعادوا الى المدينة. الا انه بعد ذلك انقض أهل مكة على قبيلة محالفة للمسلمين وقتلوا كثيراً منها فاستجارت القبيلة بالنبى، فسار الى مكة فى عشرة آلاف ودخلها من غير مقاومة بسبب انضمام قائدين عظيمين من قريش هما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص. فأصبحت تحت رحمته قبل أن تنقضى ثمان سنين على فراره منها ليلاً، فعفا عن أهلها، ولكنه دخل الكعبة وجعل أصحابه يحطمون الأصنام وهو يتلو « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » وبذلك أسلم أهل مكة وعلى رأسهم أبو سفيان

فتح مكة

كان من أثر فتح مكة أن جاءت وفود القبائل أفواجاً تطلب اعتناق الاسلام، فكان النبي يكرم مثواهم ويرسل معهم من يرشدهم ويعلمهم ويتولى أمرهم. فلما انتشر الاسلام فى جزيرة العرب أحس رسول

عام الوفود.

الله أن مهمته قد انقضت وعزم على أداء الحج كاملاً حتى لا يخطىء فيه أحد ، فدخل مكة فى ٨ ذى الحجة سنة ١٠ هـ (٧ مارس سنة ٦٣٢ م) وقبل أداء الفريضة اعتلى جبل عرفات وخطب خطبة الوداع الخالدة ومنها:

« أيها الناس ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، الى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد . ان ربا الجاهلية موضوع ، وان دماء الجاهلية موضوعة ، وان مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة والسقاية . ان لنسائكم عليكم حقاً . . . فاتقوا الله فى نسائكم واستوصوا بهن خيرا . . . أيها الناس أن ربكم واحد ، وأن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى ألا هل بلغت ؟ فليبلغ الحاضر منكم الغائب » ثم نزل قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »

ثم مرض النبى فجعل يوصى أصحابه بالتقوى والمحافظة على الدين حتى ثقل عليه المرض فقابل ربه وسنه ثلاث وستون سنة ، فى يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ « ٨ يونيه سنة ٦٣٢ » ولم يترك بعده من أبنائه إلا فاطمة الزهراء

اعمال النبى صلى الله عليه وسلم واخلاقه

يحسن تقسيم حياته الى ثلاثة أدوار متباينة : الأول دور التعبد والنسك حين كان يقيم فى الغار منعزلا عن أهل مكة . لا يشاطرهم لهوهم وسرورهم ، وعرف بينهم بالنزاهة والصدق والأمانة حتى لقبوه جميعاً بالأمين .

والدور الثاني قيامه عليه الصلاة والسلام بنشر رسالته سراً وجهراً، وقد لاقى فى سبيل ذلك من السخرية والاضطهاد ما لاقاه الانبياء من قبل، فتدرع بالجلد والصبر، ولم يتزعزع إيمانه ولا إيمان أتباعه على قلة عددهم، بل ضحوا بكل شيء لإعلاء كلمة الحق وزادوا يقيناً كلما زادتهم قريش إيذاء

ولما يئس النبي وأتباعه من النجاح فى مكة هاجروا الى المدينة. وبدأ الدور الثالث من حياة رسول الله واضطر هو وأصحابه أن يقفوا موقف الدفاع وأن يستعدوا لصد غارات قريش. وزاد عدد المسلمين بعد الهجرة فكونوا جيشاً يتوقد غيرة وحماسة ويشرئب للجهاد نصراً للرسول وللاسلام، فصار النبي حاكماً وقائداً وأظهر مهارة عظيمة فى إدارة شئون الجمهورية الجديدة وقيادة جيوشها، فكان يخرج بنفسه للقتال ويتعرض لأخطار الحرب وكان مثالا عالياً لرباطة الجأش والاستبسال، فتوالت انتصاراته ودانت له شبه جزيرة العرب بأكملها وبدأ الاسلام ينتشر فيما وراءها

ولقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أكرم الناس خُلقاً، متواضعاً حليما كريماً شهماً غيوراً مقداما جلداً بعيد النظر عادلا متسامحاً ولقد أجمل القرآن وصفه فى قوله تعالى « وانك لعلى خلق عظيم »

أثر ظهور الاسلام فى العرب

لقد كان لظهور الاسلام فى بلاد العرب أثر عظيم فى أخلاقهم وعاداتهم، قضى على المنازعات والحروب القومية وأصبح للعرب حكومة

واحدة ورئيس واحد يسهر على مصالحهم ويقيم العدل بينهم وهذا هو أول عهد العرب بحكومة منتظمة فى بلادهم. ثم إن الاسلام هذّب أخلاق العرب وقضى على العادات الذميمة التى انتشرت بينهم فاعتدلوا فى معيشتهم وسلوكهم، ونظروا فى إصلاح أحوالهم وترقية تجارتهم. وبالاختصار تهيأ العرب لاستقبال عهد الفتوح والمدنية الاسلامية

الخلافة

ولما مات النبى لم يصدق الناس الخبر وتسرب الشك والارتياب الى نفوس العامة، واستبعدوا أن يقع سيدنا محمد تحت تأثير القوانين الطبيعية مثل غيره من البشر، وأن يكون هذا الشخص الذى أحدث هذا الانقلاب العظيم فى التاريخ بشراً يجوز عليه الموت

ظل الشك والارتياب فى أذهان الناس مدة ظهر فى أثنائها عمر ابن الخطاب وفى يده السيف يهدد الذين يؤكدون موت النبى قائلا « إن رجالا من المنافقين زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى، وإنه والله ما مات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقطع أيدى رجال زعموا أنه قد مات » فلما جاء ابو بكر وتأكد من موت الرسول خطب فى الناس خطبته المعروفة التى يقول فيها « أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت. ثم تلا الآية « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » وذكر الآية أيضاً « إنك ميت وإنهم ميتون » نخف الهرج والمرج

من بين الناس وتحققوا خبر موت الرسول ورفعوا أصواتهم بالعويل والنحيب وكان عمر أكثرهم بكاء وتأثراً

خلافة أبي بكر (١١ — ١٣ هـ . ٦٣٢ — ٦٣٤ م)

لمن تكون الخلافة

ثم بحث الناس فيمن يخلف النبي فانه قد مات ، ولم يعين له خليفة ، بل ترك الامر شورى بينهم حسب العادة المتبعة عند العرب . فتشعبت الآراء الى ثلاث شعب : فقال الانصار بجعل الخلافة انتخابية من غير شرط . وقال فريق بجعل الخلافة في آل محمد . وقالت الاكثرية من المهاجرين بمبدأ الانتخاب بشرط أن يكون الخليفة من قريش

مزايا على

وكان النبي قد اشار في حياته الى كفاءة على بن أبي طالب في مواقف عدة: إذ كان على أول من أسلم من الصبيان واشترك مع النبي فيما وقع له من الاضطهاد في مكة ، وكان من أكفاء قواده في الغزوات ، وفوق ذلك كان صهر رسول الله وابن عمه ومن أسرة بني هاشم — كل هذا كان من شأنه أن يدعو العرب الى اختيار سيدنا على خليفة ولكن أشراف قريش كانوا يحسدون أسرة بني هاشم وينقمون عليها فلم يقع اختيارهم عليه

مزايا أبي بكر

على أن النبي كان قد عهد الى أبي بكر بأن يصلي بالناس أثناء مرضه، ويعد هذا اعترافاً منه بكفاءة أبي بكر للرياسة بعده ، وقد كان أبو بكر أكبر الصحابه سناً وفضلاً ولا يخفى أن العرب كانوا ينظرون الى كبر السن كعامل مهم في اختيار رؤسائهم . لهذا — ولما عرف به أبو بكر بينهم من شدة غيرته على الاسلام وكثرة تجاربه — بايعه عمر خليفة

للنبي وبايعه الناس جميعاً بعد ذلك . وبهذا قضى على الشقاق الذى قام بين المهاجرين والانصار عقب وفاة النبى ، وفاز المذهب القائل بوجوب جعل الخلافة انتخابية بشرط ان يكون الخليفة من قريش. وقد خطب ابوبكر فى الناس خطبته المعروفة التى يقول فيها « ايها الناس قدوليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى وأن أسأت فقومونى »

الردة

وما كاد ينتشر خبر وفاة النبى حتى ارتدت أكثر القبائل العربية عن الاسلام وقام كذابون يدعون النبوة ويحاربون المسلمين ، ومن هؤلاء طليحة ومسيلمة .

وترجع سرعة ارتداد العرب عن الاسلام الى الاسباب الآتية :

١ ان الاسلام كبح جماح شهوات العرب وأتى بشدة لا قبل لهم باحتمالها كتحريم الخمر والميسر والأخذ بالثار وتقييد حرية الزواج

٢ ان الاسلام كان يحتم جمع الزكاة ، وهذا من الاسباب الاقتصادية التى دعت الي ارتداد العرب

٣ أن الاسلام أوجد حكومة واحدة وسيداً واحداً يجب على العرب الخضوع له ، وهذا ما لم يعتده العرب

على ذلك عاد الاسلام الي سابق مركزه . فصار يدافع المسلمون عن أنفسهم وحياتهم ، ووقفت المدينة تجاهد كما جاهدت أيام النبى ولم يبق معها إلا الطائف ومكة ، وفى هذا الظرف العصيب أظهر المسلمون المخلصون غيرة وتفانياً فى خدمة الدعوة الاسلامية كما أظهروا ذلك في مدة النبي . وبحسن تدبير أبى بكر ومن ساعده من قواد العرب

المشهورين — وأولهم خالد ابن الوليد الذى قضي على مسيلمة فى اليمامة— خضعت شبه جزيرة العرب وعاد الاسلام الى القوة التى كان عليها ايام النبى صلى الله عليه وسلم

فتوح العرب

أول اشتباك العرب مع الروم والفرس

وكان النبي قبل وفاته قد أعد حملة بقيادة «أسامة بن زيد» لمعاقبة بنى غسان لتجرئهم على قتل رسول النبي اليهم. فرأى أبو بكر أنه من مصلحة الاسلام أن يواصل العمل فى تجهيز هذه الحملة ليعتقد العرب أن الاسلام قوة يصعب مقاومتها. وعلى ذلك خرجت الحملة نحو «بني غسان» الذين كانوا من قبائل العرب، وكانوا يدينون بالمسيحية ويعترفون للدولة الرومانيـة الشرقية «بالسيادة» عليهم، فكان ذلك مبدأ احتكاك العرب بدولة الروم. كذلك سيّر ابو بكر حملة نحو القبائل العربية الساكنة شرق نهر الفرات عند «الحيرة». وتعرف هذه القبائل بقبائل «بني تغلب» — وكانوا يدينون بالمسيحية أيضاً ويحكمهم أمراء من العرب يخضعون لسيادة دولة الفرس الساسانية، وبذلك بدأ احتكاك العرب بالفرس

فتح الحيرة

لما تم اخضاع العرب المرتدين فى شبه الجزيرة، تهيأ الاسلام للفتوح الخارجية. ووجدت القبائل العربية المتمردة فى هـذه الحروب مجالا واسعاً للغنيمة والظفر والاستشهاد، فسار خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني نحو الحيرة فسقطت فى أيدى المسلمين

عند ذلك تنبه الفرس وخافوا انتصار هذه الأمة البسيطة الفتية.

وكانت دولة الفرس الساسانية لا تزال قوية يمتد نفوذها في وسط آسيا إلى حدود الصين والهند ، وتبسط سلطانها على العراق وخراسان وبلاد العجم والأقاليم التى حول بحر قزوين . فالتفت الفرس للعرب وأخذوا يعدون العدة لطردهم من الحيرة وردهم الى بلادهم . وفى ذلك الوقت حدث انقلاب فى حكومة الفرس ، فاعتلى العرش الملك «يزدجرد» فجمع جيشاً قوياً عين على رأسه القائد الفارسى الشهير « رستم » ، واضطر العرب فى مبدأ الأمر الى التقهقر لقلة عددهم وباتوا ينتظرون المدد من المدينة . وكان أبو بكر قبل وفاته قد أرسل خالد بن الوليد الى الشام ، وعلى ذلك أرسل الخليفة عمر قوة تبلغ ثلاثين الف جندى على رأسها سعد ابن أبى وقاص وتقابل الطرفان فى واقعة «القادسية» سنة ٦٣٦ م واستمرت الواقعة ثلاثة أيام حمى فى أثنائها وطيس القتال وانتهت بهزيمة الفرس ويقال إنه كان فى جيش الفرس بعض الفيلة وهذه أحدثت اضطرابا عظيما فى معسكرهم لما أصابها من سهام العرب

واقعة القادسية ٦٣٦ م

ويعد هذا من الانتصارات الحاسمه فسقطت بلاد العراق وما بين النهرين فى يد العرب على أثرها ، وارتد الفرس الى عاصمتهم « المدائن » فتبعهم سعد اليها وسقطت «المدائن» فى يده وبسقوطها سقطت حكومة الفرس وفر الملك يزدجرد شرقاً وأخذ يحرض قومه على الالتفاف حوله فى «حلوان» ، فرأت العرب ضرورة القضاء على يزدجرد وحركته فساروا نحوه ودارت بينهما واقعة «نهاوند» سنة ٦٤٢ م . وفى هذه الواقعة هزم الفرس هزيمة نهائية ولم تبق لهم قوة فى البلاد وفرّ يزدجرد الى حدود الصين حيث قتل ، وفى هذه الحرب غنم المسلمون غنائم عظيمة وكان يوزع

بعض هذه الغنائم على الصحابة وبعضها على الجنود

المسلمون في فارس

وعلى أثر ذلك أصبحت فارس وممتلكاتها ضمن دولة الاسلام، وبنى المسلمون البصرة على خليج العجم وبنوا الكوفة على الشاطىء الغربي لنهر الفرات وأصبحت الكوفة مقر الحكومة بدل المدينة .



مسجد باصفهان

واعتنق الفرس الاسلام واختلطوا بالعرب وصاهروهم وأصبحوا عنصراً اسلامياً هاماً ويعرفون عند قبائل العرب بالموالى . وأسس العرب فى

بلاد الفرس حكومة قوية مصلحة صانت الفلاحين من اضطهاد الاشراف وتركت لهم الاراضى يزرعونها ، واهتمت بعمل احصاء عام لكل محصولات البلاد

وأظهر العرب مع الشعوب التى خضعت لهم تسامحاً وفرضوا على من لم يقبل الاسلام منهم جزية تشبه البدل العسكرى فى بلادنا فى الوقت الحاضر، وفيما عدا ذلك لم يتدخلوا فى الشئون الدينية

خلافة عمر (١٣ — ٢٣ هـ — ٦٣٤ — ٦٤٤ م)

وقبل ان نتكلم على حرب العرب مع الروم يجب أن نذكر أن أبا بكر مات سنة ٦٣٤ م بعد أن تمكن بحسن تدبيره وبفضل مجهودات خالد بن الوليد وغيره من قواد المسلمين أن يصون البلاد من خطر الردة ، وان يحتفظ بوحدة العرب ووحدة الاسلام وهذا أعظم فخر لأبى بكر. وقبل أن يموت وصى بانتخاب عمر خليفة له لانه رأى المسلمين فى حرب مع الدول الاجنبية إذ كانوا يحاربون الروم من جهة والفرس من جهة أخرى. فلو حدث أى انقسام داخلى بين العرب لساءت العاقبة . ولذلك انتخب عمر بدون معارضة وواصل الخطة التى سار عليها أبو بكر من قبل. وكان عمر من أقوى الصحابة شخصية وأعلاهم همة وأشدهم غيرة على الحق والانصاف

حرب العرب مع الروم

كانت البلاد الواقعة غربى نهر الفرات (فلسطين وسوريا) خاضعة للدولة الرومانية الشرقية ، وكان بعض سكان هذه الاقاليم من عنصر

عربي وجميعهم من الجنس السامى وعلى ذلك كانت تربطهم بالعرب الرابطة الجنسية .

حالة الدولة البوزنطية

وكانت الدولة البوزنطية قد أنهكت قواها فى حروبها مع دولة الفرس الساسانية ولم تكن هناك روابط طبيعية تربط الدولة برعاياها ، فكانت الشعوب تئن من ثقل الضرائب التى كانت تجبيها الحكومة ومن الاضطهادات والانقسامات التى سادت مدة طويلة فى انحاء الدولة. على أن الدولة البوزنطية كانت لا تزال لها آسيا الصغرى والشام ومصر وفلسطين وشمال أفريقية وشبه جزيرة البلقان وجزائر فى البحر الابيض ، وكان فى مقدورها أن تعبىء جيوشاً أكثر عدداً من جيوش العرب . ولكن جيوشها لم تكن متجانسة ولا متفقة فى الشعور ولم تكن مندفعة بروح حماسى كالروح الذى كان يدفع العرب ، ومما يدل على كره الشعوب للحكومة الرومية أنها لم تحاول القيام بثورة ضد العرب أثناء فتوحاتهم ، بل على النقيض كانت تسهل الفتح عليهم

الحرب

بعد عودة حملة «أسامة» جهز أبو بكر أربعة جيوش للزحف على سوريا — وأهم هذه الجيوش ما كان بقيادة أبى عبيدة بن الجراح ووجهته حمص والذى كان بقيادة عمرو بن العاص ووجهته فلسطين . ومجموع هذه الجيوش الأربعة خمسة وثلاثون الف جندى

واقعة اليرموك ٦٣٤ م

وجاء الامبراطور «هرقل» ليرقب الحالة الحربية وبلغ جيش الروم مائتين وأربعين الفاً ، فرأى المسلمون ضرورة جمع قواهم وتوحيد قيادتهم برياسة أبى عبيدة ، وكان العدو قد اختار موضعاً حصيناً على نهر «اليرموك» وهو فرع من فروع «الاردن» ووقف عند انحناء فى النهر يسمى «واقوصة»

فوقف المسلمون أمام العدو واستمروا على هذه الحال حتى أرسل أبو بكر خالد بن الوليد من العراق لينضم الى جيش أبي عبيدة، فأصبحت قوة العرب أربعين ألفاً . وبقدوم خالد دارت المعركة وكانت القاضية على



داخل مسجد عمر بالقدس

الروم، ويرجع الفضل فى هذا الانتصار الى مهارة خالد . وهذه أيضاً من

الوقائع الحاسمة التى كسبها العرب فلم يجدوا بعدها صعوبة فى فتح المدن الباقية كدمشق وانطاكية . وبينما كان أبو عبيدة الذى عينه عمر قائداً عاماً — بدل خالد الذى قبل عن طيب خاطر أن يخدم تحت أمرة أبى عبيدة — يفتح الشام ، كان عمرو بن العاص يفتح فلسطين .فانتصر على الروم فى واقعة «أجنادين» وكان انتصاراً حاسماً كواقعة اليرموك وعلى أثره فتحت غزة ويافا والرملة وصور ، ولم يبق إلا بيت المقدس فقاوم البطريق مدة أربعة أشهر وأخيراً اشترط أن يحضر عمر بنفسه لتسلم القدس ، فجاء عمر بكل بساطة واستلم المكان بعد الاتفاق مع البطريق.

واقعة اجنادين

فتح القدس

وعلى أثر هذه الانتصارات غادر هرقل الشام وأصبحت جبال «طوروس» الحد الفاصل بين ممتلكات الدولة البيزنطية وأملاك العرب

فتح مصر

بعد أن تم لعمرو بن العاص فتح فلسطين فكر فى فتح مصر .فلما خاطب أمير المؤمنين فى ذلك تردد عمر ، لان العرب لم يستقروا فى فتوحاتهم الجديدة ، ولقلة الجنود التى يمكن الاستغناء عنها وتسييرها لفتح جديد . وأخيراً وافق عمر لالحاح عمرو الشديد ولكن دليل تردده ظاهر من حادثة الكتاب ،إذ وعد عمرا بانه سيرسل له كتابا ان ادركه وهو فى حدود الشام رجع عن فتح مصر ، وإن ادركه وهو داخل حدود مصر استمر فى عمله

وصل عمرو الحدود المصرية ومعه أربعة آلاف جندى ، وبلغ مدينة «الفرما» المعروفة باللاتينية باسم «بلوزيم» فسقطت فى يده بعد شهر

ثم واصل السير جنوباً الى « بلبيس » وهى حصن منيع فافتتحوها بعد قتال عنيف ، ويقال أن ابنة المقوقس — حاكم مصر من قبل الروم — كانت بها حين دخلها المسلمون فأرسلها عمرو الى أبيها معززة مكرمة

حصن بابليون

ثم سار قاصداً « حصن بابليون » وهو قلعة على الضفة اليمنى للنيل أمام « منف » القائمة على الضفة اليسرى ، شيدها الفرس قديماً واتخذها الرومان معقلا لجنودهم لتوسطها بين مصر السفلى والعليا ، ولأن الاسكندرية — وهى قاعدة حكمهم — لم تكن مركزاً صالحاً لمراقبة أحوال البلاد

أم دنين

وفى أثناء سيره اعترضته حامية صغيرة بقرية « أم دنين » وكانت على شاطىء النيل الايمن (حيث يوجد الآن حى الازبكية) ، فاستولى عمرو عليها بعد بضعة أسابيع

ولما رأى قلة جنده ، اقتنع أنه ليس فى طاقته مهاجمة « حصن بابليون » قبل أن يصل اليه المدد الذى طلبه من أمير المؤمنين ، فعبر النيل الى منف فى قوارب صغيرة وقصد الفيوم لاشغال عسكره ريثما يحضر المدد . ولما عاد الى عين شمس وجد عمر قد أرسل اليه مدداً كبيراً يقوده جماعة من المدربين على القتال يرأسهم الزبير بن العوام والمقداد ابن الاسود نخف الرومان لمناجزتهم ، وقسم عمرو جيشه الى ثلاث فرق إحداها فى عين شمس والثانية شمال قلعة بابليون (شرقى العباسية) والثالثة عند ام دنين . ولما هاجم الرومان الفرقة الاولى التى كان يقودها عمرو انقضت الفرقتان الاخريان على ساقة الجيش الرومانى وجناحيه ،

واقعة عين شمس ٦٤٠ م

فدارت الدائرة على الرومان . وتعرف هذه الواقعة بواقعة عين شمس سنة

٦٤٠ واستولى العرب على مدينة مصر حيث يوجد حصن بابليون. ولولا فيضان النيل الذى غمر الارض لتمكن عمرو من الاستيلاء على جميع أرض الدلتا؛ ولهذا اكتفى بحصار حصن بابليون من الجهة الشرقية

وضاق الخناق على الرومان عند انتهاء الفيضان حتى يئس المقوقس من صد العرب، وعاهدهم في جزيرة الروضة أمام الحصن - بغير علم الحامية - وأرسل بالمعاهدة الى هرقل فجزع جزعاً شديداً واستدعى المقوقس الى القسطنطينية، فجد العرب فى حصار الحصن حتى سلمت الحامية بعد نحو ثمانية أشهر وكان ذلك فى ابريل سنة ٦٤١ م. ويرجع ذلك الى موت هرقل، وما أحدثه من الاثر فى نفوس حامية الحصن، كما يرجع الى ما أبداه الزبير بن العوام من البسالة والجرأة

مساعدة الاقباط للعرب

ولما أحرز العرب هذا الانتصار الباهر انضم اليهم الاقباط جهرة وأخذوا ينتقمون من الرومان الذين كانوا يضطهدونهم أشد الإضطهاد لمخالفتهم فى المذهب الدينى، اذ كان الروم من الملكانيين والاقباط من اليعقوبيين، وقد بلغ من اضطهاد الملكانيين لليعقوبيين أنهم صادروا حرية عبادتهم، وشتتوا شمل قساوستهم، وألجأوا بطريقهم الى الاعتصام بالصحراء عدة سنين. فجعل الاقباط يساعدون العرب فى بناء الاستحكامات والقناطر ويسهلون عليهم الزحف من مكان الى آخر

وقد أسرع عمرو بعد استلام الحصن الى أخذ الفيوم، ثم ترك حامية صغيرة فى بابليون وسار الى الاسكندرية محاذيا فرع رشيد وتغلب على من قابله من الرومان عند دمنهور وألجأهم الى الاحتماء بالاسكندرية.

وعسكر العرب حولها ولم يكن فى مقدورهم حصرها براً وبحراً ، ولذ استمر الحصار عدة أشهر ثم سلمت فى ديسمبر سنة ٦٤١ بسبب ما لحق حكومة القسطنطينية من الضعف والوهن على أثر موت هرقل ، وبسبب سآمة أهل الاسكندرية تقلبات الحكم البوزنطى وما يتبعه من اضطهاد دينى ، ولأن المقوقس أقنعهم بان التسليم للعرب خير لهم ، وربما كان غرضه أن يستقل بيطريقية الاسكندرية عن القسطنطينية . وأهم شروط معاهدة التسليم أن يعطى الرومان مهلة أحد عشر شهراً يجلون فيها عن الاسكندرية ، وان يترك المسلمون لاهل البلاد الحرية الدينية

سقوط الاسكندرية

مصر بعد الفتح

أثر الفتح الاسلامى

لما استقر أمر العرب فى مصر حدثت التغييرات الآتية : —

العاصمة

١ أنهم نقلوا العاصمة من الاسكندرية لبعدها عن الخلافة فى البلاد العربية . وبنوا عاصمة لهم فى النقطة التى عسكروا بها حول حصن بابليون ، وعرف هذا الموضع باسم « الفسطاط » وهو مقابل منف ، وانما فضلوا هذا الموضع ليسهل الاتصال مباشرة ببلاد العرب . ورغبة فى سرعة الاتصال ببلاد العرب اهتم عمرو بن العاص باعادة حفر القناة القديمة التى كانت توصل النيل بالبحر الاحمر ، فسارت السفن من مصر الى الحجاز حاملة حاصلات مصر

اسلام بعض أهل مصر

٢ انضم كثير من سكان مصر الى العرب واعتنقوا الاسلام وأصبحت مصر من ذلك الوقت مركزاً هاماً فى العالم الاسلامى ، وقل عدد الأسر المسيحية

الزراعة

٣ اهتم العرب بالشئون الزراعيـة فأعادوا حفر الترع وعنوا بالرى وأصلحوا الطرق ، فتحسنت حال الفلاح وتدرج فى الرخاء والرقى

الحكومة

٤ بقيت الحكومة المدنية دون تغيير يذكر وبقى كثير من الموظفين الرومانيين فى مراكزهم الأولى وكل وظيفة خلت حل فيها مصرى ، واكتفى العرب بالاشراف على الحكومة

الضرائب

أما الضرائب التى نصت عليها المعاهدة فكانت أخف حملا من أمثالها فى عهد الرومان وكانت الضرائب هى الفرضة وضرائب الاراضي والاخيرة تختلف حسب الفيضان وحال الزراعة كل سنة . هذا الى أنه أيام الرومان كان أناس كثيرون ومدن مثل الاسكندرية تعفى من الضرائب ، بينما العرب كانوا يأخذون الضرائب من الجميع على السواء

مكتبة الاسكندرية

ومن الخطأ الشائع ان عمرا أحرق مكتبة الاسكندرية بأمر من امير المؤمنين عمر بن الخطاب

والحقيقة ان المكتبة التى بدأت فى عهد « بطليموس فيلادلف » حرقت سنة ٤٨ . ق م على أثر حرق قيصر أسطوله . فيقول المؤرخ الرومانى « بلوتارك Plutarch » « بينما كان الاعداء يستولون على أسطوله ، اضطر ان يردهم بالنار واندلع لهيبها من الحياض وأتلف المكتبة » ويكرر ذلك كتاب كثيرون . فينتج من ذلك أن مكتبة الاسكندرية الكبرى حرقت سنة ٤٨ ق م

وبعد هذه الحادثة بثمان سنين تجددت بالاسكندرية مكتبة ، الا انه فى أواخر القرن الرابع جعل المسيحيون يخربون المعاهد الوثنية ومنها

جامعة الاسكندرية حيث كانت الكتب ، وتم اعدامها عن آخرها سنة ٣٩١ م

وعلى فرض وجود المكتبة عند الفتح فانه لا يعقل أن الرومان أغفلوا نقل الكتب أثناء الهدنة وهى ١١ شهراً ، ولا يعقل أيضاً ان العرب ، الذين كانوا يعتقون الاسير اذا علم عشرة من الصبيان القراءة والكتابة ، يحاربون العلم

خلافة عمر

وكان عمر أول من أنشأ الديوان وعين القضاة وجعل السلطة القضائية مستقلة عن السلطة الادارية ، ووضع التاريخ الاسلامى مبتدئاً من أول سنة قمرية جاءت بعد هجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة. وهو أول من سمى أمير المؤمنين وكان لا يشغله شاغل عن تدبير أمور المسلمين واصلاح شئونهم . وقد حقد عليه أبو لؤلؤة المجوسى فقتله وهو يصلى بالناس فى آخر سنة ٢٣ هـ — ٦٤٤ م

خلافة عثمان (٢٤ — ٣٥ هـ — ٦٤٤ — ٦٥٥ م)

اختيار الخليفة

بعد أن طُعن عمر لزم البيت من جراحته ودخل عليه المهاجرون يسألونه أن يستخلف عليهم فلم يقره ضميره على اختيار واحد . فاختار ستة وهم على وعثمان وطلحة والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف، واشرك ابنه عبد الله فى الرأى بشرط الا تكون له الخلافة . وأوصاهم أن يتشاوروا ثلاثة أيام يختارون فى أثنائها خليفة من بينهم . فاختار المجلس عثمان وكان من أحب المقربين الى رسول الله ،

ورعاً لين الجانب . لم يكن له حزم أبي بكر وعمر ، ترك شئون الحكومة في يد أهله ولا سيما مروان بن الحكم كاتم سره

ضعف عثمان

ولما آنس العرب ضعف عثمان تجددت بينهم الانقسامات . وثارت القبائل تريد استرجاع حريتها الاولى ، بعد أن كبحت جماحهم شخصية النبي وهيبة وحزم أبي بكر وشدة عمر . وزاد الطين بلة أن عثمان جعل يعزل الولاة الذين عينهم عمر ويحل محلهم رجالاً أقل منهم كفاءة من أهل قرابته ، فعزل عمرو بن العاص عن مصر وأقام بدله عبد الله بن أبي السرح

استمرار الفتح شرقاً

وقد احتمل الناس على مضض السنين الست الاولى من خلافته ، وما ذلك الا لتخوفهم من الانقسام فيما بينهم وهم معرضون لفتك الاعداء بهم ، إذ كان الاتراك يهددون الحدود الشرقية ويغيرون على ما فتحه المسلمون . فاضطر هؤلاء لصد هذه الغارات وامتدت الفتوح شرقاً الى بلخ وكابل وهراة . وكذلك قامت ثورة في جنوب فارس الزمت العرب أن يفتحوا كرمان وسجستان

انشاء اسطول في بحر المشرق

أما في الشمال فقد أغارت الدولة الشرقية على سوريا فردهم عنها معاوية سنة ٦٤٦ . وغزا الاناضول حتى قرب من شواطىء البحر الاسود . وفي السنة نفسها هجم الاسطول الروماني على الاسكندرية واستولى عليها ولكن العرب استرجعوها ، فرأى معاوية ضرورة انشاء أسطول ووافقه الخليفة على ذلك فانشأ أسطولاً ، وصار للعرب السيادة في بحر المشرق

النهضة الادبية

وبينما كانت جيوش الاسلام تتقدم شرقاً وغرباً اهتم العرب بالشئون التجارية والعلمية فصححوا نسخ القرآن وعنوا بالقوانين الشرعية واللغة والفلسفة والمنطق . وكان أئمة هذه النهضة على بن ابى طالب وعبد الله ابن عباس اللذين قاما بالقاء محاضرات اسبوعيــة فى هذه الموضوعات بجامع المدينة .

اواخر حكم عثمان

ثم بدأت الاقاليم تشكو من جور الحكام الذين عينهم عثمان ، وذهبت الى المدينة وفود مصر والعراق وغيرهما وشكوا الى الصحابة سوء تصرف حكامهم . فقام على وغيره من كبار الصحابة بنصح الخليفة وانذاره سوء المنقلب اذا هولم ينظر فى الامر ، فعين محمد بن أبى بكر عاملا على مصر . وبينما هو فى الطريق اذ وقع فى يده كتاب بختم عثمان يأمر عامل مصر بالقبض على زعماء الوفد وقتل محمد بن أبى بكر ، فعاد الوفد الى المدينة

مقتل عثمان

وأنكر الخليفة الكتاب وقرّ عزم الوفود على مهاجمته ، وأرسل الصحابة ابناءهم وفيهم الحسن والحسين للدفاع عن عثمان . ولكن رجالاً من الوفود تسلقوا الجدران وقتلوه من غير أن يشعر المدافعون عنه فى ١٨ ذى الحجة سنة ٣٥ (١٧ يونيه سـنة ٦٥٦) . وقد أخذ على عثمان رضى الله عنه أنه أعطى خمس ربع أفريقية لمروان ، واتخذ أكثر الولاة من قرابته ، وترك شورى المهاجرين والانصار

خلافة سيدنا على (٣٥ — ٤٠ هـ — ٦٥٦ — ٦٦١ م)

بعد مقتل عثمان انتخب على بالاجماع وبويع فى المدينة لمكانته ولما له من حق الوراثة عن النبى ، فبدأ بعزل الحكام الذين علت منهم

الشكوى ، ورد الى بيت المال ما كان عثمان قد منحه لبنى أمية ، فعارضه هؤلاء منذ الساعة الاولى . وكان معاوية بن أبى سفيان قد حكم الشام نحو عشرين عاماً وجمع حوله « مائة الف فارس كل يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم لا يعرفون علياً ولا قرابته » . فأعلن العصيان واستعد لمقاومة على ، فتشجع غيره من بنى أمية وحلفائهم واتهموا علياً بالتقاعد عن نصرة عثمان . فنقض طلحة بن عبدالله والزبير بن العوام بيعة على ، وفرا الى مكة واتفقا مع السيدة عائشة لما كانا يعلمان من طول بغضها لعلى

معارضة بنى أمية

ثم انتقل طلحة والزبير الى الكوفة ولحقت بهما عائشة وجمعوا جيشاً لمقاومة الخليفة ، وقد بذل علي كل جهده لاقناعهم بالتسليم فأبوا . وحدثت واقعة الجمل بالقرب من الكوفة وفيها قتل طلحة والزبير ، وأخذت عائشة أسيرة فأكرمها الخليفة وردها الى المدينة معززة مكرمة . ومن ذلك الوقت اتخذ علي « الكوفة » مركزاً للخلافة بدلا من المدينة

موقعة الجمل

واعتمد معاويه على كثرة أعوانه وتقدم نحو العراق فقابله علي عند « صفين » غربى « الرقة » وحاول الخليفة اقناع معاوية فلم يفلح ، فعرض عليه — حقناً للدماء — أن ينازله ، فأبى معاوية وبدأ بالهجوم فهزمه علي ، فى ثلاث مواقع استعد بعدها معاوية للفرار

موقعة صفين

وعند ذلك اقترح عمرو بن العاص على معاوية أن يرفع جنوده المصاحف على أسنة الرماح ويطلبوا تحكيم القرآن فانخدع جنود على ، وعبثاً حاول أن يقنعهم ان هذه إنما هى خدعة ، ولكنهم أصروا فضاع انتصاره سدى وارتد مغاضباً الى الكوفة

خدعة عمرو

التحكيم

انتخب معاوية عمرو بن العاص مفوضاً عنه وعزم على أن يعين عبدالله بن عباس. فجاءه صحبه وألحوا بلزوم تعيين أبي موسى الاشعرى لكبر سنه وصلاحه فأذعن لطلبهم على كره منه، واتفق الحكمان أن يصدرا قرارهما بعد ستة أشهر أو أكثر اذا اقتضى الحال، وعاد معاوية إلى دمشق وعلي الى الكوفة

الخوارج

وفى أثناء سير جيش علي الى مقر خلافته فكر رجال من جيشه — أكثرهم من قبائل تميم وبكر — ان اصرارهم على التحكيم كان خطأ يجب أن يكفروا عنه بمعاودة القتال ضد معاوية، وندم آخرون على تخاذلهم عن تعضيد الخليفة وطلبوا اليه أن يرفض التحكيم الذى اكرهوه عليه، فأبت له مروءته أن يرجع فى وعده، فاجتمع منهم اثنى عشر ألفاً وقرروا الخروج على علي ومعاوية على السواء. ولجأ هؤلاء الخوارج الى الصحراء فتتبعهم على وقتل منهم عدداً كبيراً فى واقعة « النهروان »، وفر الباقون الى البحرين والاحساء وكونوا نواة فرقة الخوارج. ومن رأيهم ألا يخضعوا لحكومة سياسية

نتيجة التحكيم

وفى أثناء ذلك كان الحكمان قد اجتمعا فى «دومة الجندل» حيث تفوق عمرو بحذقه ومهارته، فأقنع أبا موسى بخلع على ومعاوية وإخلاء السبيل لانتخاب خليفة جديد. فلما جاء الموعد أعلن أبو موسى خلع علي من الخلافة، ثم قام عمرو فأقر خلع على وثبت معاوية. فاحتج أبو موسى على هذا الغدر والخيانة وذهل جميع الناس. ولم يجرؤ معاوية أن يلقب نفسه خليفة إلا بعد سنين. وأراد على أن يخضع الشام فتخاذل عنه أهل العراق أولئك القوم القُلّب. وانتهى الأمر بعزم ثلاثة من الخوارج

على قتل علي ومعاوية وعمرو ، فقتل علي ونجا الآخران

أخلاق علي

كان علي شهما مهاباً حكيما ذا مروءة وبطولة ، حريصاً على المصلحة العامة متهاوناً فى حقوقه الخاصة إلى حد التفريط . ولو اتيحت له شدة عمر وصلابة أبى بكر لنال الخلافة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم . وبموت علي سنة ٦٦١ انقضى عهد الجمهورية الاسلامية الأولى المعروف بعهد الخلفاء الراشدين

خلافة الحسن بن علي

بويع بعد علي ابنه الأكبر الحسن — بايعه أهل الكوفة وما يليها ولم يكد يستوى فى مركزه الجديد، حتى غزا معاوية العراق فقصد الحسن المدائن . ولكن جنده ثاروا عليه ونهبوا أمتعته وظهر أنهم يريدون تسليمه إلى معاوية، فتأكد أن أهل العراق — الذين غرروا بوالده — لا يمكن الاعتماد عليهم ، فقفل راجعاً وقابل معاوية وتنازل له عن الخلافة فأخذ معاوية بيعة العراقيين . وتعرف هذه السنة — سنة ٤٠ هـ . و٦٦١ م بالسنة الجامعة لاجتماع كلمة المسلمين فيها

ولم يعمر الحسن بعد ذلك الا بضعة أشهر ومات مسموما فى الغالب

الدولة الاموية

(٤٠ — ١٣٢ هـ ٦٦١ — ٧٥٠ م)

بعد تنازل الحسن صار معاوية حاكما على المسلمين ونقل مقر الخلافة الى دمشق ، وإنما ساعده على ذلك أنه ظل حاكما على الشام عشرين عاما

تمكن أثناءها من ايجاد جيش وأسطول قويين ، وتحبب الى الناس بالأعطية والوعود . وقد اعتمد معاوية أيضاً على عمرو بن العاص الذى ولاه مصر، وزياد بن أبيه[١] الذى ولى الاقاليم الشرقية

صعوبة فتح افريقية

وكان معاوية سياسيا حازماً كريماً حليماً، وحد كلمة المسلمين ومد فتوحهم فى أفريقية. وكانت هذه البلاد — على عكس مصر وسوريا — قد صبغت بالصبغة الرومانية، وكانت قريبة من صقلية التى كانت ترسل اليها المدد أحياناً ولذلك صعب فتحها ، وزاد هذه الصعوبة ان جبالها كان يسكنها البربر الذين أبوا الخضوع للرومان وظلوا يدافعون عن استقلالهم معتصمين بالجبال ، فلما دخل العرب بلادهم قاوموهم مقاومة عنيفة فاستغرق فتح أفريقية ستين عاما

عقبة بن نافع

وقد أرسل معاوية عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) لفتح أفريقية فانتصر على الرومان وأسس مدينة القيروان جنوبى تونس ، ولكن البربر كادوا له وقتلوه هو وأكثر جيشه سنة ٦٨١

وفى حكمه أيضاً قام المهلب بن أبى صفرة بفتح السند ثم أخضع القسم الشرقى من افغانستان . وانتصر معاوية على الرومان براً وبحراً

عهد معاوية لابنه يزيد

وقد خالف معاوية المبدأ الجمهورى من ترك الناس يختارون خليفتهم، وعهد الى ابنه «يزيد» وطلب الى الناس ان يبايعوه واستعمل فى ذلك الدهاء والتهديد والترغيب والشدة والرشوة حتى بايعته وفود جميع الجهات، الا الحجاز حيث لم يزل فى السويداء رجال ينتصرون للفضيلة ويأبون ان

---

(١) زياد هـذا ابن أمة لم يعترف معاوية بأنه أخوه لابيه الا بعد ان ظهرت مواهب زياد وخدماته

يحكمهم رجل متبذل كيزيد . واهم هؤلاء الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر . ومات معاوية سنة ٦٨٠ وقد تشبه بكبار الملوك فتنعم فى مأكله وملبسه وأقام الحراس والحجاب ، ولكنه كان مكباً على أعمال حكومته يصرف أكثر وقته فى النظر فى جلائل الامور ودقائقها

موت معاوية

يزيد بن معاوية (٦٨٠ — ٦٨٣)

قام بالأمر بعد معاوية ابنه يزيد وهو — بصرف النظر عن مبالغة أعداء بنى أمية فى ذمه — ظالم غليظ القلب لا يعبأ بالدين ولا المبادىء السامية ، ولهذا ثار عليه الحسين بن على . ولو بقى الحسين فى المدينة أو مكة لبايعه الناس ولتم له الامر ، ولكن أهل العراق ارسلوا اليه يلحون عليه ان ينتقل اليهم، فنصح له اصدقاؤه الا يركن الى العراقيين ، ولكنه انخدع ووقع فى الفخ الذى وقع فيه ابوه وأخوه من قبل ، فسار نحو العراق مع أهله وقليل من اتباعه حتى وصل الى «كربلاء» قرب الفرات دون ان يرى اثراً لجيش العراق الذى وعد ان يستقبله ، لانهم خافوا فتك عبيد الله بن زياد بن ابيه الذى ولاه يزيد عليهم. ثم هاجمه جيش ابن زياد وحال بينه وبين الماء . فطلب الحسين أن يسمح له فيرجع الى المدينة، أو يتقدم الى الحدود الشرقية القصوى لحماية البلاد من غارات الاتراك ، أو يؤخذ الى يزيد . فأبى الاعداء الا الحرب واستشهد الحسين وكل من معه من الرجال ، ولم ينج إلا النساء وطفل صغير هو على زين العابدين ابن الحسين. ومنه تناسلت ذرية النبى صلى الله عليه وسلم

الحسين ويزيد

كربلاء

وقد أثارت حادثة كربلاء استياء المسلمين جميعاً وبخاصة الفرس والحجاز ولم يزل هذا الاستياء ينمو فى فارس حتى ساعد على إقامة الدولة العباسية على أنقاض ملك بنى أمية

تخريب المدينة

أما فى الحجاز فثار أهل المدينة وعصوا يزيد ، فأرسل لهم جيشاً بقيادة «مسلم بن عقبة» فقابله أهل المدينة فى وقعة «الحرة» حيث استشهد كثير من سلالة المهاجرين والانصار، وانتقم يزيد من أهل المدينة فخربها جيشه ودمرها فعادت الى حالتها قبل الاسلام

ثم مكة

ثم انتقل الامويون الى مكة حيث قام بالخلافة عبد الله بن الزبير وحاصروها وهدموا كثيراً من بيوتها ولم يستثنوا الكعبة ، الا أنه فاجأهم موت يزيد فرفعوا الحصار وعادوا الى الشام

معاوية الثانى

وخلف يزيد ابنه معاوية وكان شاباً تقياً شب على حب بنى هاشم فأعلن مخالفته لسياسة سلفه ، ولكنه مات بعد اشهر وبموته انقرض فرع ابى سفيان بن حرب

مروان بن الحكم (٦٨٣ — ٦٨٥)

بموت معاوية الثانى انقسم الامويون على أنفسهم واستعد مروان بن الحكم وهو زعيم أكبر حزب فى الامويين — أن يبايع عبد الله بن الزبير الذى بايعه أهل الحجاز والعراق وخراسان وفارس ومصر ولم تخل الشام من أعوان له . ولو خرج عبدالله من مكة وأظهر نشاطاً واقداما لنال البيعة فى الشام أيضاً ، ولكنه تخوف وتباطأ حتى تشجع مروان واحتل على زعماء قومه فأعلنوه خليفة . واستعان بالقحطانيين وبهم تقدم الى لقاء أنصار

عبدالله بن الزبير

عبدالله من المضريين يقودهم « الضحاك بن قيس » الذى ولاّه عبدالله على الشام ، فقابلهم عند « مرج راهط » وهى على بضعة أميال شمالى شرقى دمشق ونشب القتال حتى فنى المضريون عن آخرهم ، وأصبح مروان خليفة فى دمشق ، ولكنه مات سنة ٦٨٥ بعد أن عهد بالخلافة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز

عبد الملك بن مروان

٦٥ — ٨٦ هـ ٦٨٥ — ٧٠٥ م

كان عبد الملك نموذجاً من بنى أمية فى نشاطه ودسائسه وعدم تقيده بالقوانين الادبية . وقد انكب بمقدرته الفائقة على تقوية مركزه ، فارسل جيشاً بقيادة عبيد الله بن زياد لاخضاع الخوارج فى العراق ، ولكنهم أبادوه انتقاماً لمقتل الحسين . ثم وجه جيشاً بقيادة الحجاج إلى مكة فضيق الخناق عليها حتى حصلت فيها مجاعة عظيمة وانفض كثير من أتباع عبدالله عنه ولم يبق معه الا نفر قليل ، فأشارت عليه أمه « أسماء » بنت ابى بكر أن يموت شهيد الحق[1] فهاجم الاعداء وصدهم إلا أنهم تكاثروا عليه وقتلوه وحملوا رأسه الى المدينة ثم الى الشام . وبذلك انتهت خلافة عبدالله بن الزبير بعد ان استمر تسع سنين يخطب باسمه ويحكم العالم الاسلامى ما عدا الشام

استبسال ابن الزبير

وأهم فتح حصل فى عهده عبد الملك هو اتمام فتح أفريقية ، اذ أرسل جيشاً سنة ٦٩٣ يقوده « زهير » نائب عقبة بن نافع فتوغل فى البلاد ، ولكن جاء

فتح افريقية

---

(١) مما قاله له في ذلك « يابنى عش كريماً أو مت كريماً » قال « يا أماه مايخوفنى الأان يمثل القوم بى » قالت « يابنى مايضير الشاة سلخها بعد ذبحها »

المدد الى الرومان من صقلية فقتل زهير وارتد جيشه الى برقة . فرأى عبدالملك أن يهاجم أفريقية من طريق البحر وتغلب عامله « حسان بن نعمان » على الروم والبربر واسترجع القيروان. وترك الرومان أفريقية للعرب سنة ٦٩٨ ، إلا أن البربر ثاروا بقيادة امرأة تلقب « الكاهنة » وفتكوا بجيش حسان وردوه الى برقة . فأرسل عبد الملك جيشاً آخر استطاع به حسان أن يقضي على قوة الكاهنة فخضع البربر واعتنقوا الاسلام. ولم يبق الا مراكش التى فتحها موسى بن نصير سنة ٧٠٨ في خلافة الوليد

اصلاحات عبد الملك

وأهم إصلاحاته استعمال اللغة العربية فى كتابة الدواوين بدل اللغات المحلية التى كانت تستعمل فى الولايات المختلفة، وضرب نقود خاصة للعرب بعد أن كانوا يتعاملون بنقود الرومان والفرس فضرب فى عهده الدينار وهو نصف جنيه بالتقريب، والدرهم ويساوى أربعة قروش [1]

ومات عبدالملك فى الثانية والستين من عمره سنة ٨٦ هـ. وكان يحب الشعر والشعراء حريصاً ، قاسياً جريئاً قوى الارادة لا ينثني عن عزمه

الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦هـ : ٧٠٥ — ٧١٥ م)

ولى الوليد الأول الخلافة بعد أبيه ، لأن عمه عبد العزيز بن مروان كان قد مات . وفى عهده بلغت دولة بنى أمية أعلى درجة فى الفتوح والثروة والمدنية، فان الاتراك نقضوا عهدهم مع المسلمين وقتلوا منهم من وقع تحت يدهم ، فتقدم « قتيبة » عامل خراسان وأغار على بخارى وطخارستان وفرغانة ، ولما فتحت هذه البلاد لم يقتصر على امتلاكها ، بل

---

(١) والدينار معرب عن اللاتينية والدرهم معرب عن الاغريقية

نزلت بها أسر عربية بقصد الاقامة وانتشر فيهم فقهاء المسلمين ، فاعتنق أهل البلاد الاسلام واشتد تعلقهم به ونبغ منهم علماء فطاحل

كذلك وجد « محمد بن قاسم » عامل مكران ان القبائل التى بين السند وبلوتشستان لا تنفك عن مناوءته فضم السند وملتان وجزءاً من البنجاب ، واستوطن العرب هذه الجهات أيضاً ونشروا الاسلام فيها

وكان مسلمة بن عبد الملك ـ أخو الخليفة ـ يقود الجيوش فى آسيا الصغرى فاستولى على أكثرها

عمر بن عبد العزيز

وعين الوليد ابن عمه عمر بن عبد العزيز عاملاً على الحجاز، فسار على نهج الخلفاء الراشدين واحسن ادارة البلاد وعمّر مكة والمدينة وحفر الآبار وأصلح الطرق تسهيلاً على الحجاج ، فعاد الى هذه البلاد رونقها الاول وأمها كثير من أهل العراق فراراً من الحجاج ابن يوسف الثقفى، فشكا هذا الى الخليفة أنه لايستطيع أن يحكم ولايته ما دام يسمح لاهلها أن يفروا الى الحجاز ، وانتهى الأمر بعزل عمر بعد أن حكم نحو خمس سنين أعادت الى الاذهان ذكرى السلف الصالح

فتح الاندلس

و بينما أفريقية متمتعة بالتسامح والعدل كانت اسبانيا تئن من حكم القوط الغربيين وفظائع الاقطاع ،وكان اليهود المقيمون فيها مضطهدين من جانب الاشراف ورجال الدين حتى اعتبروا جميعاً عبيداً ، ولهذا هرب كثير من المضطهدين الى افريقية وطلبوا الى موسى بن نصير — عامل بنى أمية على افريقية — أن يخلصهم من ظلم « لزريق Roderick » مغتصب الملك. وانضم

اليهم أبناء الملك المخلوع و « الكونت جوليان » حاكم « سبتـة » حين أهان الملك أخته

فاستأذن موسى بن نصير فى فتح الاندلس واحتل جزائر ميورقة ومنورقة وأرسل جماعة يقودهم طريف بن مالك لاستطلاع الاحوال فى أسبانيا ، ثم نزل طارق بن زياد بالاندلس ومعه سبعة آلاف ، سنة ٧١١ وتقدم داخل البلاد . وجاء المدد من أفريقية وهزم جيش «لزريق» فى موقعة «شريش» وغرق الملك، ودخل العرب قرطبة وغرناطة وطليطلة وكانت العاصمة . ثم انضم موسى الى طارق وتمما فتح اسبانيا الى جبال البرانس . وفى هذا الوقت استدعى موسى بن نصير الى دمشق فوصلها بعد موت الوليد وأساء الخليفة الجديد سليمان ابن عبد الملك مقابلته فمات فقيراً

أما العرب فى الاندلس فعبروا البرانس وفتحوا جنوب فرنسا ، والتحموا بجيش «شارل مرتل »فى موقعة « بواتيه أوتور »سنة ٧٣٢ كما تقدم. ومات قائدهم «عبدالرحمن الغافقى» وارتدالعرب الى اسبانيا ولم يعودوا لفتح فرنسا بعد ذلك

انتهاء دولة بني امية

وتولى بعد الوليد أخوه سليمان بن عبد الملك. وأهم ماحدث فى عصره انه أرسل جيشاً عبر الدردنيل واخضع تراقيا وحاصر القسطنطينية سنة ٩٨ هـ ،الا أن المجاعة والمرض ألزما المسلمين رفع الحصار . ومات سليمان فى العام التالى ٧١٧ـ وأعقبه ابن عمه عمر بن عبد العزيز وهو ينتسب الى عمر بن الخطاب وشهرته بالتقوى والعدل أشهر من أن تذكر، وكان قصده توطيد دعائم الخلافة ورد المظالم وتحسين حال الرعية، غير

متطلع للفتوحات الخارجية . وجاء بعده يزيد الثانى وهشام بن عبدالملك ومروان الثانى ، وفى مدة هؤلاء ظهرت الدعوة لبنى هاشم التى أدت الى انقضاء الدولة الاموية سنة ٧٥٠

وأهم مميزات هذه الدولة :

اهم مميزات الدولة الاموية

١ أنها كانت سياسية أكثر منها دينية فكان كثير من خلفائها لا يهتمون كثيراً لأمر الدين ، بل كان بعضهم غير مكترث بالشعائر الاسلامية يدمنون الخمر ويتلهون بالصيد ، ولكنهم على العموم كانوا على جانب عظيم من المهارة السياسية والكفاءة الادارية، فامتد سلطانهم شرقاً وغرباً ووحدوا كلمة المسلمين وأحسنوا ادارة الأقاليم

٢ كانت دولة بنى أمية عربية بحتة تعتمد على العرب فى الأمور الحربية والسياسية . وكان العرب إذ ذاك شعباً مقتصداً قوياً متفانياً فى نشر الاسلام. وقد استطاع الأمويون أن يستفيدوا من جهود القحطانيين والعدنانيين ، وانتشرت فى عهدهم اللغة العربية وارتقى الشعر

٣ اعتمدت الدولة على ما أوتيت من قوة وسلطان ولم تركن الى الرأى العام ولم تحاول كسبه ، حتى مال الناس عنهم وانحازوا الى جانب بنى هاشم كما سيأتى بعد

الدولة العباسية

(١٣٢ — ٦٥٦ هـ : ٧٥٠ — ١٢٥٨م)

الشيعة

لما جعل الأمويون يضطهدون بنى هاشم ظهر حزب يعارض الأمويين ويعضد أبناء على ويعرف هذا الحزب بالشيعة . وهم يخالفون

أهل السنة فى اعتقادهم ببطلان خلافة أبى بكر وعمر وعثمان ، وبأن لعلى الحق المقدس فى الخلافة . وشاعت هـذه الدعوة فى العراق وفارس وخراسان ، لبعـدها عن مقر الخلافة ولأن الموالى من الفرس وغيرهم أرادوا أن ينالوا نصيباً فى ادارة الحكومة ، فصارت الدعوة تناوىء بنى أمية خاصة ، والعرب عامة

قتل زعماء بنى على

وقد حاول كثير من بنى على الخروج على الامويين ، وانتزاع الخلافة من أيديهم فلم يوفقوا ، بل ضاعوا ضحية هـذه الثورات حتى انتهى أمرهم بقتل زيد بن على زين العابدين وابنه الامام يحيى ، وبذا خلا الميدان لبنى العباس ، وكانوا يسعون للخلافة أيضاً لانتسابهم الى العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم

أبو مسلم

وأكبر عضد للعباسيين ابو مسلم الخرسانى الذى دخل خدمة زعماء بنى العباس منذ صغره ، ولما ظهرت خبرته وذكاؤه صار زعيما لنشر الدعوة فى خراسان ، وما زال يستحث الهمم حتى تمكن سنة ٧٤٧ من نشر العلم العباسى الاسود [١] فى مرو عاصمة خراسان ، منتهزاً فرصة اشتغال الأمويين بقمع ثورات الخوارج . فطلب نصر بن سيار عامل الأمويين الى مروان الثانى ان ينهض للقضاء على الدعوة [٢]

---

(١) اختار العباسيون العلم الاسود لان النبي كان يحارب فى بعض غزواته ناشرا علما اسود . وقد يكون سبب اختيار هذا اللون دلالته على الانتقام والبغض . أما الامويون فكان شعارهم اللون الابيض ، بينما كان الخوارج يرفعون العلم الاحمر

(٢) لما أبطأ مروان فى الرد كتب اليه نصر

أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون له ضرام

لئن لم يطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام

أقول من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام

فان كانوا لحينهم نياما ... فقل قوموا فقد حان القيام

فقبض مروان على ابراهيم زعيم العباسيين وقتله ، ولكن أخويه أبا العباس السفاح وأبا جعفر المنصور فرّا الى الكوفة حيث اختبئا ، وتقدم أبو مسلم غربا سنة ٧٤٩ واستولى على العراق . ثم تقابل جيش العباسيين بقيادة « ابن عون » وجيش الامويين بقيادة مروان عند « نهر الزاب » قرب الموصل فانهزم مروان وفر الى دمشق ، فتتبعه العباسيون واستولوا عليها وطاردوه الى أن قتل فى أبي صير بصعيد مصر سنة ٧٥٠ ، وبموته انتقلت الخلافة لبنى العباس فانتقموا من الامويين وأفنوهم عن آخرهم .

موقعة الزاب ونهاية حكم الامويين

ولم ينج منهم الا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذى فر الى الاندلس وأنشأ فيها دولة مستقلة

فرار عبد الرحمن الاموى الى الاندلس

وكان قد بويع أبو العباس عبد الله السفاح فى الكوفة فى ١٣ ربيع الثانى سنة ١٣٢ هـ (٢٥ نوفمبر سنة ٧٤٩) . وكان السفاح رغم قسوته كريماً ملتفتاً الى واجباته أخضع الثورات التى قامت فى دمشق وفلسطين ، وولى على الاقاليم رجالا من بنى العباس يثق بهم ، وعهد بالخلافة لأخيه أبى جعفر المنصور

خلافة أبى جعفر المنصور ٧٥٤ — ٧٧٥

يعد أبو جعفر المؤسس الحقيقى للدولة ، لانه أحكم الرابطة بين القوة الزمنية والسلطة الدينية ، فكانت الثانية مصدراً مهماً من مصادر قوة الدولة وعماداً متيناً لها ، وبدأ سلسلة الاصلاحات وجلائل الاعمال التى على منوالها نسج من أتى بعده . وأهمها استبدال العمال بغيرهم حيناً بعد حين ، وعزل من يخشى استقلالهم بالحكم من ذوى العصبيات القوية

وأهم أعماله بناء بغداد على الشاطىء الغربى للدجلة قرب المدائن سنة

بناء بغداد

٧٦٦ ، وقتل أبا مسلم الخرساني خوفاً من عظم نفوذه ، وأخضع الثورة التي قام بها أتباع أبي مسلم وحصن الحدود التي بينه وبين الروم واتخذ خالد بن برمك وزيراً له ، فبدأت عظمة البرامكة ، الذين قاموا باعباء الوزارة في صدر الدولة العباسية ، وكانوا من اكبر دعائم التقدم والرقي فيها

وكان المنصور يشرف على كل أعمال الدولة بنفسه ويستعرض الجند ويفتش الحصون ويراجع الدخل والمنصرف ويحاسب عماله حساباً دقيقاً

ولما انهكت الاعمال صحة المنصور قصد مكة ليقضي فيها بقية حياته فمات على بضع ساعات منها سنة ٧٧٥ وخلفه ابنه المهدي

خلافة المهدي والهادي (١٥٨ — ١٧٠ هـ : ٧٧٥ — ٧٨٦ م)

كان محمد المهدي على عكس والده ، كريماً رحيماً وكانت دولة العباسيين قد رسخت قدمها فعزم المهدي على إزالة أثر كل اساءة اقترفها المنصور ، فعفا عن كثير من المسجونين السياسيين ، ورد الى بني هاشم ما كان قد أخذه والده منهم ، ووسع المدارس وزاد في عددها

الزنادقة

وفي أيامه ظهر في جرجان شرقي بحر قزوين حزب من الزنادقة ، يدعو الى عقائد مجوسية واسلامية والى اشتراكية متطرفة ، ويحتقر الاداب والنظام فقضى عليه المهدي . ثم أكثر الروم من الاغارة على املاكه فتقدم اليهم هو وابنه هرون الرشيد وهزمهم وسار الى البسفور ، فصالحته «أيرين» القائمة بالحكم في قسطنطينية على دفع جزية سنوية

وخلفه ابنه موسى الهادي ولم يحكم غير سنتين وحدثت في عصره ثورة في المدينة ، فر على اثرها احد احفاد الحسن بن علي وهو ادريس الى المغرب فعظمه البربر وأنشأ الدولة الادريسية في أفريقية فيما بعد

الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ — ٧٨٦ — ٨٠٩ م)

يعد الرشيد من أكبر حكام العالم فقد كان متمسكا بدينه تقياً محسناً ، محباً مع هذا لمظاهر العظمة ماهراً فى قيادة الجيوش ، كثير التجول فى أملاكه بقصد القضاء على الفوضى وتوطيد الامن وتعرف أحوال الرعية ، فصارت الطرق سابلة بالامن وتقلب فيها التجار والعلماء والحجاج من أقصاها الى أقصاها . وقد شيد من المساجد والكليات والمدارس والمستشفيات والصيدليات والقناطر والترع ما يشهد له بالحرص على صالح رعيته وراحتهم

البرامكة

وينسب بعض عظمة عصر الرشيد الى الرجال الذين قاموا بادارة البلاد في الجزء الاول من حكمه ، لان يحي بن خالد البرمكي كان معلماً للرشيد فلما صار خليفة استوزره وأطلق يده فى كل الامور، فادارها بالحكمة والعدل والاحسان وساعده ابناه الفضل وجعفر وخلف الاخير والده فى الوزارة فقام بها خير قيام

بدء انفصال افريقية

ولما كثرت الثورات فى أفريقية واستنزفت أموالاً طائلة ، قبل الرشيد أن يكون حكمها وراثياً فى بنى ابراهيم بن الاغلب نظير جزية سنوية قدرها أربعون ألف دينار، فصارت أفريقية بذلك مستقلة استقلالا ادارياً

العواصم

وقد مد الرشيد حدود الخلافة شرقاً الى جبال هندوكوش ، وفصل الحدود الرومانية عن غيرها وجعلها تحت الحكم العسكرى لتقوى على الدفاع وسماها العواصم . وفى سنة ١٧٥ هـ (٧٩١ م) عهد

لابنائه الامين ثم المأمون ثم القاسم ، وأقام الامين على الغرب والمأمون على الشرق والقاسم على ما بين النهرين والعواصم . وكان الرشيد يثق بعبد الله المأمون دون الأمين

الفتك بالبرامكة

وبعد ان خدم البرامكة الدولة سبعة عشر سنة باخلاص وحزم ، حتى زادت ثروة البلاد على عهدهم وعمرت الارض وارتقت الصناعات وجميع وسائل الحضارة حسدهم كبار الدولة على علو مكانتهم ، فأوقع الخليفة بهم على حين غفلة . والسبب الحقيقي أنهم قبضوا على ناصية الأمور كلها ، بيدهم كل الدخل والخرج حتى أصبح الرشيد يطلب المبالغ الصغيرة فلا يجدها الا باذن من الوزير ، فضلا عن أن كرمهم حببهم الى عامة الشعب ، فسارت بمديحهم الركبان ، وفاقت شهرتهم شهرة أمير المؤمنين ، فأمر بقتل جعفر وسجن يحيى و بقية أبنائه حتى مات يحيى والفضل ، ثم عفا الأمين عنهم ورد اليهم المأمون فى خلافته ضياعهم

ثم مات الرشيد بعد أن حكم ثلاثا وعشرين سنة بلغت شهرته مبلغا لم يبلغه خليفة قبله حتى اتصل بامبراطور الصين وتبادل شرلمان الهدايا معه ، فأرسل اليه الرشيد هدايا كثيرة تشير إلى ما عليه الدولة من الثروة والتمدن ، ولا سيما الساعة المائية التى دهش لها أهل أوربا قاطبة

الامين (١٩٣ — ١٩٨ ﻫ . ٨٠٩ — ٨١٣)

ضعف الامين

كان الأمين ضعيفاً مسرفاً مغرماً بالبذخ والترف ، فنفدت أموال الخزانة ، وأغراه وزيره الفضل بن الربيع بخلع أخويه ، والعهد إلى أبنائه دونهما . وأرسل جيشاً يأتيه بالمأمون فانهزم عند الرى فأعلن المأمون

نفسه خليفة وقبلته فارس بأجمعها وحاصر بغداد فتهدم جزء كبير منها ، ثم وافق الأمين أن يسلم نفسه لأخيه ولكن بعض الجنود الفارسية قتلته فى الطريق ، فحزن المأمون وأكرم أبناء أخيه وزوجهم من بناته

انتصار المأمون

المأمون والمعتصم والواثق (١٩٨ — ٢٣٢ هـ . ٨١٣ — ٨٤٧)

بعد موت الأمين حصل هرج كثير فى العراق والشام استمر بضع سنين ، فلما هدأت العاصفة تولى طاهر بن الحسين قائد المأمون الشرق وتولى ابنه عبد الله بن طاهر سوريا ومصر . وكان عصر المأمون أزهر عصور الحضارة العربية كما سيأتى بعد . ومما يدل على بعد نظره وولعه بالعلم انه لم يقنع ببقاء نشر التعليم متوقفاً على سخاء الخليفة ، بل قرر أموالا ووقف أوقافاً دائمة يصرف منها على المدارس فى جميع أنحاء الدولة ، وأباح الاستخدام فى مناصب الحكومة لجميع المتعلمين على اختلاف أديانهم ونحلهم

عظمة المأمون

المدارس

وخلفه أخوه المعتصم فقفا أثره بوجه عام ، إلا أنه أراد أن يكبح جماح جيوشه الفارسية فكون جيشاً جديداً من الاتراك وغيرهم من الاجانب يقودهم ضباط من بينهم تحت إمرة الخليفة مباشرة ، ولما ضاقت بهم بغداد انتقل المعتصم وجيشه الجديد الى سر من رأى أو سامرا . وسرعان ما صار لهؤلاء الاتراك من القوة ما كان للحرس الرومانى قديما حتى أصبح بيدهم عزل الخلفاء وتعيينهم . ولما تولى الواثق بالله تمم خطة أبيه وزاد نفوذ الترك وأهمل الجيوش العربية والفارسية ، وعين أشناس التركى سلطانا للدولة يقوم بادارتها باسم الخليفة .

بدأ استخدام الترك فى الجيش

تعيين اشناس سلطاناً

وكان الواثق مغرماً بالعلوم والآداب والموسيقى مشجعاً للزراعة

نهاية عظمة العباسيين

والصناعة. وبموته انقضى عهد عظمة العباسيين اذ لم يخلفه إلا رجال يرتقون الخلافة ولا قوة لهم، ويموتون غير مأسوف عليهم، يوليهم الفرس أو الاتراك ذو النفوذ فى الجيش ويعزلونهم أو يقتلونهم متى أرادوا. ولقلة أهميتهم فى التاريخ، أهملنا ذكرهم

وقد استمر اسم الخلافة العباسية ببغداد الى سنة ١٢٥٨م (٦٥٦هـ) حين أغار عليها «هولاكو» التتارى وقتل المستعصم آخر خليفة عباسى فانقضت بذلك الدولة العباسية



الفصل الثالث

الحضارة الاسلامية

عهد الخلفاء الراشدين والأمويين

انتخاب الخليفة

كانت الخلافة انتخابية ، وكان الانتخاب فى الواقع بيد المسلمين المقيمين فى المدينة حيث يحصل الانتخاب وتؤخذ البيعة بمسجدها الجامع ، ومتى تم اختيار الخليفة بهذه الطريقة بايعه باقي المسلمين عن طيب خاطر . واستمر ذلك مرعياً كما بينا الى أن استقرت الخلافة لمعاوية، فأصبح أمير المؤمنين يعين خلفه ويأخذ له البيعة فى حياته ، مستعملا فى ذلك سلطانه و نفوذه، وبهذا صارت الخلافة انتخابية فى شكلها وراثية استبدادية فى الواقع ونفس الأمر

الحكومة

وكانت الرآسة للخليفة يعاونه كبار الصحابة في القيام باعباء الدولة . ففى زمن أبى بكر مثلا كان عمر يقوم بالقضاء ، وكان على كاتم السر ومنوطا بالنظر فى أمر الاسرى وفديتهم . وكان ولاة الاقاليم ينوبون عن الخليفة فى الامور الدينية والسياسية، ثم فصل عمر القضاء عن الادارة وجعل القاضى مسئولا أمامه فقط ومستقلا عن الوالى

موارد الدولة

كانت أهم موارد الدولة الزكاة وضريبة الاراضى وفرضة الرءوس والجزيات التى نصت عليها المعاهدات وخمس غنائم الحرب ودخل أرض الحكومة والمكوس ، وأكبر أبواب المصروفات تكاليف الادارة واعتمادات الحرب والمعاشات المختلفة التى كانت تصرف للصحابة والجند.

واضبط حساب الوارد والمنصرف استعان عمر بالنظام الفارسى ورتب الديوان أو بيت المال حيث كانت تقيد الواردات والمصروفات ، وكان عمر لا يسمح لجنده أن يملكوا أرضاً فى البلاد التى فتحها العرب ، رغبة منه فى الاحتفاظ بالصفات الحربية فى العرب وصيانه لحقوق فلاحي البلاد الاصليين . أما باقى نظم الحكومة فلم يتم تكوينها إلا أيام الأمويين والعباسيين

عهد العباسيين ومعاصريهم

كلمة عامة

ينقسم حكم العباسيين إلى قسمين متميزين : الأول من ابتداء خلافتهم إلى موت الواثق بالله (٧٥٠ — ٨٤٧) ويعرف بالعصر الذهبى، والثانى من ذلك التاريخ إلى نهاية حكمهم سنة ١٢٥٨

اعتمد العباسيون على أهل فارس وخراسان الذين أوصلوهم إلى منصب الخلافة واتخذوا منهم الوزراء ورجال الدولة . فعين أبو العباس خالد بن برمك على ديوان الدخل . وزاد النفوذ الفارسى حتى بلغ أعلى درجاته فى عصر المأمون . ولما رأى المنصور أن دمشق مرتبطة بذكر الأمويين وبعيدة عن فارس ، بنى بغداد التى فاقت دمشق والكوفة والبصرة فى النبوغ العلمى. وسرعان ما شاعت العادات الفارسية وبدأت كتب الأغريق تترجم إلى العربية وظهرت هذه النهضة فى عهد الرشيد بتشجيع البرامكة ولا سيما يحيي وابنيه الفضل وجعفر . وكان البرامكة من الفرس العريقين فى المجد ، ويقال إنهم كانوا يمالئون الشيعة إلا أن كرمهم ومعاضدتهم للعلم ومقدرتهم فى الادارة خففت كثيراً مما

كان بين العرب والفرس من التنافس ، حتى ظهر فى مدتهم عدد كبير من الشعراء من عرب وعجم ومولدين كأبى نواس وأبى العتاهية والعباس ابن الأحنف ومسلم بن الوليد، ونبغ الواقدى المؤرخ والكسائى النحوى والاصمعى اللغوى وأبو يوسف القاضى، فاضاءت بهم خلافة الرشيد . وفى عهده أيضاً اتسعت تجارة المسلمين وامتدت شرقا إلى الصين وغرباً إلى امبراطورية شرلمان . وكان المأمون محباً للأبحاث العلمية فشجع العلماء على درس الفقه والشريعة والطب والرياضة والفلك والتاريخ الطبيعى

الحكومة فى صدر الدولة العباسية

الخليفة

كان الخليفة من آل محمد صلى الله عليه وسلم فكانت له الرياسة الدينية والزمنية ، وقد ساعد نفوذهم الدينى على عظم شأنهم كما أطال فى عمر دولتهم ، لان احترام السلطة الدينية التى للخليفة كان عميقاً فى قلوب الناس، حتى ان الحكام الذين استقلوا عنهم سياسياً لم يفكروا فى الاستقلال الدينى بل كانوا دائماً يطلبون من الخليفة مرسوماً يجعل مركزهم مشروعاً ، حتى السلاجقة أنفسهم لم يصيروا خلفاء الا بطريق الوراثة عن بنى العباس

كان العباسيون يعهدون بالخلافة لمن بعدهم ويأخذون لهم البيعة من وجوه الناس ، وكان الخليفة إماماً وقائداً وأميناً لبيت المال وقاضياً ، كما كانت الحال زمن الامويين . ولكن اتساع الملك اضطره إلى ان يكل القيام بواجباته الى رجال عديدين بعضهم فى مقر الخلافة وبعضهم فى الاقاليم ، وأهم وظيفة أحدثها العباسيون هى وظيفة الوزير الذى كان

الوزير

ينوب عن الخليفة ويستعمل السلطة المطلقة باسمه، يخضع له كل الموظفين وينوبون عنه في واجباته، فكان الوزير بيده كل مكاتبات الدولة ودخلها ومصروفاتها وتعيين الموظفين وعزلهم

مجلس العزيز

كان رؤساء المصالح يجتمعون فى مجلس برياسة الوزير يسمى «مجلس العزيز» وأهم المصالح فى ذلك الوقت ديوان الخراج وديوان الضياع وديوان الجند وديوان الشرطة وديوان الرسائل وديوان البريد وديوان النظر فى المظالم وديوان الزمام وديوان الاكرة .

أهم الدواوين

وكان ديوان الخراج أهمها ، أما ديوان الرسائل فكان واجب رئيسه وضع المرسومات والمكاتبات السياسية وتسجيل ردود الخليفة على الطلبات والشكايات المختلفة ، واما ديوان الزمام فانشأه المهدى فى المراكز المهمة فتحسنت الادارة بوجوده تحسناً كبير وكان يشبه قلم المراجعة ، بينما كان صاحب البريد يراقب توزيع المكاتبات الرسمية ويستطلع الأخبار الهامة وكان له أعوان فى الاقاليم يرسلون اليه التقارير السرية عن أحوالها ، على أن هؤلاء لم يستغن بهم عن رجال البوليس السرى ، وأما ديوان الاكرة فكان يعني بشئون الفلاحة والفلاحين

القضاء

كل القضايا المدنية لغير المسلمين كانت توكل لقضاتهم ورؤساء دياناتهم ، وأما المسلمون فكان يفصل بينهم القضاة وكان فى كل مدينة كبيرة قاض ينوب عنه قضاة فى النواحى التابعة للمدينة ، ويرئسهم جميعاً قاضى القضاة وهو يشبه وزير الحقانية للدولة كلها

وكانت القضايا الجنائية فى يد صاحب المظالم ، والمحكمة العليا تسمى ديوان النظر فى المظالم ، رئيسها الخليفة وأعضاؤها قاضى القضاة والحاجب

وكبار الرؤساء ويدعى اليها بعض رجال الافتاء . وكان هـذا المجلس غير الرسمى لا ينظر الا فى قضايا العظماء ،التى لا يستطيع أن يفصل فيها صاحب المظالم وهو يشبه من بعض الوجوه النائب العمومى

صاحب الشرطة والمحتسب

كان بكل مدينة شرطة خاصة برتب عسكرية خاضعة لرئيس تعينه الحكومة مباشرة يسمى صاحب الشرطة يقوم بحماية أرواح الرعية وأملاكها ويشبه الحكمدار ، أما المحتسب فأول من عينه المهدى وكان رئس بوليساً مدنياً يلاحظ الاسواق ويختبر الموازين والمكاييل والمقاييس ،ويعاقب كل من يحاول الغش أو الاختلاس

الضرائب

كان أهم موارد الخزانة من الخراج والزكاة والفرضة وخمس حاصل المناجم ورسوم المصانع وضريبة الملح والمصائد والمكوس ، وكانت الضريبة تقبل نقداً أو من عين المحصول

الحكومة المحلية

كانت كل مدينة تقوم بشئونها الخاصة الى درجة كبيرة وكانت الحكومة العليا لاتتدخل الا لقمع الاضطراب ، فكان لكل مدينة مهمة مجلس يعرف «بديوان الشورى» مكون من أعيان المدينة تحت رياسة «الصدر » الذى ينتخبه الاعضاء .وكان هذا الديوان يدير شئون المدينة ويجبى الضرائب ويدفع للدولة القيمة المحددة ، وكانت الحكومة العليا تقتصر على تعيين القاضى وصاحب الشرطة وصاحب البريد والحاكم الذى كانت الحكومة تختاره من رجال الجهة .كذلك كانت تكتفى باستلام الضرائب ومراقبة الرى وغيره من الاعمال الزراعية

الصناعة والتجارة والزراعة

تمهيد

رأينا انه فى عهد الامويين صارت العربية لغة المكاتبات الرسمية والدين والشعر والعلم فى جميع أنحاء الدولة ، وأن الاعاجم ولا سيما الفرس اشتركوا فى النهضة واشتدت المنافسة بينهم وبين العرب . ولكن هذه المنافسة خفت حدتها كثيراً فى صدر الدولة العباسية لان الفرس استعربوا لغة وعادات وأسماء وامتزج المنصران حتى لم يعد يمكن التفريق بينهما أيام المأمون . وأخذ الجميع يتبارون — لا فى ميدان الانساب — بل فى ميادين التقدم المادى والنشاط الادبى

الصناعة

استغل العرب موارد ثروتهم الصناعية فاستخرجوا الحديد من خراسان وفارس، والفضة والرصاص والملح الجبلى والكبريت من فارس أيضاً، والنفط من القوقاز والمرمر من تبريز ، واشتهرت دمشق والموصل بالتطعيم بالفضة والذهب وصنع الاسلحة الدمشقية المعروفة ، وصنع الزجاج والآجر المصقول فى البصرة وعظم شأن هذه الصناعة فى خلافة المعتصم ، فانه أقام المصانع فى بغداد وغيرها وشاعت صناعة المصابيح البلورية المحلاة بالذهب وغيره من الألوان فى دمشق

وتفوق العرب فى التطريز والسجاجيد والحرير والاطلس والكتان والوبر والشعر وشاعت صناعتها فى كل الجهات ، وان امتازت دمشق بالكتان والكوفة بالحرير خصوصاً المناديل وخراسان بالسجاجيد والاصواف وخوزستان بتكرير السكر والزيوت والاعطار، وا كتشفت عملية تكرير السكر وصنع الورق ، وتقدم صنع المعادن فتمتعت أوربا بنتائج اختراعات المسلمين ونبوغهم العلمى

التجارة

وكانت التجارة لا تقل شأناً عن الصناعة فصارت البصرة مركزاً للتجارة مع الهند والصين بطريق البحر، واتجروا مع شاطئ افريقية الشرقي وتوغلوا الى البحيرات العظمى، وكشفوا جزائر آسورة واتجروا مع شاطىء غينيا، واخترقت قوافلهم صحراء افريقية إلى النيجر عن طريق المغرب ومصر فكشفوا الصحراء العظمى لاولى مرة فى تاريخ الحضارة، ونشطت قوافل بغداد الى الهند والصين وبحر قزوين والبحر الاسود وتغلغلوا فى روسيا حتى وصلت النقود العباسية الى شواطىء البلطيق وداخل السويد، وامتدت تجارتهم الى قسطنطينية وثغور البحر الابيض المتوسط

الرحلات

وقد صحب هذا التوسع حركة فكرية هامة إذ قام العلماء برحلات إلى البلاد الاجنبية ودوّنوا حقائق هامة عن أرضها وأهلها ولغاتها وعاداتها، فكأن إحياء العلوم فى الدولة العباسية لم يكن الا مظهراً من مظاهر النهضة العامة التى وسعت كل شئون الحياة ، شأن إحياء العلوم فى النهضة الاوربية

الزراعة

كان العراق تحت اشراف الحكومة العليا مباشرة فنال حظاً وافراً من عنايتها فتحسنت طرق الرى التى ورثها العرب عن الفرس تحسناً عظيماً وأصبح بالبلاد شبكة واسعة النطاق من الترع والمصارف . ولم تحرم بقية الأقاليم من مثل هذه العناية بل كانت الزراعة وفلاحة البساتين تعد من أول واجبات الحكومة

وقد وجه العرب جهدهم لتطبيق العلم على العمل فى دراسة النبات ودرسوا صلاحية التربة لنباتات خاصة، واستعملوا الاسمدة المختلفة لصنوف النبات المتباينة، وعرفوا التطعيم وتوليد أصناف جديدة من

أشجار الفاكهة وغيرها ، وجلبوا الى بلادهم ما لم يكن معروفاً بها من قبل، فاشتهرت الاهواز وفارس بزراعة قصب السكر ، وأقام عبد الرحمن الأول بستان نباتات بقرطبة جلب اليه البذور النادرة من الشرق . وقد أدخل العرب الى أوربا نباتات كثيرة لم تكن معروفة أهمها الأرز وقصب السكر والمشمش والخرشوف

فن البناء والزخرفة

لما جاء الاسلام وأبطل عبادة الاوثان جرى الناس على كراهة التمثيل والتصوير ، فوجه ذوو الكفاءة الفنية هممهم إلى البناء والزخرفة مستمدين الفن من الحياة النباتية والحيوانية والاشكال الهندسية والمناظر الطبيعية ، متحاشين تصوير الجسم الانسانى فشادوا مساجد وقصوراً آية فى الجمال والابداع الهندسى كما تشهد بذلك آثارهم فى قصر الحمراء بقرطبة ومساجدهم بالقاهرة ودمشق وغيرها

العلوم

لما استقر العرب بالبلاد التى انبعثت فيها المدنيات القديمة كسوريا ومصر وفارس والهند وتولى الخلافة رجال مستنيرون كالرشيد والمأمون ، واستتب الأمن فى أنحاء الدولة وعمها الرخاء ، توجهت الهمم الى استطلاع علوم الأقدمين ، ومتابعة السير فى ابحاثهم العلمية المختلفة رجاء الوصول الى كشف ما يحيط بهم من أسرار الطبيعة وعجائبها ، واستخدام ما قد يتاح لهم من القوانين العلمية فى ترقية أحوالهم المعاشية من زراعية وصناعية ،

وأهم المدنيات التى نقل عنها العرب مدنية الاغريق التى كانت آثارها لا تزال باقية فى مدن سوريا ومصر والاناضول ، لا سيما ان مدارس الطائفة المسيحية المعروفة بالنسطورية ، والتى اضطهدها أباطرة الدولة

الرومانية الشرقية ، اضطرت الى الالتجاء الى العراق وفارس فسهل على العرب الاستفادة منهم . زد على ذلك أن الخلفاء فى صدر الدولة العباسية كانوا يرسلون بعوثا للبحث والتنقيب فى الكنائس والأديرة عما خلفه القدماء من العلوم وذهب بعضهم الى القسطنطينية والهند فى عهد المأمون . أما العلوم التى أخذها العرب عن الأغريق فاعظمها شأنا الطب والفلسفة والجغرافيا والهندسة والفلك

وأما عن الهند فأخذ العرب الارقام الحسابية والفلك وحساب المثلثات وأما عن الفرس فأخذ العرب النظم الحكومية والبريد وبعض الكتب الطبيعية التى نقلها الفرس عن الأغريق

وقد بدأ العرب بترجمة هذه العلوم الى لغتهم ثم أضافوا اليها ابحاثا جديدة لم يكن قد طرقها الأقدمون . ففى الرياضة أنشأوا علم الجبر وطبقوه على الهندسة وابتكروا الخط المماس المستعمل فى حساب المثلثات، وقوانين أخرى جديدة فى هذا العلم وكانوا أول من استعمل الكسور العشرية . أما فى الطبيعة والكيمياء فقد ضربوا بسهم صائب لا سيما فى الكيمياء، فكتبوا عن العدسات ووضعوا نظريات جديدة فى انكسار الضوء وفى شكل الصور فى المرايا المنحنية . واكتشفوا خواص القلى والاحماض وابتدعوا مركبات جديدة كالكحول وحامض الكبريتيك وتحضير الزئبق وابتكروا أجهزة للتصعيد والتقطير والخلط والمزج

وأما فى الطب والصيدلة فأدخل العرب فى الطب نباتات كثيرة كان يجهلها اليونان كالراوند والكافور ووضعوا علم الجراحة ووصفوا آلاته وعملياته وجبر العظام، وكتبوا فى أنواع الحمى ووصفوا جميع الحيوانات

والنباتات والاحجار والمعادن ذات الخواص الطبية . وهم أول من أقام المستشفيات والصيدليات

وأشهر المبتكرين والنابغين فى الفلك محمد بن موسى واخوته والكندى وابن يونس المصرى الذى بنى مرصدا بجبل المقطم واخترع بندول الساعة الدقاقة سنة ١٠٠٧ م .

وفى الطبيعة الحسن ابن الهيثم المتوفى بالقاهرة سنة ١٣٠٨ ، وفى الطب ابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٦) والفخر الرازى وأبو القاسم ابن على وقد بقيت كتبهم تدرس بأوربا عدة قرون ، واشتهر فى المادة الطبية ابن البيطار ، وفى الفلسفة ابن رشد ، ونبغ فى الجغرافيا الادريسى المولود بالمغرب سنة ١٠٩٩ والذى بقيت خريطته وكتبه تدرس بأوربا اكثر من ٣٥٠ سنة بعد وفاته . وظهر فى التاريخ الطبرى فى القرن العاشر والمسعودى وأبو الفداء وابن خلدون والمقريزى فى القرن الرابع عشر

وقد اهتم العرب بشئون التربية والتعليم وسبقوا كل ما كان معروفا باوربا فى تلك العصور أو بعدها ، فقامت المدارس والمكاتب والجامعات فى أهم مدن الدولة العربية كبغداد والقاهرة وقرطبة وانطاكية ونيسابور ، وأمها الطلاب من كل فج يحضرون دروس الجامعات

وقد وصلت ابحاث العرب وعلومهم الى أوربا أثناء العصور الوسطى عن طريق الاندلس وجنوب ايطاليا ، حيث شاد العرب جامعات ومدارس زاهرة قصدها طلاب العلم من اليهود والمسيحيين الذين كانوا يحضرون دروس الجامعات جنبا الى جنب مع العرب ، فارتشفوا من عذب مناهلها ووصلوا الى علوم الاغريق القدماء التى كانت تدرس بها . وقد نقلوا

ما علموه الى اللغة اللاتينية فذاعت دراسة كتب ارستطاليس المنقولة عن العربية ، كما ذاعت كتب اقليدس فى الهندسة وكتب بطليموس فى الجغرافيـــــا .

ومن الطلبة الذين تعلموا فى جامعات العرب وكان لهم شـأن فى انعاش الحركة العلمية فى أوربا فى العصور الوسطى ، الامبراطور فردريك الثانى الذى لم يدخر جهدا فى حث الاوربيين على دراسة العلوم الشرقية

وقد وصلت بعض مدنية العرب الى أوربا على أثر اتصال أوربا بالشرق فى الحروب الصليبية ، فكان تجار البندقية وجنوة وغيرهما من ثغور ايطاليا ينقلون الصليبيين الى الشرق على سفنهم ويعودون بها الى أوربا مثقلة بما وصلت اليه أيديهم من نفائس الشرق ومصنوعاته وكتبه ، وما لبثت هذه التحف الشرقية ان انتشرت من ايطاليا الى بقية أسواق أوربا

ومن ذلك يتضح أن أوربا أخذت عن العرب القبس الذى سطع فى ايطاليا أولا ثم فى بقية أوربا ، وأخذ شكله النهائى فى النهضة الاوربيـة . فالاوربيون مدينون للعرب بافاقتهم من سباتهم العميق فى العصر الوسيط ، بل ببعثهم من رمس العصور المظلمة الى هذه الحياة الملأى بالاعمال والآمال

الفصل الرابع

قيام دولة الفرنجة

شرلمان . (٧٦٨ — ٨١٤)

شخصية شرلمان

لا تكاد توجد فى العصر الوسيط شخصية أعظم أثرا من شخصية شرلمان، وليس من شك فى أنه أكبر ملك ظهر فى العصور الوسطى

كان شرلمان نشيطاً جلدا على مزاولة العمل لا يعتريه الكلال من ممارسة الحروب، يحب العلم ويؤثر مجلس العلماء . وأولع بتشييد المبانى الفخمة والقصور الشاهقة وقد أداه ولعه بالعلم الى استحضار العالم الانجليزى « الكوين Alcuin » من مدينة يورك لفتح مدارس لتعليم أبناء أشراف الجرمان، فاضاءت بعصره ظلمة العصور الوسطى ولم تنطوىء الجذوة التى أذكاها حتى بعد موته. وقد بذل شرلمان جهدا كبيرا لرفع المستوى الادبى بين أشراف الجرمان بفضل ما كان هو عليه من التقوى والاخلاص للدين وللدولة وأهلها

حبه للعلم

فتوحه

كان يرمى الى جمع كل قبائل الجرمان تحت لواء مسيحى واحد، ولم يكن مانع من ايجاد هذه الوحدة الا قبائل السكسون الذين بقوا على وثنيتهم معتصمين بغابات بلادهم ومستنقعاتهم، فأرسل اليهم شرلمان الحملة تلو الحملة حتى أخضعهم لحكمه ، ونشر بينهم الدين المسيحى وبنى الكنائس فى بلادهم ففاز بغرضيه جميعاً

اخضاع السكسون

التغلب على اللمبارد

انتهز اللمبارد فرصة اشتغال شرلمان بحملاته على السكسون وعملوا

على استرجاع مملكتهم فى ايطاليا ، فهاجموا رومة واستغاث البابا بشرلمان فلبى الطلب سنة ٧٧٣ وتقدم الى ايطاليا وحاصر ملك اللمبارد فى «باڤيا» حتى سلم وأضيفت أملاكه الى أملاك شرلمان فسمى نفسه ملك الفرنجة واللمبارد ، وقد وسع شرلمان أملاك البابا وزاد فى قوته

حروبه مع الصقالبة

لم يقنع شرلمان بحكم ألمانيا بل عبر الالب وأخضع القبائل الصقلبية التى كانت تسكن بولنده وروسيا كما أخضع «التشك» فى بوهيميا و«الآفار» فيما يسمى الآن النمسا والمجر وقد ألزم الآفار ان يعتنقوا المسيحية ، وضم بفاريا نهائياً الى ملكه . ولحماية الحدود الشرقية لدولته كون أمارات عسكرية شرقي نهر الالب تشبه العواصم التى كونها الرشيد لصد غارات القبائل المتبربرة التى كانت تغير على الدولة

غزو اسبانيا

وفى أواخر القرن الثامن اختلف أمراء العرب فى اسبانيا واستعان أحدهم بشرلمان فدخلها وأخذ برشلونه سنة ٧٩٨ فملك جزءاً جنوب البرانس كان مهد القوة التى طردت العرب من الاندلس بعد قرون عدة

شرلمان والبابوية

وبقيت كنيسة رومة تعترف بسيادة أمبراطور الدولة الشرقية حتى قام النزاع بينهما على عبادة الصور المقدسة وغيرها وأصدر البابا قرار الحرمان ضد الأمبراطور . وشرعت الكنيسة فى الغرب ترتبط بالفرنجة وتتطلع لحمايتهم كما تقدم . ثم نشب نزاع بين أشراف رومة والبابا «ليو الثالث» وكان الأشراف يريدون اعادة الجمهورية فاضطر «ليو» أن يفر الى شرلمان سنة ٧٩٧ ويسأله المعونة على أعدائه فدخل شرلمان رومة

تتويج شرلمان امبراطوراً

وأعاده الى عرش البابوية . وبينما هو راكع أمام المذبح فى كنيسة القديس بطرس فى عيد ميلاد سنة ٨٠٠ اذا بالبابا قد وضع على رأسه تاج

الامبراطورية. فأظهر شرلمان الدهشة كأنه فوجىء بهذا العمل ولكن لا شك فى أنه صادف هوى فى فؤاده

وانما دعا البابا الى تتويج شرلمان أن الامبراطورية البوزنطية لم تعن بأمور الغرب ولا سيما بعد أن نشأ الخلاف الدينى . فاحتاج البابا الى حكومة قوية تحميه ، فضلا عن أن شرلمان جدّد بفتوحه العظيمة ومنزلته وأخلاقه ذكرى الامبراطورية الرومانية القديمة التى لم تبرح من الاذهان فكان جديراً أن يكون أمبراطوراً

وبهذا أعيد تكوين الدولة الرومانية التى سميت بعد ذلك مقدسة ، والتي بقيت رغم النوائب والمحن إلى سنة ١٨٠٦ حين رأى امبراطورها أنه لا فائدة من تمسكه باهداب هـذا اللقب مع وجود الامبراطور نابليون ، فتنازل عنه . ونجم عن تتويج شرلمان

نتائج تتويج شرلمان

(١) أن ارتبطت ايطاليا والمانيا وصار خلفاء شرلمان ملزمين ـ بصفتهم خلفاء أباطرة الرومان القدماء — أن يخضعوا ايطاليا . فقسموا جهودهم بين هذه البلاد والمانيا وضعفت قوة الامبراطور فيهما ، وقوى أمراء العهد الاقطاعى فتأخر اتحاد المانيا وايطاليا الى القرن التاسع عشر

(٢) أخذ البابوات يدعون أنهم هم الذين عينوا شرلمان امبراطور وان الامبراطور يجب أن يخضع للبابا فنشب الـكفاح بين الامبراطورية والبابوية طول العصور الوسطى

سياسة شرلمان

سعى شرلمان فى توحيد ممتلـكاته فشدد الرقابة على أمراء الاقاليم الذين أصبح كل منهم يلقب «كونت» وبيده كل السلطة المدنية والحربية، وجعل يرسل رسله Missi Dominici الى الجهات المختلفة ليتعهدوا حال

البلاد وينظروا فى شكاوى الاهلين ويوافوه بتقاريرهم

وكان شرلمان مثال النشاط يجوب البلاد ليحافظ على صالح الرعية، وينشر العلم بينهم بفتح المدارس فى الكنائس والأديرة وكان قصره مجمع العلماء حتى سمي مدرسة القصر

وبلغ من بعد صيته أن اهتم الرشيد بمصادقته حتى يساعده على الدولة الاندلسية. ومات شرلمان سنة ٨١٤ بعد أن ترك فى اذهان الاجيال المقبلة فى العصور الوسطى أثراً لا يمحى، وقد وسعت دولته الممالك المعروفة الآن بفرنسا وبلجيكا وهولندا وغرب المانيا وسويسره والنمسا والمجر وشمال ايطاليا وجزءاً من اسبانيا . وكانت عاصمته « آحن » وهى « اكس لاشابل »

تجزؤ دولة شرلمان

تمكن شرلمان بعزمه وحزمه أن يحكم أملاكه الشاسعة حكما مستنيرا قويا، الا أن العوامل الجغرافية والجنسية واللغوية كانت تنزع الى تفكيك عراها، فكانت الجبال تفصل ايطاليا واستراسيا ونستريا وكانت القبائل الجرمانية البحتة فى استراسيا متميزة عن أهل نستريا وأهل ايطاليا وعن الصقالبة ولذلك لم تتماسك دولته طويلا

لويس التقى

خلف لويسُ أباه وكان ضعيفاً منقاداً للكنيسة تاركا حبل الأمور على غاربها فكثرت الثورات وزادت سلطة الكنيسة حتى انتخب البابا بغير علمه . وخلف لويس أبناؤه الثلاثة واحتدم الخصام بينهم، فاتفقوا على

تقسيم فردان

تقسيم الامبراطورية فيما يعرف « بمعاهدة فردان » سنة ٨٤٣ ، فأخذ « لوثير » لقب الامبراطورية والاراضى المتوسطة فى أملاكها وأهمها هولندا الحالية وحوض الرين إلى قرب ماينز وحوض الرون وسويسره وشمال ايطاليا ، ولا تزال اللورين تذكرنا باسمه الى الآن ، وأخذ « لويس » الجزء الشرقى من أمبراطورية شرلمان وأخذ « شارل » الجزء الغربى . ولم تدم هذه المعاهدة طويلا الا أنها تركت آثارا باقية ، لان القسم الشرقى صار ألمانيا فيما بعد ، والقسم الغربى صار فرنسيا والقسم الأوسط كان ولا يزال موضع النزاع بينهما

لم يكن تنازع أحفاد شرلمان السبب الوحيد فى انحلال دولته بل يضاف الى ذلك العوامل الجغرافية والجنسية واللغوية التى تقدم ذكرها وكثرة الهجوم على هذه الاملاك من نواحى عدة

هجوم قبائل متبربرة جديدة

فكان المجر كثيراً ما يخربون شمال ايطاليا والاجزاء المتحضرة من المانيا وأهم من هذا ، الغارات التى قامت بها جماعات من سكان اسكندناوة والدانمرقة جعلت تنهب شواطىء المانيا وفرنسا وانجلترا ثم تعود الى بلادها . وعرف هؤلاء فيما بعد باسم « النرمنديين » وتركوا آثارهم فى أكثر أنحاء اوربا

النرمنديين

ولما رأى هؤلاء ضعف الجهات التى كانوا يغيرون عليها شرعوا يقيمون بها ، ولماسئم ملوك فرنسا توالى هجوم النرمنديين اتفقوا سنة ٩١١ مع رئيسهم « روللو » أن يكفوا عن الهجوم ويقيموا فى المقاطعة التى صارت تعرف بنورمندية وسرعان ما اندمج النرمنديون فى الفرنجة واعتنقوا المسيحية واستعملوا لغة فرنسا وعاداتها . ثم فتحوا انجلترا سنة ١٠٦٦

وفى القرن الحادى عشر نزل قوم من النرمنديين بجنوب ايطاليا بقيادة زعيمهم « روبرت جسكارد Robert Guiscard » وانتزعوا الحكم من الدولة الرومانية الشرقية ثم عبروا الى صقلية سنة ١٠٦٠ وطردوا العرب منهـا ، وأقاموا مملكة عظم شأنها أيام ملكها « روجر الثانى Roger II » حتى صارت تشمل صقلية والنصف الجنوبى من ايطاليا



سفينـة نرمندية

الفصل الخامس

النظام الاقطاعى وظهور قوة الكنيسة

لما عجزت الحكومة العليا عن صد الغارات السالفة الذكر اضطر امراء كل جهة أن يعتمدوا على أنفسهم فى الدفاع عن بلادهم فسلحوا أتباعهم لحمايتها وكسبوا بذلك رضاء الاهالى وورث أبناؤهم مكانتهم هذه فأصبحوا شبه مستقلين لا يملكون الاراضى فحسب ، بل يحكمون المقيمين بها ويقضون بينهم ويقودون جيوشها ويجمعون منهم الضرائب ولا يسمحون لملك أو امبراطور أن يتدخل فى هذه الشئون التى عدوها حقاً لهم وان تظاهروا بالخضوع لمليك البلاد وقدموا له بعض المساعدة أثناء الحرب . وكان هذا النظام يختلف باختلاف الزمان وظروف الأحوال وبدأت معالمه تظهر أثناء انحلال الدولة العظيمة التى أقامها شرلمان .

ويطلق الاقطاع على الروابط الاقتصاديه والاجتماعية التى ربطت المجتمعات فى غرب أوربا قروناً طوالا ، وقد أخذ شكله النهائى فى خلال القرن التاسع بعد الميلاد واستمر سائداً الى القرن الثالث عشر ثم أخذ فى الاضمحلال ، على أن آثاره لم تمحها الا الثورة الفرنسية

تلك الروابط كانت مؤسسة على ثلاثة اعتبارات مهمة

١ — ملكية الارض

كانت الأرض حسب النظرية السائدة فى عصر الاقطاع ملكا لله تعالى وانه منحها للملك وان الملك أقطعها لأتباعه ولم يدرك الناس

اذ ذاك نظرية تملك الأرض التى نعرفها ، القائمة على أن كل قطعة من الأرض لها مالك خاص يتصرف فيها بالبيع والرهن والهبة كيفما شاء لا ينازعه أحد بل كانوا يعتقدون ان لكل أرض سيداً فوقه سيد آخر وفوق هذا سيد أكبر منه وهكذا

نشأة الاقطاع

ولما ضعفت الحكومة المركزية وأخذ القوى يتغلب على الضعيف لم يأمن صغار الملاك على أنفسهم ولا على أرضهم لأن الأمر كان للقوة فلجأوا الى كبار الملاك ووضعوا أرضهم تحت سيادتهم وتسلموها منهم ثانية بشروط يوفون بها مقابل حماية السيد لهم

أما كبار الملاك فان الظروف قضت عليهم بالتفرغ للحروب المحلية دفاعية كانت أم هجومية ، فوجدوا أن خير طريقة تعود عليهم بالمنفعة أن يقطعوا بعض أرضيهم الواسعة لرجال أحرار يصبحون اتباعاً لهم مقابل الوفاء بشروط معينة . والأرض التى يتسلمها صاحبها بهذه الصفة تسمى قطيعة

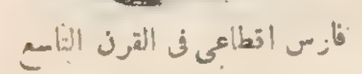
وأخذت هذه الطريقة تنتشر بين كل الطبقات فى جميع انحاء غرب أوربا حتى لم تبق أرض غير مقطعة . وكثيراً ما كان التابع يأخذ القطيعة من السيد فيقطعها هو لاناس يصيرون اتباعاً له وهكذا ، وكانت القطيعة يرثها الابناء عن الآباء مقابل رسوم يقوم بها الوارث نحو سيد الأرض

٢ـ الرابطة بين التابع وسيده

نشأت بين التابع وسيده حقوق وواجبات لم يكن بد من مراعاتها والاّ فسد التعاقد الذى حصل بينهما . فواجب السيد أن يحمى تابعه ويدفع عنه العدوان، وان يفصل فى القضايا التى يعرضها عليه ، وعلى التابع

أن يقسم يمين الولاء والاخلاص لسيده فى حفلة دينية فيركع عارى الرأس ويضع يديه بين يدى سيده ويقسم على الانجيل ان يكون صادقاً مطيعاً لسيده معادياً لاعدائه فيقبله السيد ويأخذ بيده

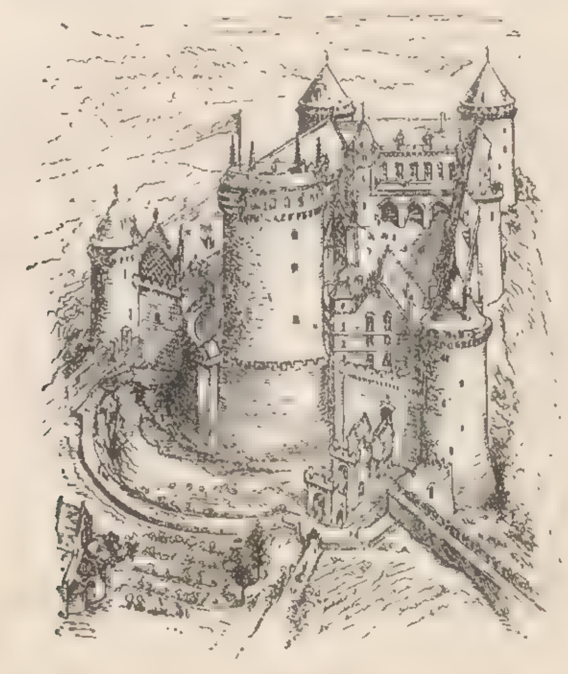
وعلى التابع أن يحضر محكمة سيده ويشترك فى نظر القضايا المعروضة عليها وأن يحارب تحت لوائه، ويقدم له منحة مالية فى كل ظرف من الظروف الثلاثة الآتية وهى حفلة فروسية ابنه الاكبر وزواج ابنته الكبرى، وافتدائه من الأسر. وهناك واجبات تختلف باختلاف الأحوال كأن يقدم التابع للسيد متى زاره قدراً معيناً من الماشية أو الطير أو العسل وما الى ذلك مما يحتاج اليه السيد


فارس اقطاعى فى القرن التاسع

٣ـ الاعفاءات

وعلى أثر تجزؤ دولة شرلمان وضعف الحكومة العليا تخلص حكام الاقاليم من رقابة الحكومة وورثوا وظائفهم لأبنائهم فانشأوا المحاكم وبنوا القصور الحصينة وقاموا بجميع الأعمال الادارية والحربية التى كانت للحكومة من قبل. وقلدهم فى ذلك كله كبار الملاك فى جهاتهم المختلفة فقامت ألوف من الحكومات الصغيرة، كل منها مستقلة عن الأخرى فى الادارة والقضاء والحرب على الرغم من اعتراف الجميع نظريا

بسيادة الملك أو الامبراطور. ولم تسلم الكنيسة نفسها من نظام الاقطاع، بل اضطرت الكنائس والاديرة كما اضطرت القرى والمدن الى الاحتماء باقوى الاشراف المجاورين لها. وبذلك صار الاساقفة ورؤساء الاديرة تابعين لاولئك الاشراف من جهة، ومن جهة اخرى قسم الاساقفة ورؤساء الاديرة ارض الكنيسة الى إقطاعات منحوها اناساً اصبحو اتباعاً لهم



حصن أقطاعى

وقد اضطر كل مجتمع صغير أن يعتمد على نفسه فى انتاج كل ما تدعو الحاجة اليه إذ لم يكن فى استطاعته أن يعتمد على إنتاج الآخرين بسبب الحروب التى كثيراً ما كانت تشجر بينه وبين جيرانه وبسبب الفوضى العامة وسوء طرق المواصلات

رقيق الارض

وكان يقوم بالانتاج من زراعة وصناعة عدد عظيم من طبقة تعرف فى النظام الاقطاعى بطبقة رقيق الاراضى، وأصل هذه الطبقة من نسل الارقاء الباقين من عهد الدولة الرومانية ومن الاحرار الذين أصبحوا

لا يملكون أرضاً فاستخدمهم الملاك فى حراثة الارض . وبتوالى الأجيال التصقوا بها بحيث اذا انتقلت ملكيتها من سيد إلى آخر بقوا عليها

وكان السيد يمنح الرقيق قطعة من الأرض يزرعها لنفسه خاصة نظير جزء من المحصول يقدمه لسيده ، ونظير انقطاعه للعمل فى أرضه أياماً مقررة من كل أسبوع ، ولم يكن للرقيق أن يغادر أرض سيده ولا أن يزوج أولاده بغير اذنه . وقد يتخلص من الرق مقابل مبلغ يتفق مع السيد على دفعه وقد رغب بعض السادة فى جمع المال بهذه الوسيلة خصوصاً عند ما أرادوا القيام بالحروب الصليبية

الفوضى فى عهد الاقطاع

قد يتسرب الى الذهن ان الإقطاع أوجد الأمن فى البلاد وصان مصالح الناس بالدقة ولكن الحقيقة غير ذلك فقد ظلت المنازعات والحروب سائدة وكثيراً ما كان التابع يحنث فى يمينه وينتهز أول فرصة لينقلب على سيده متى آنس منه ضعفاً ، ولا سيما اذا كان السيد قاصراً أو امرأة ، فلم تكد تفتر الحروب بين السادة المتجاورين وبين كل سيد وأتباعه وبين الاتباع فيما بينهم . وليس ذلك بعجيب من قوم شغفوا بالحرب والفروسية الى حد أنهم كانوا اذ أعوزتهم الحروب عمدوا الى التسلى باقامة حفلات حربية يدعى اليها الفرسان من بلاد قاصية يتبارون بالرماح والسيوف حتى تسيل الدماء فى هذه الالعاب

وبقى الاشراف عاكفين على هذه المنازعات حتى سئمت الكنيسة هدر الدماء وارادت أن تخفف من ويلات الحرب فأعلنت الأشراف والفرسان أن يكفوا عن القتال ثلاثة أيام من كل أسبوع وهددت

بالحرمان كل من يخالف هذه « الهدنة الربانية » ثم انتهزت قيام الحروب الصليبية فحولت الحماسة الحربية نحو الشرق



المبارزة في العصر الوسيط

ومن مساوىء الإقطاع أنه حال دون تكوين ممالك متحدة فقد كان فى فرنسا مثلاً أكثر من مائة قسم من إمارة كبيرة تكاد تكون دولة مستقلة ، الى قطيعة لا تتجاوز بضعة افدنه ، وكذلك الشأن فى بقية ممالك أوروبا . وعلى الرغم من اعتراف الامراء بسيادة الملك أو الأمبراطور اسماً كانوا لا يترددون فى الاستفادة من ضعفه وشن الغارة عليه فى كل فرصة

وسهّل عليهم ذلك ان الاتباع كانوا يقسمون يمين الولاء والاخلاص لسيدهم المباشر دون الملك ، فكانوا فى حل من القتال تحت لواء سيدهم ولو ضد الملك . ولا ننسى انه لم يكن للملك فى عهد الإقطاع جيش دائم

كالجيوش الحالية بل كان يعتمد أولاً على الفرسان المقيمين فى قطيعته الخاصة وثانياً على الفئات التى يمده بها أمراء البلاد ، وكان نظام الإقطاع يقضى على كل أمير أن يقدم للملك عند الحرب عدداً معيناً من الفرسان مزوداً بالخيل والسلاح والمؤن فكان الجيش العام عبارة عن وحدات متباينة تحت قيادة رؤساء مختلفين

ومن المساوىء أيضاً انقسام الشعب الى طبقات عدة لكل طبقة مصالح واغراض خاصة تعمل على الوصول اليها بالجور على حقوق الطبقات الأخرى وأهم هذه الطبقات الاشراف والفرسان والرقيق

العوامل التى أضعفت الاقطاع : —

الملك والشعب

إن الأشراف هم وحدهم الذين استفادوا فى عهد الاقطاع إذ تسرب الى أيديهم الشطر الأعظم من سلطة الملوك ، فأضحى هؤلاء لا يكادون يتمتعون بأكثر من لقب الملكية فأخذوا يتحينون الفرص للقضاء على نفوذ الأشراف واسترجاع ما كان لهم من القوة فاستمالوا العامة الذين كانوا يألمون من الفوضى والظلم المقترن بالنظام الاقطاعى والذى حال دون استتباب الامن اللازم لتنمية الصناعة والتجارة ، وبذلك اتحدت مصالح الملك والشعب فعملوا معاً على التخلص من نفوذ عدوهم المشترك . رغم أنه فى بعض الممالك بقيت للاشراف املاكهم والقابهم ، ولا سيما بعد ان صار الملك يختار مستشاريه وموظفيه من بينهم

الحروب الصليبية

لما قامت الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر كان الأشراف والفرسان أول من لبى نداء البابا، وخرج منهم عدد كبير الى

الشرق قتل أكثرهم وأقام آخرون فى الاراضي المقدسة ، فقلّ بذلك عدد الأشراف فى أوربا . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان إعداد الحملات الصليبية اضطرهم الى بيع أملاكهم كلها أو بعضها كما اضطرهم الى تحرير ارقائهم مقابل مبالغ أداها اليهم الارقاء . وقد أقام هؤلاء العتقى فى المدن واشتغلوا بالصناعة والتجارة فزادت اهمية المدن وقويت الطبقة الوسطى واستطاعت المدن بفضل جدها وثروتها أن تشترى هى أيضاً حريتها من الأشراف ذوى السيادة عليها ، وتكتفى بحماية الملك أو الامبراطور

ظهور المدن

كان امراء الإقطاع يعتمدون على مناعة حصونهم ودروع فرسانهم فلما اخترع البارود واستعمل فى أوروبا فى القرن الرابع عشر وسلح به الملك رجالة من عامة الشعب لم تعد للحصون والدروع حصانتها الاولى فضعفت قوة الامراء وزاد سلطان الملك .

اختراع البارود

أما أهم محاسن الاقطاع فانه صان أوربا من هجوم القبائل المتبربرة التى كانت تهددها ، فقد أوقف زحف الصقلب والمجر من جهة الشرق ، وقاوم غزو أهل الشمال من نرمنديين ودانمرقيين ، كما قاوم أمراء الاقطاع فى جنوب فرنسا وفى ايطاليا محاولة عرب المغرب فتح هذه البلاد

محاسن الاقطاع

ولما طال استقلال الامراء فى اقطاعياتهم تولد فيهم روح الحرية وصعبت عليهم الاستكانة لظلم الملوك الغاشمين وسترى الأشراف فى انجلترا يوقفون الملك يوحنا عند حده ويجبرونه سنة ١٢١٥ على ان يمنحهم « العهد الاعظم » الذى كان اساساً لحرية الشعب الانجليزى

الفروسية

وربما كان أهم ما خلفه العهد الاقطاعى ظهور الفروسية التى تنطوى على مبادئ انكار الذات وأيثار الغير والمروءة والشهامة ونصرة الضعيف واحترام المرأة

كان العرب يعتمدون على الخيل فى حروبهم فلما قابلهم «شارل مرتل» فى موقعة «تور» سنة ٧٣٢ أعجب بما للخيل من الصفات الحربية فكون فرقاً من الفرسان على النسق العربى ومن ثم انتشر النظام فى كل أوربا.

وكان الفرسان يلبسون دروعاً ثقيلة من المعادن المختلفة لوقاية اجسامهم ويحاربون بالرماح والسيوف

فارس فى القرن الخامس عشر

نشأة الفارس

وكان ابناء الاشراف ينضمون من سن السابعة الى فارس مشهور ينشأون معه ويقومون بخدمته ويتعلمون منه ضروب القتال وآداب المائدة والحديث والاستقبال ويصحبونه فى الصيد والحرب. وفى سن الحادية والعشرين يحتفل بتلقيب الشاب فارساً ، وكانت الحفلة بسيطة فى أول أمرها ولكنها صارت دينية فاصبح الشاب يقضى ليلة الحفلة فى العبادة ليباركه القسيس ، فاذا أصبح حضر الصلاة ثم تقدم سيده فضرب كتفه بعرض السيف قائلاً

« قم فانت فارس » ويلقنه واجبات الفارس ويقسم الشاب أن يكون خادماً للكنيسة حامياً للمظلوم والضعيف عفوفاً طاهر الذيل كريماً محافظاً على مواعيده مضحياً كل شيء لاجل دينه ووطنه وصحبه

ومن هذا يتضح ان الفروسية كان لها مظهران، مظهر حربي تولد من نظام الاقطاع، ومظهر إنسانى جاء عن طريق الكنيسة . وكان يرجى من عهد الفروسية أن يخدم المجتمع فى عصر كثرت حروبه وانحطت فيه الأخلاق لولا أن الفروسية كانت ارستقراطية قبل كل شيء فلم يستفد عامة الشعب منها كثيراً

ظهور قوة الكنيسة والبابوية

مصادر قوة الكنيسة : قوة الايمان

إن أول مصدر لقوة الكنيسة جاء من اعتقاد الناس بأنها هى الواسطة فى غفران الذنوب، والواسطة فى دخول الجنة ، وقد كان الاهتمام بشؤون الحياة الأخرى شغلهم الشاغل . ومن شدة خوف الناس من عقاب الآخرة كانوا يعكفون فى بيوتهم ، ويكرسون حياتهم لعبادة الله يعذبون أنفسهم فى هذه الحياة كيما يخف عقابهم فى الآخرة . ولما كان رضاء الكنيسة ضرورياً لغفران الذنوب وكان غضبها مما يؤدى الى غضب الله ودخول النار ، أصبح للكنيسة سلطان قوى على الجميع

استقلال الكنيسة

المصدر الثانى لقوة الكنيسة هو استقلالها إذ بقيت الكنيسة تحت حكم الامبراطورية الرومانية حين كانت قوية ، فلما ضعفت الحكومة المركزية ودخل البرابرة الأقاليم الرومانية أخذت الكنيسة تتخلص تدرجياً من تدخل الحكومة فى شئونها ورقابتها عليها ، وجاهر أحد

أساقفة رومة فى القرن الخامس « بأن العالم تحكمه قوتان : قوة الكنيسة وقوة الملك والاولى متفوقة على الثانية لأن الكنيسة مسئولة أمام الله عن أعمال الجميع حتى الملوك أنفسهم »

ظهور البابوية

ليس فى قرارات مجلس « نيقية » ولا فى قوانين « ثيودسيوس » ما يفسر أن لرومة أو لأسقفها أو لكنيستها سيادة فى أوربا غير أن الناس كانوا يعتقدون أن كنيسة رومة أسسها الرسول بطرس ، صاحب المنزلة الأولى فى نظر المسيح عليه السلام والمسيحيين ولذلك اعتبرت الأولى بين الكنائس فى الغرب إذ ليس من بينها من تستطيع أن تفاخر بأن مؤسسها رسول . وساعد على ذلك أن رومة كانت سيدة العالم وعاصمة الامبراطورية ، فاعتبر أسقفها أول الأساقفة

البابا ليو الأكبر

ولما صار ليو الأكبر Leo (٤٤٠ — ٤٦١) أسقفاً لرومة وكان رجلا عالى الهمة شجاعاً كبير الآمال والأطماع ، وضع أساساً لقوة البابوية بان حث فالنتين الثالث Valentine III أمبراطور الغرب أن يصدر سنة ٤٤٥ منشوراً يعلن فيه أن أسقف رومة متفوق على جميع أساقفة الغرب وأنه يعتبر المرجع الأعلى لهم جميعاً ،وحتم على الاساقفة اتباع أسقف رومة فى كل ما يقرره وهدد كل من يخالف ذلك ببطش الحكومة وقوتها . وتعتبر مساعى « ليو » الخطوة الأولى فى تفوق البابا فى غرب أوربا ، فلما سقطت الامبراطورية الغربية أصبح أسقف رومة بطبيعة الحال الوارث للأمبراطورية واعتبره الجميع زعيما وممثلا

لهم أمام قواد البرابرة وأخذ الأسقف يباشر بعض أعمال الحكومة

البابا غريغورى الاكبر (٥٩٠ — ٦٠٤)

ويعتبر غريغورى أول من رفع منار البابوية بعد أن كانت مجرد أسقفية ، وذلك لما كان له من اليد الطولى فى ارسال القسس والرهبان ليبشروا بالدين بين الوثنيين ، واعادة المسيحية فى جنوب انجلترا بعد أن محاها السكسون الوثنيون

وزيادة على ذلك زادت قوة الكنيسة وثروتها واتسعت أملاكها فصرف غريغورى جزءاً من وقته فى إدارة « إرث الرسول بطرس » إدارة منطوية على الدقة والرحمة . وقد وجه التفاته أيضاً إلى ترتيب الطقوس الدينية والموسيقى والصلوات فى الكنيسة ، وبهذه الوسيلة اجتذبت الكنيسة غير المسيحيين اجتذابا لم يكن لها من قبل . ولم يكن عمله فقط هو الذى رفع اسمه بل شخصيته أيضاً ، فان الاحترام والتوقير الذى استحقه أدى إلى تسجيله قديساً بعد موته . ومن المؤكد أن الكنيسة لم تفقد الى الآن أثر الروح الذى بثه فيها غريغورى

أثر ظهور الاسلام

ولما ظهر الاسلام واستحوذ على أهم مراكز المسيحية فى الشرق خصوصاً الكنائس التى أسسها الرسل وهى بيت المقدس واسكندرية وانطاكية ، لم يعد ينافس رومة الا القسطنطينية . ولكن أسقف الأخيرة بقى تحت سلطة الامبراطور ، بينما كان أسقف رومة بعيداً عنه ومستقلا عن نفوذه

ثم ما لبث قرب الاسلام من الدولة الرومانية الشرقية ان أدى إلى

لزوم الاصلاح باخراج الصور والتماثيل المقدسة من الكنائس ، والامتناع من عبادة العذراء ، ووجوب تزوج القسس ، وانضم الامبراطور «ليو الثالث» إلى هذه الحركة فاثار سخط الكنائس الغربية وأعلن مجلس رومة سنة ٧٣٢ أن تحطيم هذه الصور زيغ ، وأصدر البابا قرار الحرمان ضد ليو ، واتسعت مسافة الخلف بين كنيسة رومة و كنيسة القسطنطينية . وزادت قوة رومة باعتمادها على تلك الدولة الفتية — دولة الفرنجة — ذلك الاعتماد الذى حدا بالبابا أن يتوج « بيپين » ملكا سنة ٧٥١ ، ثم شرلمان أمبراطوراً سنة ٨٠٠ كما تقدم

الرهبنة والاديرة

الرهبنة فكرة فلسفية قديمة كانت معروفة قبل المسيحية . اذ كثيراً ما كانت تنعزل عن العالم طوائف من الرجال وطوائف من النساء رجاء أن يعيشوا عيشة طاهرة

ابتداء الرهبنة

ابتدأت الرهبنة فى الشرق حيث نفر الرهبان زرافات الى صحراء مصر وغيرها ، ليعيشوا فى الكهوف والاكواخ الحقيرة وليقطعوا حياتهم في التعبد . ومن السابقين الى الرهبنة القديس «أنطنيوس» المصرى، وكان تقياً ورعاً حج الى بيت المقدس ثم باع أملاكه وتصدق بثمنها ولجأ الى الصحراء سنة ٢٥١ واقتدى به آخرون ، ومن ثم جعل الرهبان يجتمعون تحت سقف واحد فنشأت الاديرة ووضع كل دير نظاماً خاصاً به . ومن مصر انتقلت الرهبنة الى شمال افريقية وصقلية ومنها الى ايطاليا و بقية اوربا

القديس بندكت

وبقي نظام الاديرة غير مستقر حتى ظهر القديس «بندكت» (٤٨٠ — ٥٤٣) ووضع للاديرة نظاماً خاصاً مكنها من أن تقوم بدور جدى فى تاريخ أوروبا . وقد امتازت الاديرة التى اتبعت تعليماته

(١) بأن من كان يدخل الدير صار يقسم ويتعهد أن يعيش فقيراً أعزب وأن يطيع رئيسهُ مادام حياً

(٢) وبأن حياة الراهب صارت حياة كد وكدح متواصل فى الكنيسة والدير والحقل ، لكل ساعة من ساعات اليوم عمل خاص فجعلت الأديرة تقوم بالزراعة ورفعت من شأنها وضاعفت فى حاصلاتها، فضلا عن انها صارت معاهد للعلم

(٣) ولما كانت الرهبنة تفسر أحياناً بالعزلة قاوم « بندكت » هذه الفكرة أشد مقاومة فحتم على اتباعه أن يعيشوا معاً ويناموا معاً ويعملوا معاً ويقوموا بكل صغيرة وكبيرة — لا أفراداً — بل بهيئة مجتمع

(٤) وكان كل دير يقوم بجميع شئون نفسه ولا يخضع لأسقف ما سوى البابا شخصياً

(٥) وقد أغفل بندكت فى قبول الرهبان كل الفروق الاجتماعية والمالية والجنسية ، فظهرت المساواة والاخاء داخل الاديرة بين الرومانى والمتبربر والعبد والحر

وما جاء القرن العاشر حتى تطرق الضعف والفساد الى نظام الاديرة ولزم اصلاحها من جديد ،فنهض دير « كاونى Cluny » بفرنسا الذى تأسس سنة ٩١٠ ،ورأسه جماعة من أكفأ الرهبان،عرفوا بالصلاح والحزم والنشاط فغص الدير بالرهبان .وتفرع عنه عدة أديرة سارت على نسقه وأصبحت مبادىء دير « كلونى » سائدة فى اكثر الأديرة الاوربية .

وفى أوائل القرن الثالث عشر بدأت حركة رهبنة اخرى على يدى القديس « فرنسيس Francis »

ظهور الاخوان الفرنشسكان

نشأ فرنسيس فى أسرة غنية من مدينة « أسيسى » فى ايطاليا وقضى مدة صباه فى الترف واللهو حتى مرض وجعل يفكر فى الهوة التى تفصل الاغنياء والموسرين عن الفقراء والمعسرين ، فعطف قلبه على المرضى والمساكين ورغب فى مواساتهم وتخفيف آلامهم ، ولم يأبه بتهديد والده إياه بحرمانه من الميراث ان لم يترك صحبة هؤلاء البؤساء ، بل نزع ملابسه وارتدى ملابس الفقر وخرج يبشر بالانجيل فى وسط ايطاليا. وانضم اليه كثيرون

من أمثاله فأسس عهد «الاخوان الفرنشسكان» ونال موافقة البابا «أنسنت الثالث» سنة ١٢١٠ . وقد تشبه الفرنشسكان بالسيد المسيح عليه السلام فشرعوا يجوبون البلاد حفاة بملابس رثة ، يعيشون بكدهم متى وجدوا عملا ، فاذا أعوزهم العمل عاشوا على الصدقات ، مهمتهم العناية بالمرضى وزيارة المسجونين وتفريج كرب البائسين

ولم تمض سبع سنين حتى زاد اتباع فرنسيس فانتشروا فى جميع أنحاء أوربا يبشرون بالدين ويساعدون المحتاجين .

وقد خاف فرنسيس أن تتغير أخلاق الاخوان اذا هم قبلوا ما يعرض عليهم من الهبات ، فحتم عليهم أن يعيشوا فى هذه الدنيا غرباء لا يقتنون شيئاً ، مفضلين الفقر والتواضع فى خدمة ربهم.

ولم يكد فرنسيس يغادر الحياة سنة ١٢٢٦ حتى توالت على الأخوان الهبات وزاد إيرادهم ففسد نظامهم كما فسدت كل نظم الأديرة حين أغدقت عليها العطايا ، فزال عنهم الحماس الدينى والتقشف الذى صحبه



راهب فرنشسكان

ظهور الاخوان الدومنيكات

وبينما كان فرنسيس يكون جماعته قام القديس «دومنيك» بتكوين عهد آخر للرهبان الشحاذين ، وهو اللقب الذى أطلق على اتباع فرنسيس ودومنيك

ولد «دومنيك» باسبانيا سنة ١١٧٠ وكان على عكس فرنسيس مثقفاً بالتعليم الديني، تخرج في جامعة أسبانية ودخل في خدمة الكنيسة وذهب سنة ١٢٠٨ إلى جنوب فرنسا حيث روعه الحاد طائفة «الالبيجنس» فعزم على أن يكرس حياته لاقتلاع بذور الالحاد. وانضم اليه نفر قليل وطلبوا من البابا أن يعترف بعهدهم فاجابهم إلى ذلك بعد تردد يسير. وبدأ ينشر دعوته حتى استطاع أن يؤسس ستين ديراً قبل سنة ١٢٢٠. وقد سار الاخوان الدومنيكان سيرة الفرنشسكان في جوب البلاد والتزام الفقر، غير أن الدومنيكان كانوا علماء بامور الدين مهتمين باقناع الملحدين وهداية الضالّين وارجاعهم الى أحضان الكنيسة، ولهذا اعتمد عليهم البابا في تنظيم محاكم التفتيش

ويمتاز الرهبان الشحاذون عن سابقيهم بانهم لم يقضوا حياتهم في الاديرة، بل جابوا الآفاق واختلطوا بصنوف الناس رجاء أن يخلصوهم من غواية الشيطان، واعتبروا أنفسهم جند المسيح عليه السلام يأتمرون بأمر رئيس العهد كما يأتمر الجندي بأمر قائده

ولما أدرك البابا عظم الخدمات التي يؤديها الرهبان الشحاذون للكنيسة رفع من شأنهم وأباح لهم تأدية الواجبات الدينية التي كانت قاصرة على القسس، فنشأ العداء بين الطائفتين ـ الرهبان والقساوسة ـ وفاز الأولون ونالوا رضاء الخاصة والعامة. ولما كثرت الهبات على الدومنيكان أصابهم ما أصاب اخوانهم الفرنشسكان

أثر الاديرة

ولقد كان للأديرة أثر عظيم في المجتمع أهم عناصره ما يأتي:

(١) قامت الأديرة بانهاض الصناعة واصلاح كثير من الاراضي

التى لم تزرع من قبل ،وكانت مثلاً حسناً لمن حولها من الزراع والصناع

(٢) كانت الاديرة ملاجىء يأوى اليها المريض ،ويعول عليها ابن السبيل فى وقت لم تكن فيه المستشفيات والملاجىء معروفة

(٣) بينما العلوم تنحط فى كل مكان آخر حافظت الأديرة على جذوة العلم التى انتفع بها علماء النهضة الحديثة واحياء العلوم فيما بعد

(٤) وأهم من هذا كله الخدمات التى بها أيدت الاديرة نظام الكنيسة وأعلت سلطة البابا ، لانه رغم تشاحنها مع الاساقفة القريبين منها كانت دائماً تحض على طاعة رئيس الكنيسة كلها ،حتى ان كل تطور فى الرهبنة كان يصحبه تطور يماثله فى البابوية . وكان كل دير حصناً منيعاً ونقطة دفاع عن بابا رومة ،وسيفاً مسلولا على رقاب كل من جرؤ على مخالفته

الفصل السادس

ظهور الممالك الحديثة فى اوربا

١ — فرنسا

يبدأ تاريخ فرنسا من معاهدة «ڤردان» سنة ٨٤٣ حين صار القسم الواقع غربى الرين والرون مملكة مستقلة يحكمها «شارل» حفيد شرلمان وقد بقيت هذه البلاد عرضة لغارات العرب والنورمنديين مدة قرن من الزمان، وعجزت الحكومة عن صد هؤلاء المغيرين واستفحل الخطب أيما استفحال فصارت القوة الحقيقية بيد أمراء الاقطاع وكبار الملاك. أما الملوك فكادوا يكونون بلا مملكة ولا جند ولا ايراد اللهم الا ما سمح أتباعهم بتقديمه لهم

انتخاب اودو ملكا

وقد اشتدت غارات النورمنديين فى آواخر القرن التاسع حتى حاصروا باريس سنة ٨٨٥، ولم يجد الملك حيلة فى ردهم عنها، فانبرى (أودو Odo) كونت باريس للدفاع عنها، فرفع النورمنديون الحصار. ولم تمض ثلاث سنين حتى انتخب الاشراف «أودو» ملكا عليهم بعد أن عزلوا آخر ملك من أحفاد شرلمان. ولكن هذا الانتخاب لم يزد فى قوته كثيراً لتمسك كل شريف باستقلاله فى مقاطعته الخاصة، ولمنافسة بقايا أسرة شرلمان له ولمن خلفوه، ولاستمرار هجوم النورمنديين الى سنة ٩١١، حين اتفق الملك معهم أن يكفوا عن المشاغبة وأن يقيموا فى المقاطعة التى عرفت فيما بعد باسم نورمندية، فصاروا يحكمون هذه الجهة مستقلين فى الواقع، ولكنهم يعترفون

لملك فرنسا بنوع من السيادة الاسمية ، وقد اعتنقوا المسيحية بعد ذلك واندمجوا في الفرنجة وأصبحت بلادهم من أحسن وأرقى البلاد بأوربا

انتخاب هيو كابت

بقي الملوك يتمتعون بسيادة اسمية الى أن انتخب سنة ٩٨٧ «هيو كابت Hugh Capet »من أسرة اودو ملكا على فرنسا . ومن هذا الملك تناسل كل الملوك الذين حكموا فرنسا منذ ذلك الوقت . وكان «هيو» أميراً قويا استعمل هو وخلفاؤه هذه القوة لرفع شأن التاج الفرنسى حتى انتهى الأمر باخضاع جميع أمراء الاقطاع ، وصار الملوك يحكمون البلاد بلا منافس ولا يكادون يتقيدون بقيد ما

كان «هيو كابت» وقت انتخابه ملكا يحكم أرضاً بين نهرى السوم واللوار تشمل باريس وارليان وتعرف باسم «دوقية فرنسا ». وفيما عدا ذلك يحكم فى كل مقاطعة أمير مستقل يعترف للملك بشيء من الطاعة ويقدم له بعض الخدمات أحياناً . وقد قضى ملوك فرنسا ثلاثة قرون يوسعون ملكهم ويجورون على أملاك الامراء باشكال وطرق شتى ، الى أن صارت فرنسا كلها لهم ، وصار كل فرنسى رعية للملك ، وان بقى للاشراف كثير من الاملاك

فيليب الاول (١٠٦٠ — ١١٠٨)

هو أول ملك نرى فى عهده زيادة فى قوة التاج وما ذلك إلا لحادثين حصلا فى أيامه ساعدا على هذه الزيادة بطريق غير مباشر ، الاول ان «وليم دوق نورمنديه» ـ أقوى اتباع الملك ـ غزا انجلترا سنة ١٠٦٦ ـ وهزم «هرولد Harold »ملك الانجليز والسكسون فى واقعة «هيستنجس

« Hastings » وصار ملكا لانجلترا . وبالرغم من أن هذا الفتح ضاعف قوة وليم ، إلا أنه أبعده عن فرنسا التى صار لأحفاده فيها أملاك شاسعة استطاع الملوك الفرنسيون ضمها اليهم . والحادث الثانى انه عام ١٠٩٥ دعا البابا الى الحرب الصليبية الأولى فى « كليرمنت Clermont » وخرج الى الشرق كثير من أدواق فرنسا الاقوياء لم يرجع منهم إلا القليل وقل بذلك عدد المعارضين الملك

لويس السابع (١١٣٧ — ١١٨٠)

تزوج من « اليانور Eleanor » وارثة « أكتين » فأصبح من المحتمل اضافة هذه الدوقية العظيمة الى أملاك التاج الفرنسى ، ولكنهما لم يتفقا ، فطلقها لويس بدعوى أن قرابتها منه تحرمها عليه . ولسوء حظ فرنسا أن تزوجت « اليانور » من « هنرى الثانى » ملك انجلترا فصار له فى فرنسا « نورمنديه » و « انجو » و « أكتين » ومجموعها أكبر من أملاك التاج الفرنسى .

ظهور الطبقة الوسطى

ولكن لويس نجح فى سياسته الداخلية ، وأهم شىء فى حكمه تحسين الادارة فى دوقية فرنسا ، وحصر السلطة فى يد الملك ، والتفاف رجال — لا من الاشراف فحسب — بل من رجال الدين والمحامين حوله ، يخلصون كلهم فى خدمته ، وبهذا قويت الطبقة الوسطى التى صارت أقوى معاضد للملوك

فليب اغسطس Philip Augustus (١١٨٠ — ١٢٢٣)

هو أول ملك سعى فى تحويل دوقية فرنسا الى مملكة فرنسا ، وذلك ان تابعه « هنرى الثانى » ملك انجلترا ، نال بفضل المصاهرات أملاكا

فى فرنسا أكثر وأغنى مما يملكه فليب نفسه . وورث هذه الاملاك ابنا هنرى «رتشارد» ثم «جون». وكان جون هذا ملكا ضعيفا غبيا، اقترف كثيراً من السيئات فدعاه ملك فرنسا ليحاسبه على خطئه، فأبى الحضور أمام متبوعه ، فعاقبه هذا بمصادرة أملاكه الفرنسية ما عدا أكتين ، فانضم جون الى الامبراطور « أتو الرابع » وساعدت الكنيسة فليب فانتصر على أعدائه فى موقعة « بوڤين Bouvines » سنة ١٢١٤ وهى موقعة من أهم المواقع فى التاريخ الاوربى ، بها أحرز التاج الفرنسي نورمنديه وانجو ، ثم صار للملك أراض أخرى واسعة حصل عليها بانتصاراته، فأضحى ملك فرنسا أكبر أمير فيها لأول مرة ، وأضحى فى وسعه أن يناضل بقية الامراء

موقعة بوفين

لم ينس فليب أثناء توسيع أملاكه أن يدخل اصلاحات مهمة سيكون لها شأن كبير فى المستقبل، فحافظ على حسن الرابطة بين التاج والكنيسة رغم الاختلاف فى بعض الاحيان ، وثابر على سياسة جمع الطبقة الوسطى حول الملك، بأن سمح للمدن بشطر من الحكومة الذاتية وكون مدناً جديدة ، وشجع التجارة. فصارت باريس أعظم مدن فرنسا وزادت مساحتها وثروتها وأهميتها زيادة كبيرة فى عهده

اصلاحات فليب

وفوق هذا ، أوجد حكومة نظامية ومالية ثابتة وجيشاً قوياً . أما الموظفون فاختارهم فليب من الطبقة الوسطي - دون الاشراف - وجعلهم متوقفين عليه في كل شيء . وأهم الموظفين هم النواب الذين كانوا يمثلون الملك فى الجهات المختلفة ويحافظون على حقوقه ونفوذه ، ويراقبون محاكم الاشراف ويقيمون ميزان العدل فى البلاد . وهم يشبهون رسل شرلمان

Missi Dominici . وأما الخزانة فملأها فليب بفضل اتساع ملكه وبأخذه نقوداً من أتباعه بدل الخدمات الاقطاعية التي كانوا يقومون بها ، وبحماية اليهود نظير هبات مالية يقدمونها له . وأما الجيش فلم يقنع فليب بالوحدات الاقطاعية التي كان يرسلها اتباعه، بل أنشأ جيشاً من رجال يختارهم هو ويدفع مرتباتهم ، فيخلصون في خدمته

لويس التاسع (١٢٢٦ — ١٢٧٠)

صلاحه

كان هذا الملك قديساً مخلصاً لا يقل من هذه الناحية عن القديس فرنسيس ، رغم أن أحدهما كان أقوى ملك في أوربا بينما عاهد الآخر نفسه أن يعيش فقيراً . كان لويس تقياً متقشفاً متواضعاً يخالط الفقراء ويعطف عليهم . وكان مع هذا حلو الشمائل دائم السرور محبوباً لدى رعيته



قصر لويس التاسع على السين

وسائر المسيحيين ، حتى كانت الدول الاوربية ترجع اليه للفصل في مشاكلها الخاصة

ولم يحل صلاح لويس دون تمسكه بكل حقوقه إزاء الاشراف، بل

أزاء الكنيسة والبابوية. فقد أكد للاشراف أنه لن ينقص من امتيازاتهم، فلما ثاروا عليه سنة ١٢٤٢، قضى عليهم بكل حزم وبأس حتى لم يعد يخشى على التاج منهم. وحتم عليهم بعد ذلك أن يتعاملوا بالنقود التى يضربها الملك وأن يسمحوا لنائبه بحضور جلسات محاكمهم. كذلك لم يحل صلاح لويس دون تمسكه بحقوقه أمام البابوية نفسها، فلم يسمح لها بالتعدى على الحقوق التى كسبتها الكنيسة الفرنسية من قبل.

تمسكه بحقوقه أزاء الاشراف والبابوية

وفى أواخر حكمه صار أخوه «شارل دوق انجو» ملكا على صقلية ونابلى، وزاد هذا فى عظمة الاسرة المالكة فى فرنسا. وقد قام لويس بحملتين صليبيتين سيأتى الكلام عليهما فيما بعد

تقسيم مجلس الملك

أما أعظم أعماله أثراً، فهو ابتداء توزيع أعمال الحكومة وتقسيم مجلس الملك العام الى ثلاثة أقسام أو ظهوره بثلاثة مظاهر مختلفة: — قسم يعني بالامور الخارجية خاصة والسياسية عامة، وقسم ينظر فى المسائل المالية ويشمل أعضاء المجلس الذين لهم خبرة أو ميل الى هذا العمل، وقسم يقوم بالقضاء ويحضره الاعضاء العارفون بالقوانين

البرلمان

واشتهر هذا القسم الاخير باسم «البرلمان Parlement»، ولكنه لم يكن كبرلمان انجلترا يؤدى وظيفة التشريع، بل كان محكمة عليا تستأنف اليها القضايا المهمة. وقد نشط البرلمان ووسع اختصاصه وحرم محاكم الاشراف من بعض القضايا التى كانت تقدم اليها سابقاً، فصار بذلك دعامة من أكبر الدعائم التى عليها شيدت قوة الملكية

وفى حكم لويس صارت ممتلكات التاج تمتد بدون فاصل من بحر الشمال الى البحر الابيض المتوسط

فليب الرابع (١٢٨٥ — ١٣١٤)

حاجة فليب الى المال

كان فليب ملكاً قوياً جريئاً ، اتسع فى عهده ميدان أعمال الحكومة وزاد موظفوها فاحتاج الى المال وسعى الى تحصيله بكل وسيلة. وساعده فى هذا وغيره موظفون اختارهم من الطبقة الوسطى ممن تشبعوا بروح القانون الرومانى وما ينطوى عليه من تعظيم شأن الملك واطلاق يده فى جميع أمور الدولة . ويمكن اعتبار حاجة فليب الى المال مفتاحاً لسياسته، فانها جرته الى محاربة فلندره والشحناء مع البابويه

حرب فلندره

وكانت فلندره من أهم الاقطاعات التابعة لفرنسا . وقد نشأت بها مدن صناعية تجارية زادت ثروتها بصناعة الصوف وغيره من المنسوجات، فأراد فليب أن يستولى عليها لتدر عليه خيراتها . فتغلب على الامير وحكمها سنتين، الا أن الاهالي ساءهم استبداد الملك بالسلطة ، ولم يكونوا تعودوا الخضوع المطلق ، فثاروا على الفرنسيين وانتصروا عليهم فى موقعة « كرتراى Courtrai » سنة ١٣٠٢ ، فاضطر فليب أن يقنع باضافة جزء يسير من فلندره الى ملك التاج

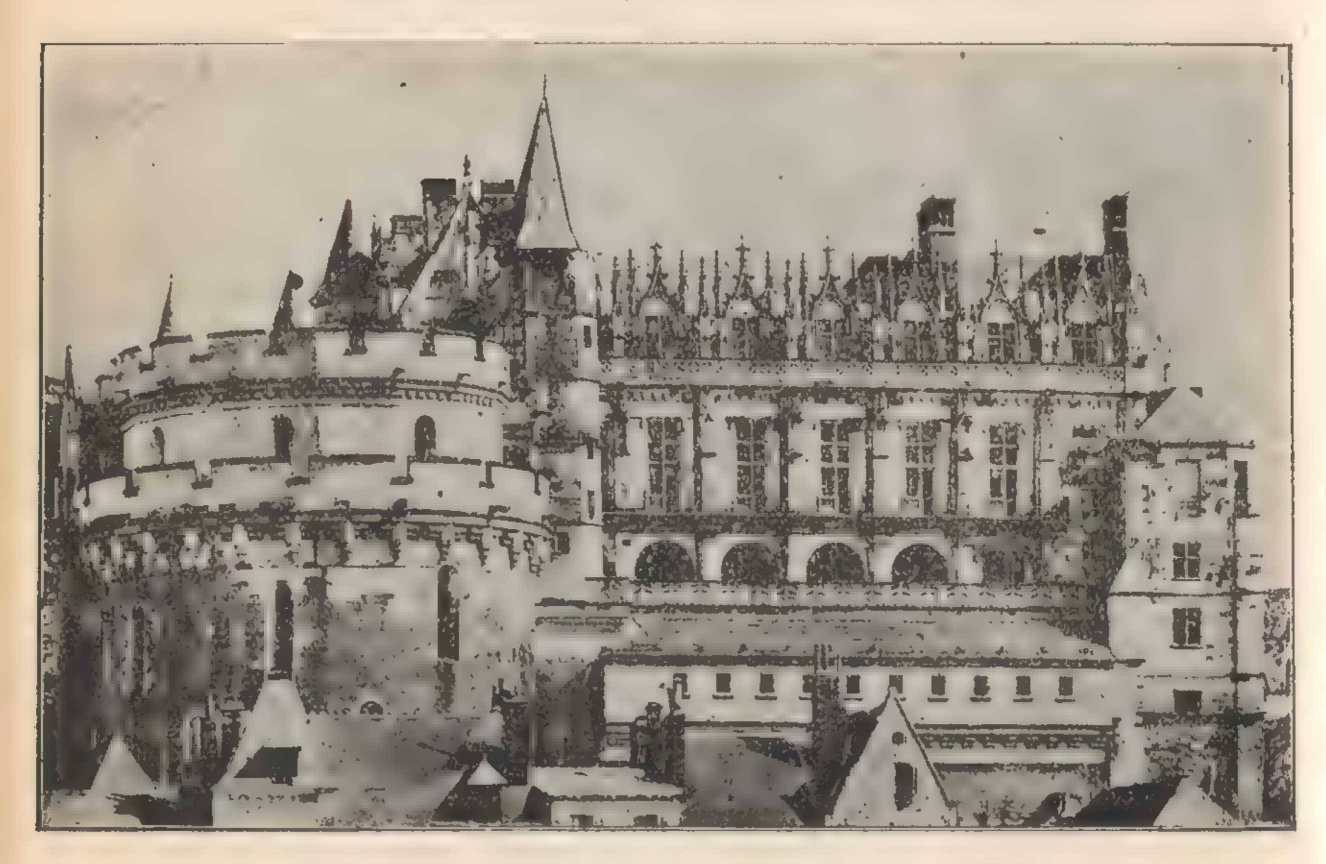
تشاحن فليب والبابوية

وأراد فليب سنة ١٢٩٩ أن يزيد موارد خزانته، ففرض ضرائب على رجال الدين أسوة بغيرهم من رعاياه ، فأصدر البابا قراراً حرم فيه على رجال الدين دفع هذه الضرائب، فانتقم الملك بمنع انتقال الذهب من فرنسا الى ايطاليا ، فخسرت البابوية كل ما كانت تجبيه من الكنائس الفرنسية واضطر البابا أن يعدل عن خطته وأن يصالح فليب

تحسين القضاء

وكان فليب مولعاً بتقليد « جستنيان » وباستبدال طرق التقاضى

الاقطاعية بطريقة التحقيق وإقامة الأدلة ، وقد جد قضاة البرلمان فى رفع ملكهم الى مستوى الامبراطور الرومانى وجعله صاحب النفوذ المطلق ، فأصبحت كل القضايا العادية التى تحدث فى ممتلكات التاج تعرض على البرلمان ، وكثر الاستئناف اليه حتى أثقل كاهله فتضاعفت سلطة الملك فى القضاء ، وتفوقت محاكمه على محاكم الامراء



قصر امبواز من عهد شارل الثامن

مجلس طبقات الامة

ولم يكن مجلس الأمة إلى ذلك الوقت جزءاً مهماً فى الحكومة ، واقتصر حضوره على كبار الأشراف والأساقفة ورؤساء الأديرة ، فلما شجر الخلاف بين فليب والبابا ، أراد أن يتأكد أن الأمة فى جانبه ، فدعا المجلس للانعقاد سنة ١٣٠٢ وطلب إلى كل مدينة أن ترسل لحضوره مندوبين أو ثلاثة « ليسمعوا ما يقول الملك ويوافقوا عليه وينفذوا ما يأمرهم به » فقرر

المجلس موافقته على خطة الملك ، ثم عقده فليب عدة مرات على هذه الصورة فاصبح يعرف « بمجلس طبقات الامة Etats Généraux » الاشراف والكنيسة والشعب المسمى الطبقة الثالثة

وبهذه الوسائل تمكن ملوك فرنسا من توطيد قوتهم ونشر نفوذهم واخضاع منافسيهم وجمع الشعب حولهم ، والاستئثار بكل السلطة فى البلاد

انجلترا

من عهد سحيق انتقل قوم من الجنس الكلتى من سكان مقاطعة « برطانيه » فى شمال غربى فرنسا الى الجزيرة المواجهة لهم وسموها « بريطانيا » باسم بلادهم الاصلية ، ومنها نزلوا ايرلنده . وقد بقى هؤلاء الاقوام أصحاب الشأن فى البلاد محافظين على العادات الكلتية التى سبق ذكرها ، إلى أن دخلوا ضمن الامبراطورية الرومانية فى عهد الامبراطور « كلوديوس Claudius » وبقوا خاضعين لها حتى أخذت الدولة فى الضعف واضطرت نحو سنة ٤١٠ م . إلى سحب حامياتها من هذه الجهات النائية لتحمى وطنها الاصلى من غارة « المتبربرين » ، فترك الرومان بريطانيا بعد أن نسى أهلها صفاتهم الحربية الاولى وأصبحوا غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم . فلما أغارت عليهم قبائل « الانجليز » و « السكسون » و « الجوت » — الذين جاؤا من المانيا أثناء القرنين الخامس والسادس عقب سقوط الدولة الرومانية الغربية — سهل عليهم التغلب على البريطانيين الذين احتموا بالمستنقعات والجبال الغربية ، وأصبحت البلاد تعرف باسم « انجلند » أى أرض الانجليز . ولذا يحسن التكلم عن هؤلاء المغيرين باسم الانجليز

نزول الانجليز والسكسون

تحولهم الى المسيحية

كان الانجليز وثنيين عند ما هاجموا بريطانيا فأولعوا بنهب الاديرة والكنائس، ولكن البابا « غريغورى الاكبر » أرسل اليهم الراهب « أغسطين » سنة ٥٩٧ م ، فانتشرت المسيحية بين الانجليز أنفسهم وارتبطوا من ذلك العهد باسقفية رومة

تغلب وسكس

أما من الوجهة السياسية فقد أنشأوا ممالك صغيرة متنافرة ما زالت فى نزاع وشحناء، حتى تغلبت «وسكس» (أى مملكة السكسون الغربيين) على جميع الانجليز سنة ٨٢٥ ، فأصبح « أجبرت Egbert » ملكا على جميع انجلترا وأدخل بعض اصلاحات نقلها عن شرلمان الذى كان يعرفه شخصياً.

ولكن عهد السكينة لم يطل ، اذ أن « أهل الشمال Northmen » الذين رأيناهم يغيرون على أمبراطورية شرلمان وغيرها — أخذوا يغيرون على انجلترا أيضاً ، ولا سيما الشواطىء الشرقية التى أصبحت عرضة لهجوم جماعات من الدانمرقيين . واستمر الكفاح بين الطرفين الى أن ظهر فى وسكس ملكها « الفرد الاكبر Alfred » (٨٧١ — ٩٠١) فقاوم الاعداء مقاومة عنيفة حتى اضطرهم فى النهاية أن يعاهدوه فى « ودمور Wedmore » سنة ٨٧٨ على الانسحاب من جنوب انجلترا والاكتفاء بنصفها الشمالي الشرقى ، وأن يعتنق ملكهم الدين المسيحى .

الفرد الاكبر

اصلاحاته

وبعد هذا ،أصلح « الفرد » حال الجيش والاسطول استعداداً للطوارىء، ووضع نظاماً لرفع مستوى التعليم بين رجال الدين، وشجع المكتشفين واهتم بالعلوم والآداب وأمر بترجمة كتب الاقدمين الى الانجليزية السكسونية فارتقت هذه اللغة ، وبدأ فى عهده السجل

الانجليزى السكسونى «The Anglo—Saxon Chronicle» وهو أهم المستندات التاريخية عن انجلترا من الازمنة القديمة الى سنة ١١٥٤

ولما مات « الفرد » قام خلفاؤه بتقوية وسكس وإضعاف الدانمرقيين مدة قرن من الزمان، حتى بلغت هذه المملكة الصغيرة شأوا عظيما فى عهد « ادجار Edgar » (٩٥٩ — ٩٧٥) بفضل مساعدة الكنيسة. ولكنها بدأت تنحط قوتها بينما زادت قوة أعدائها بانضمام النرويج والدانمرقة تحت حكم ملك واحد وهو « كانوت Canute » الذى استطاع أن يحكم انجلترا أيضاً سنة ١٠١٧ ،فسار بالعدل والرحمة ولم يغير كثيراً في نظم البلاد بل أناب عنه حاكما من أهلها فى كل قسم من الاقسام الاربعة الكبرى

ادجار

ولم يطل عمر دولة كانوت بل تفرقت بعد موته وأصبح « ادوارد الملقب بالتقى Edward The Confessor » ملكا فى وسكس وكانت حكومته ضعيفة فعظم أمراء الاقطاع .ولما مات سنة ١٠٦٦ دون أن يترك ولداً ،ادعى الملك رجال كثيرون منهم وليم دوق نورمندية الذى عبر « المانش» وقابل «هرولد Harold »الملك الذى انتخبته وسكس وهزمه فى موقعة « هيستنجس Hastings » سنة ١٠٦٦ وعرف باسم «وليم الفاتح» ثم توج ملكا على انجلترا

وليم الفاتح

حكم النورمنديين والانجفن

أراد وليم من أول الامر أن يكسر شوكة أتباعه فى ملكه الجديد وان يحول دون تقوية نظام الاقطاع فى انجلترا ، فكان يمنح كل تابع

مقاومة الاقطاع

مساحات صغيرة فى أقاليم متباعده حتى لا يستطيع ضم شمل أعوانه لمناوأة الملك، وأقام الحصون فى الجهات المختلفة ليشرف منها عليهم، وعلى الثورات التى ينتظر أن يقوم بها الاشراف .

ثم طعن الاقطاع طعنة نجلاء . اذ كان المعروف فى أوربا أنه اذا حدثت حرب بين الملك والشريف وجب على اتباع الشريف أن يحاربوا تحت لواء سيدهم ضد الملك ، ولمنع هذا الخطر العظيم جمع وليم كل ملاك الأراضى من جميع الطبقات سواء أكانوا تابعين له مباشرة أم للبارونات ، فركعوا أمامه واقسموا يمين الطاعة والاخلاص وأن يكونوا فى صف الملك اذا حصل نزاع بينه وبين أحد الأشراف . واستعان وليم بالبابا الذى شجعه على هذا الفتح وسمح للكنيسة أن يكون لها محاكم منفصلة فى انجلترا فعمل رجال الدين على تأييد العرش

الاحصاء

وقد أمر وليم بمسح جميع الاراضى واحصاء كل السكان والممتلكات والمواشى ، وأسس حكومة مركزية قوية أدت الى امتزاج النورمنديين بالانجليز واختلطت عادات الجانبين ولغتهما ونظمهما وصارت اللغة الفرنسية لغة البلاط والطبقات العليا. وكان من نتائج الفتح ان اتصلت انجلترا ثانية بأوربا فنشطت الحركة التجارية واشتبكت هذه المملكة فى السياسة الأوروبية العامة ، خصوصاً لما زادت الممتلكات الفرنسية فى يد ملك انجلترا وتطلع ملوك فرنسا الى طردهم منها كما تقدم

اتصال انجلترا بأوربا

هنرى الثانى (١١٥٤ — ١١٨٩)

جمع السلطة

هو أول ملوك أسرة «انجو أو البلانتجنت» وقد سبق الكلام على

ممتلكاته الواسعة فى فرنسا، أما أهم أعماله فى انجلترا فيفضلها جميعاً تقويته الحكومة الى حد لم يعرف فى العصور الوسطى ونشأ عن ذلك اتحاد الشعب ونمو البرلمان وقد بدأ يهدم الحصون التى بناها البارونات حديثاً، واسترجع كثيراً من الأراضى التى منحوها سابقاً فلم يستطع أحد منهم أن يعصى له أمراً . وقد مهد لسيادة الملكية بتحسين القضاء والادارة فكون محكمة الملك ، وجعل قضاتها يجوبون البلاد ويحضرون المحاكم المحلية فأصبحت كل القضايا المهمة فى يد قضاة الملك ، ولا يخفى أن القضاء فى العصور الوسطى كان مورداً مهما من موارد الحكومة

القضاء

وكان يساعد القضاة المتجولين اعيان البلاد الذين كانوا يقدمون اسماء المجرمين لينالوا جزاءهم . ومن هذا الأصل نبتت فكرة وجود « محلفين » وجرت العادة أن يكون عددهم أثنى عشر يحضرون المحاكم ويقررون أن المتهم مدين أو برىء

أصل المحلفين

ولما كان هنرى لا يعول على الوحدات الاقطاعية فى الحرب اهمل طلبها وفرض بدل الخدمة العسكرية ضريبة خاصة تعينه على إيجاد جيش تحت أمره مباشرة ، وأمهر من جيوش الاقطاع

الجيش

ونجم عن هذه الاعمال أن تيقن البارونات أن لا سبيل الى استقلالهم عن الملك ، فلجئوا الى التقوّى عليه بالانضمام الى الشعب وبدأت تنمحى الفروق اللغوية والجنسية بين الانجليز والنورمنديين ، وكون الأشراف مع عامة الشعب ذلك الاتحاد الذى ستظهر نتائجه الخطيرة أيام الملوك الضعاف

اتحاد الشعب

وقد تولى بعد هنرى ابنه « رتشارد » (١١٨٩ — ١١٩٩) المشهور

رتشارد قلب الاسد

« بقلب الأسد » الذى قضى اكثر أيام حكمه فى الحروب الصليبية واشتهر بالشجاعة والكرم والشعر ، ولكن انجلترا لم تستفد إلا استنزاف ثروتها فى حروبه وافتدائه من الأسر

وتولى بعده أخوه « جون John » وكان ضعيفاً سيء التصرف ميالاً إلى الظلم والغدر، جلب على نفسه سخط رعيته من أول الامر، وزاد السخط لما عجز عن حماية أملاكه فى فرنسا فضاعت نورمندية ثم لحق بها غيرها سنة ١٢١٤ عقب موقعة « بوفين » التى أوقعها به فليب أغسطس قرب « ليل » ، فاستاء بعض الاشراف لما فقدوا ما كان لهم من الأملاك فى فرنسا واستاء الشعب لما حل به من العار، واحسّوا أن « جون » لا تصعب الثورة فى وجهه . وشجعهم على ذلك وجود خلاف بين الملك والبابا على تعيين رئيس أساقفة انجلترا ، أدى الى اصدار قرار الحرمان ضد المملكة كلها ، وحض البابا ملك فرنسا على غزو انجلترا فاضطر الملك « جون » الى الخضوع الى حد أنه قبل أن يحكم البلاد كتابع للبابا وأقسم يمين الولاء على ذلك

سخط الشعب

وبلغ استياء الشعب أشده سنة ١٢١٥ ، فثار الأشراف وضموا اليهم رجال الدين وأهل لندرة وغيرهم وأرغموا الملك على منح « العهد الأعظم Magna Carta » وهو يعتبر أساس حرية الشعب الانجليزى. وأهم نصوصه:

العهد الاعظم

١ — أنه لا يجوز للملك أن يقبض على شخص أو يسجنه أو ينفيه أو يصادر أملاكه أو يحرمه من حقوقه إلا اذا حوكم هذا الشخص أمام محكمة مكونة من نظرائه . وفى هذا تقييد لسلطة الملك التنفيذية وقد فسرت هذه المادة بأنها أساس حرية الفرد ونظام « المحلفين » فى انجلترا

٢ — ليس للملك أن يفرض ضريبة أو يطلب منحة إلا بموافقة المجلس الأعظم ما عدا حقوق الملك الاقطاعية المعروفة . وقد فسرت هذه المادة بأنها تحرم على الملك أن يفرض ضريبة دون موافقة البرلمان ، وهذا تحديد لسلطة الملك التشريعية

٣ — ليس للملك أن يعبث بالعداله فينكر حق أحد أو يؤخره أو يساوم فيه بأى طريق ، وبذلك أصبحت سلطة الملك فى القضاء محدودة

ورغم أن العهد الأعظم لم يضمن المحاكمة أمام محلفين ، ولم يشرك الشعب فى القوة السياسة ، ورغم أنه كان مستنداً إقطاعياً إلا أنه لا يزال يعد أساساً للدستور الانجليزى ، وقد أبى جون أن يرتبط به فأعلن الأشراف عليه الحرب واستعانوا بملك فرنسا ولم يخلصهم من هذه الورطة الا موت جون سنة ١٢١٦

وقد تنبه القائمون ضد الملك أنه لا يكفى ارغامه على اعطاء وعد ، أو تهديده بالحرب أذا أبى تنفيذ وعده ، بل لا بد لهم - اذا أرادوا الاشراف على الحكومة أو الاشتراك فيها — أن تكون لهم هيئة دائمة تمثلهم وتنفذ رغباتهم . ولم يكن مثل هذه الهيئة جديداً فى انجلترا بل كان يوجد أيام ملوك الانجليز السكسون مجلس من عقلاء الرجال يسمى « وتان Witen » لا يكاد الملك يعمل عملا مهماً دون أخذ رأيهم . وكان هذا المجلس يحضره الأشراف والأساقفة ، فلما فتح وليم انجلترا استدعى الى مجلسه كل من تسلموا أرضهم من الملك وسماهم المجلس الأعظم الذى بدأ فى أيام هنرى الثالث يسمى « البرلمان »

أصل البرلمان

هنرى الثالث (١٢١٦ — ١٢٧٢)

كان هنرى أحسن من أبيه رغم طيشه وضعف إرادته، ولم يكن من رأيه أن يستمر فى المشاحنات التى أثارها والده وكذلك كان البارونات يودون أن يعطوه فرصة يظهر فيها اخلاصه وأمانته

ولكن الملك أخطأ فى سياسته الخارجية وفرض ضرائب باهظة للسير فيها، فقاومه الأشراف برياسة « سيمون دى منتفورت Simon de Montfort » واجبروه على دعوة المجلس الى « اكسفورد » سنة ١٢٥٨، حيث تقرر ان يجتمع المجلس الذى بدأ يسمى برلمان ثلاث مرات فى العام، ويكون البرلمان على اتصال تام مع خمسة عشر عضواً يعينهم بنفسه للاشراف على جميع أعمال الملك. وكذلك اشترط البرلمان أن يكون له تعيين كبار الموظفين مثل قاضى القضاة وامين الخزانة. وبهذا زادت حقوق الشعب وتقيدت سلطة الملك. ولكن كل هذه الاحتياطات لم تمنع وقوع الحرب الأهلية التى هزم فيها الملك وأخذ أسيراً وصار « سيمون دى منتفورت » يدير الشئون باسم هنرى الثالث فجمع سنة ١٢٦٥ برلماناً دعا اليه البارونات والاساقفة ورؤساء الاديرة كالمعتاد، ثم أراد أن يبرهن للملك ان الامة مجمعة علي خطته فكلف حكام الاقاليم أن يرسلوا الى البرلمان فارسين عن كل مقاطعة وعضوين عن كل مدينة فأصبح نواب الشعب يشتركون فى البرلمان لاول مرة على قاعدة المساواة مع عظماء الأشراف ورجال الدين، وكان الجميع فى أول الامر يجلسون فى قاعة واحدة ولكنهم انقسموا بعد ذلك الى مجلسين : مجلس العموم ومجلس اللوردة ويجمع الاشراف ورجال الدين

سيمون دى منتفورت

الحرب الاهلية

اشتراك العامة فى البرلمان

أدوارد الاول (١٢٧٢ — ١٣٠٧)

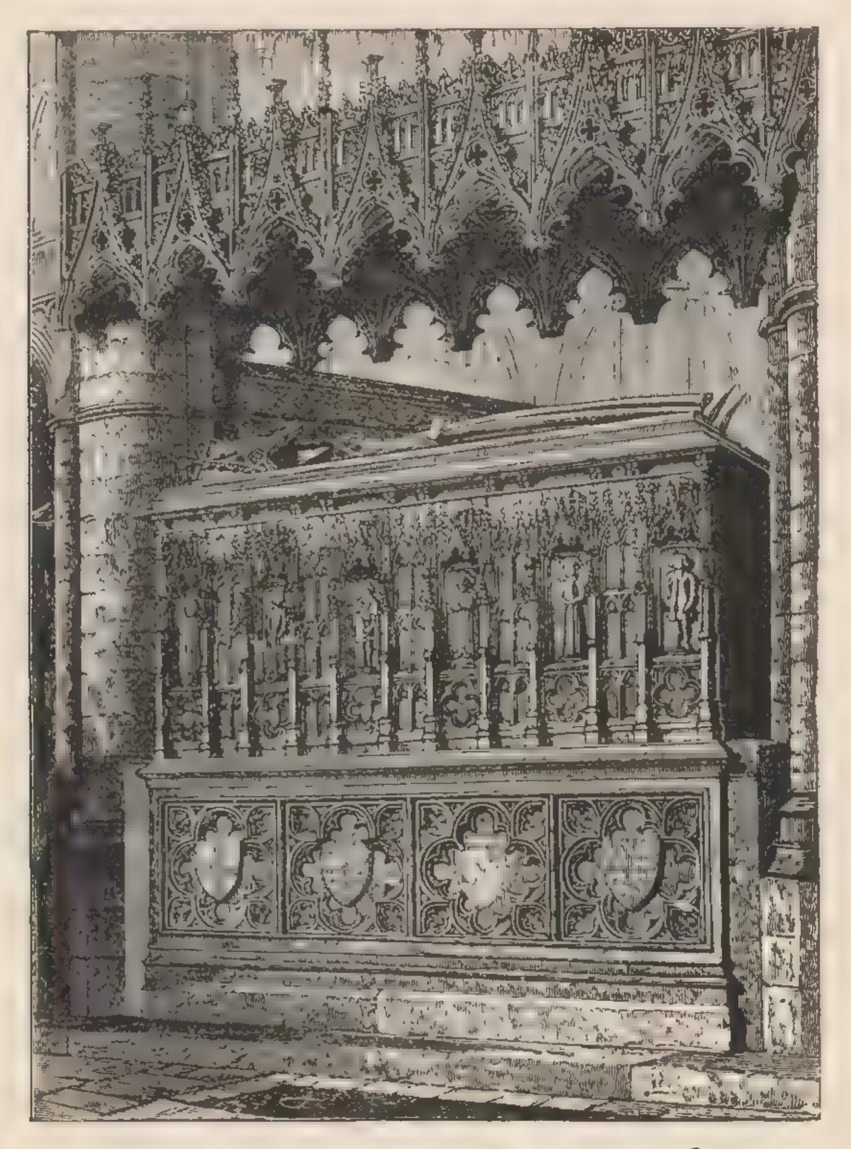
يعد حكم أدوارد من أهم العصور فى تاريخ انجلترا ان لم يكن أهمها جميعاً ، فانه كان فى وسعه أن يقضى على قوة البرلمان الذى عارض أباه وجده ، ولكن حزمه هداه الى أن البرلمان يمكن استعماله كوسيلة من وسائل الحكم . وقام فى هذا الشأن بتجارب عدة حتى إذا كانت سنة ١٢٩٥ ، تورط الملك فى حروب مع فرنسا واسكتلندة ، وبدل أن ينتهز هذه الفرصة للتخلص من رقابة الأمة عمد الى الاستعانة بها فجمع برلماناً على نسق برلمان سنة ١٢٦٥ ويفوقه بتمثيل الشعب تمثيلا أقرب الى الكمال . وصار هذا الاجتماع نموذجاً للبرلمانات المقبلة وبقى البرلمان على هذا النظام بدون تعديل أساسى الى عام ١٨٣٢

البرلمان النموذج

وبعد ذلك بعامين أيد ادوارد كل العهود التى منحت للشعب ووعد من جديد الا يجبى ضريبة أو يطلب منحة الا بموافقة البرلمان ، فثبت مركز هذه الهيئة ورسخت قدمها فى السيطرة على الحكومة ، بينما جمعية طبقات الشعب الفرنسية التى جمعها فليب الرابع سنة ١٣٠٢ لم تقو على مقاومة الملكية . وما ذلك إلا لأن اشتراك الشعب مع الملك قديم فى انجلترا إذ كان موجوداً قبل الفتح النورمندى كما ذكرنا ، بينما لم يوجد فى فرنسا الا فى حكم فليب الرابع ، ولأن البرلمان الانجليزى انقسم الى نواب ولوردة فقط ، وانقسمت جمعية طبقات الامة فى فرنسا الى أشراف ورجال كنيسة وشعب ، فصارت الكلمة العليا للطبقتين الممتازتين ، ولأن لقب اللورد وكرسيه فى مجلس اللوردات يرثهما ابنه الأكبر فقط

برلمان انجلترا وجمعية طبقات الشعب

بينما أبناؤه الآخرون يجتهدون فى دخول مجلس العموم ، ولأن البرلمان الانجليزى نجح فى التشبث بلزوم موافقته على الضرائب والمنح وبهذا وحده نال حقوقاً كثيرة من الملوك . أما مجلس طبقات الامة فلم ينجح، بل صار لملوك فرنسا منذ سنة ١٤٢٩ حق فرض الضرائب دون موافقته،



قبر ادوارد الثالث فى وستمنستر

لان موقع فرنسا بين أمم معادية دعا إلى ايجاد جيش مستديم صار خطراً على حقوق الشعب وحريته، بينما كان الانجليز فى غنى عن الجيوش

المستديمة بفضل تحصنهم وراء أمواج البحار . فتضاءلت هذه الهيئة ولم تدع للاجتماع بعد سنة ١٦١٤ الا قبيل الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩

ولم يخل عهد ادوارد الاول من حروب مهمة فقد انتصر على أهل ويلز واستولى على جزء من بلادهم سنة ١٢٨٤ ولقب ولى عهده « أمير وليز Prince of Wales » ومن ذلك الوقت صار ولى عهد انجلترا يعرف بهذا اللقب . وكذلك حارب اسكتلنده وضمها الى ملكه ، ولكن الاسكتلنديين ثاروا وانتخبوا روبرت بروس Robert Bruce ملكا عليهم واستردوا استقلالهم

المانيا وايطاليا بعد سقوط دولة شرلمان

يختلف تاريخ القسم الشرقى من أمبراطورية شرلمان عن تاريخ القسم الغربى لانه بمعاهدة ڤردان سنة ٨٤٣ صارت « استراسيا » مقسمة الى ست دوقيات مستقلة وهى سكسونيا وبڤاريا وفرنكونيا وسوابيا وثورنجيا ولورين

تمسك الادواق بحقوقهم

وكانت كل دوقية تمثل قبيلة خاصة وتحرص على مصلحتها الذاتية ولا تعبأ كثيراً بالمصلحة العامة ، رغم خضوع الجميع لاحفاد شرلمان خضوعاً اسمياً . وزاد الطين بلة ان القبائل المتبربرة من المجر والصقالبة أكثروا من الاغارة على الدولة وضعف الملوك عن حماية ملكهم فاعتمدت كل دوقية على نفسها ووكلت القيادة الحربية إلى دوقها ، فقوى نفوذ الادواق وصعب على الملوك اخضاعهم فعمت الفوضى وزاد الاضطراب وتطلبت الظروف رجلا يجدد عهد شرلمان

انتخاب هنرى السكسونى ملكا

ومن الغريب ان ذلك الرجل المنشود لم يظهر من بين احفاد

شرلمان ولا من الفرنجة بل من السكسون الذين كانوا أشد أعدائه والذين لم يخضعوا له الا بعد حروب طاحنة إذ فى سنة ٩١٨ خلا عرش المانيا وكانت الملكية انتخابية ولكن بطريقة غير منظمة فاجتمع قوم من سكسونيا وفرنكونيا وانتخبوا هنرى السكسونى ملكا ووافق الباقون على هذا الاختيار فعرف باسم « هنرى الاول » الملقب « بالصياد »

هنرى الاول (٩١٨ — ٩٣٦)

كان هنرى يعلم أنه لا سبيل إلى التغلب على الادواق لشدة بأسهم فى عصره فوجّه همه إلى الدفاع عن البلاد ومد نفوذه فيما وراء نهر الألب وانتصر على عدة قبائل صقلبية وفتح البلاد التى سميت فيما بعد « برندنبرج » التى سيكون لها شأن مهم فى تاريخ المانيا وكذلك احتل الشطر الجنوبى من الدنمرقة ونشر المسيحية فيه . ولكن أكبر معضلة قابلها هى اخضاع المجر الذين كانوا يسكنون حوض الطونة الاوسط ويخربون بجموعهم الهمجية البلاد المجاورة لهم . فعالج هنرى مقاومتهم ببناء مدن حصينة فى الجهات التى اعتادوا الاغارة عليها ونظم قوة من الفرسان لاقتفاء أثرهم وتمكن بهاتين الوسيلتين من كسر شوكتهم سنة ٩٣٣

أما حكمه فى داخلية البلاد فكان مؤسساً على كسب طاعة الادواق بالطرق الودية ومعاملتهم كأنهم أمراء مستقلون فكانت المانيا تحالفا من ست دوقيات لا ملكية مركزية

أتو الاول أو الاكبر (٩٣٦ — ٩٧٣)

انتخب ملكا بعد أبيه فأتم عمله فى الدفاع عن المانيا وتنظيمها

وتقوية الملكية ثم توج امبراطوراً كما توج شرلمان من قبل . وقد وسع «أتو» نطاق الاستعمار الجرمانى فيما وراء نهر الالب . وللدفاع عن أملاكه أنشأ على حدودها دوقيات تحت الحكم العسكرى تشبه العواصم فى عهد الرشيد تتلقى أول هجوم يقوم به الأعداء واشتهرت هذه باسم «مارك Mark» . وقد حارب المجر وهزمهم قرب اجزبرج سنة ٩٥٥ هزيمة قضت على شرهم فلم يعودوا يهددون المانيا بل أقاموا بالبلاد التى عرفت باسمهم فيما بعد ودخلوا الدين المسيحى وتقدموا تقدماً سريعاً

هزيمة المجر

وقد حاول «أتو» أن يخضع الدوقيات وينشئ مملكة متحدة فنجح فى ذلك بعض الشئ بأن عين أقاربه بدل بعض الادواق الثائرين وربط آخرين برباط المصاهرة مع الأسرة المالكة، غير أن هذا لم يقض على أطماعهم بل بقوا يحاربون « اتو » ومن جاء من بعده قروناً عديدة

حال ايطاليا

وكانت ايطاليا إذ ذاك فى أتعس حال تشملها الفوضى والاختلال لأن الامبراطور الذى ورث أملاك « شرلمان » فيها كان يقيم فى الشمال بلا حول ولا طول لا يستطيع حماية هذا الجزء من غارات المجر ، وكان الوسط نهباً للعرب الذين استطاعوا أن يحكموه نحو ثلاثين سنة فى أول القرن العاشر ، وأما الجنوب فكان بعضه بيد الدولة الرومانية الشرقية ولكن قرصان المغرب كانوا لا يفتأون يغيرون عليه ، فكان النظام والاتحاد منعدمين فى إيطاليا ، وزادها خبالا ضعف البابوات واشتغالهم بمصالحهم الذاتية حتى عد القرن العاشر أظلم عصر فى تاريخ البابوية إذ كانت رومة تمزقها الاحزاب المتنازعة على خيرات البابوية بينما البابوات أنفسهم لا يهمهم إلا التمتع بايراد وظيفتهم

أتو فى ايطاليا

وفى أثناء هذا الاضطراب دخل «أتو» ايطاليا لأن «اديليد Adelaide» أرملة «لوثير» آخر ملوك الدولة الوسطى من سلالة شرلمان استجارت به لينقذها من « برنجار Beringar » الحاكم الجديد الذى أراد أن يكرهها على التزوج بابنه، فعبر « أتو » جبال الالب سنة ٩٥١ وأنقذ « اديليد » بزواجه منها واعلان نفسه ملكا على لمبارديا . وبذلك صار صاحب القوة فى ايطاليا والمانيا معاً وأصبح قريباً من البابا وزاد اهتمامه بشأنه

وفى سنة ٩٦٢ اختلف البابا مع بعض أحزاب فى رومة اتهمته بمخازى شنيعة فطلب إلى « اتو » المساعدة فحضر وأيد سلطة البابا وأعاده إلى عرشه، فاتضح للناس ان « اتو » يشبه شرلمان فى أنه حارب الوثنيين ونشر الدين بينهم وصار أكبر حاكم فى عصره وشد أزر الكنيسة، وانه لهذا يستحق أن يتوج أمبراطوراً فتوجه البابا فى ٢ فبراير سنة ٩٦٢

تتويج أتو امبراطورا

وتعتبر الامبراطورية الرومانية المقدسة التى بدأت « بأتو » مكملة لامبراطورية « شرلمان » ووارثة لها بعد انقراض الاسرة الكارولنجية. ولكن مع التشابه بين الامبراطوريتين يوجد أيضاً مفارقات إذ كانت أمبراطورية « اتو » لا تشمل إلا المانيا وبعض ايطاليا بينما كان شرلمان يحكم فى فرنسا واسبانيا أيضاً، تلك الجهات التى كانت متأثرة بحضارة الرومان تأثراً عميقاً وعلى ذلك لم يكن لامبراطورية « اتو » من الصفة الرومانية ما كان لامبراطورية شرلمان

أثر تتويجه

وقد كان لتتويج « اتو » نتائج بعيدة المدى لان أخلافه ورثوا عبئاً ثقيلا أبهظ كاهلهم بمحاولتهم الاحتفاظ بايطاليا ودوام الرقابة على البابوية، بدل التفرغ لخدمة بلادهم. وبعد حروب دموية طاحنة خرجت

ايطاليا من أيديهم واستقلت البابوية عنهم وبقيت المانيا متفرقة الـكلمة بدل أن تتحد وتندمج إلى شعب قوى كما اتحدت فرنسا وانجلترا واسبانيا

وفى حكم خلفيه « اتو الثانى » (٩٧٣ — ٩٨٣) و « اتو الثالث » (٩٨٣ — ١٠٠٢) بدأت تتكون بولندة على نهر الاودر وشرقيـه وقويت مملـكة المجر بعد أن صارت مسيحية وأخذت هاتان القوتان تهاجمان المانيا من حين لآخر

أسرة فرانكونيا (١٠٢٤ — ١١٢٥)

كنراد الثانى

أولها « كنراد الثانى » وقد زاد سلطة الامبراطور بكل الطرق الممكنة ونال دوقية برغندية بطريق الوراثة وسلم دوقيات ألمانيا لأقاربه أو حكمها بنفسه وحاول أن يضعف الاقطاع بجعل الولايات كلها ملزمة بالمحاربة تحت لوائه وكسب محبة صغار الملاك بجعل أرضهم وراثية ومنع حرمانهم منها إلا بسبب وجيه . وبتوسيع الامبراطورية وتقوية حدودها وبالاستيلاء على الدوقيات وربط صغار الأشراف بشخصه مهد السبيل لحكم ابنـه هنرى الثالث (١٠٣٩ — ١٠٥٦)

أعمال هنرى الثالث

كبح هنرى جماح الاشراف فى المانيا بتصدره لتنفيذ الخطة التى وضعتها الـكنيسة للمحافظة على السلام وهى إعلان « الهدنة الربانية » من مساء الاربعاء الى صبيحة الاثنين ومنع الحرب أثناء هذه الهدنة . وقد انتخب الأتقياء الأكفاء أساقفة ورؤساء أديرة ولم يحاول أبداً أن يبيع الوظائف الدينية بل شجع الاصلاح الذى قام به دير « كلونى » وبذل جهده لرفع مستوى أخلاق رجال الدين بتطبيق هذا الاصلاح

فى ألمانيا ونهض بمدارس الاديرة وأنشأ مدارس لغير رجال الدين وكان يحتم على أبناء الاشراف دخولها

وقد زار ايطاليا سنة ١٠٤٥ ليتوج امبراطوراً فوجد ثلاثة بابوات كل يدعى أنه صاحب الحق الوحيد ويستند الى تعضيد حزب من أحزاب المدينة فعزلهم جميعاً وولى بابا جديداً . وفى بقية حكمه عين ثلاثة بابوات كلهم من الاكفاء وقاوم الرشوة وساعد المصلحين على رفع الكنيسة الى المكانة اللائقة بها — فالامبراطرة اذن هم الذين أنقذوا البابوية من مخالب أحزاب رومة ورفعوها من دركات الرشوة والانحطاط الى درجات الوقار والعزة . وكانوا ينتظرون أن يعرف لهم رجال الدين هذا الجميل فيخلصوا لهم ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، بل انتهزت البابوية فرصة تولى هنرى الرابع فى سن السادسة وعملت على التخلص من رقابة الامبراطورية وانضم اليها رجال الدين واستعد البابوات لمناهضة الامبراطرة ومزاحمتهم على القوة الزمنية

الكفاح بين البابوية والامبراطورية

لما ساد نظام الاقطاع فى أوروبا أثناء القرن العاشر انحط شأن البابوية وأصبح مركزها موضع نزاع الاحزاب فى رومة ، واعتلى عرشها أناس لاخلاق لهم كانوا سبباً فى تشويه سمعتها الدينية فسقطت أهميتها فى نظر المسيحيين . ويرجع الضعف الذى لحق البابوية فى القرن العاشر الى الامور الآتية : —

(١) الاملاك العظيمة التى كانت لرجال الدين . فأصبح الاساقفة

ورؤساء الاديرة بسبب ما يملكونه من الاراضى تابعين للملوك أو للاشراف حسب نظام الاقطاع ، ولما كانوا بحكم مراكزهم الدينية غير قادرين على توريث أراضيهم أصبح للملك أو للشريف حق تقليد الاسقف الجديد أو رئيس الدير وظيفته ، بعد أن يقسم له يمين الطاعة والولاء ويتسلم منه شارات الوظيفة . من ذلك نرى أن البابوية أو الكنيسة فقدت قوة هائلة باتصال كبار رجال الدين وأراضيهم بالسلطة السياسية

(٢) كانت الكنيسة تحبذ عدم الزواج بين رجال الدين ولكن جاء القرن العاشر والحادى عشر فانتشر الزواج خصوصاً بين صغارهم فخشيت الكنيسة أن يتسرب إيرادها الى أولادهم ، وقد يكونون من غير رجال الدين أو العلمانيين ،

(٣) لما أصبحت الوظائف الدينية مرغوباً فيها بسبب الاراضى الواسعة التى كانت تابعة لها أخذ الامراء يبيعون هذه الوظائف ثم اتبع الاساقفة وبقية رجال الكنيسة هذه الطريقة وصاروا يبيعون الوظائف لمن هم أقل منهم فانحطت الوظائف الدينية فى نظر الناس

واستمر انحطاط الكنيسة والبابوية حتى جاء الامبراطور « هنرى الثالث » فاهتم بالوظائف الدينية وعين فيها رجالا ذوى كفاءة ومقدرة عند ذلك بدأ البابوات يشعرون بقوتهم ويعملون على إصلاح المساوىء حتى يعيدوا مجد البابوية الاولى وتتمتع الكنيسة باستقلالها وترغم الملوك والامراء على طاعتها . وعلى ذلك بدأ فى القرن الحادى عشر دور كفاح بين السلطتين الزمنية والدينية . ولقد نشأت فى هذا النزاع نظريتان

النظرية الاولى : هى أن السلطة لزمنية متفوقة على الروحية وهى

النظرية التى قال بها حزب الامبراطور وأيد أقواله بآيات من الانجيل وشواهد من التاريخ، فمثلا يقول السيد المسيح : ـ « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ـ وقالوا أيضاً أن المنح التى أعطاها « بيبين Pippin » و « شرلمان » للبابا من شأنها أن تجعل القوة الروحية تابعة للزمنية .

النظرية الثانية

وهى أن القوة الروحية متفوقة على القوة الزمنية حتى فى الشئون المدنية البحتة . وهذه هى النظرية التى قال بها الحزب البابوى وأيد هذا الحزب أقواله كذلك بآيات من الانجيل ، ومما قالوه إن الكنيسة مسئولة عن أرواح العالم وأعمالهم ، وفى مقدمة هؤلاء أعمال الأباطرة . وشبهوا القوتين بالشمس والقمر فقالوا كما أن الله خلق فى السماء نورين : نور الشمس ونور القمر ، كذلك أوجد فى العالم قوتين : قوة البابا وقوة الامبراطور ، ولكن كما أن القمر يستمد نوره من الشمس كذلك تستمد القوة السياسية سلطانها من القوة الدينية .

وانقسم العالم المسيحى فى غرب أوربا الى فريقين كبيرين — فريق البابوية وفريق الامبراطورية — وشرع كل فريق فى اخضاع الفريق الآخر

بدء الكفاح

تقوت البابوية بظهور حركة إصلاح فى الرهبنة مركزها دير « كلونى » فى برغندية دعت الأديرة الى لزوم التمسك بالنظام الذى وضعه القديس « بندكت » وأشهر الذين قاموا بتقوية البابوية « هلدبرند Hildebrand » الذى

هلدبرند

ارتقى عرش البابوية فيما بعد باسم غريغورى السابع . وليس فى تاريخ الكنيسة فى العصور الوسطى رجل أشهر ولا أكثر نفوذاً من « هلدبرند » هذا

وقد قضى هلدبرند زمناً فى دير كلونى، ثم تركه سنة ١٠٤٩ حين ذهب الى رومة وعين سكرتيراً للبابا «ليو التاسع» ومن ذلك الوقت صار صاحب النفوذ الاكبر فى الامور الدينية وبقى كذلك الى ان مات سنة ١٠٨٥.

ويعد هلدبرند المثل الاعلى للبابوية، وكان ضئيل الجسم ولكنه كان ذا عزيمة لا تفل ويقين لا يتزعزع، فى أن الكنيسة هى صاحبة السيادة فى العالم كله، تستمد نفوذها من الله مباشرة وتمد هى ملوك الارض وأمراءها بالنفوذ. وكان يعتقد أن البابا له مركز فذ فى العالم فهو الذى يولى الاساقفة ويخلعهم، وله الحق فى خلع الاباطرة لأنه سيدهم الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون

(١) وقد بدأ تنفيذ خطته بأن جعل انتخاب البابا بواسطة الكردينالات وهم الرؤساء الدينيون فى رومة، وبذلك تخلص من القوة الزمنية التى كانت تسيطر على انتخاب البابا واستحث البابوات على اجراء الاصلاح فى الكنيسة وإعلاء شأن البابوية وكلمتها، وكان مقتنعاً تمام الاقتناع بلزوم تفوق البابوية وتوليها رياسة العالم المسيحى المتحد.

غريغورى السابع

(ب) ولما وصل غريغورى السابع الى كرسى البابوية سنة ١٠٧٣، أعلن خطأ النظرية القائلة بأن الامبراطور ظل الله فى الارض. وقال إن الامبراطورية لا يمكن أن تكون كذلك لانها تعتمد على القوة الغاشمة وأما الكنيسة فتعتمد على الفضيلة، وهى بهذا معصومة من الخطأ. واستنتج أن رئيس الكنيسة يجب أن يسيطر على الناس جميعاً

(ج) رأى غريغورى انه يجب أن تكون الكنيسة وحدة متجانسة تخضع لرئيس واحد هو البابا، وعلى ذلك حتم على الاساقفة أن يقسموا

يمين الولاء له وحرمهم استقلالهم المحلى، وأعلن حق(١) استئناف جميع القضايا المهمة اليه رأساً، ثم أعلن أن كلمة البابا هى العليا فى الكنيسة وأن ارادته فوق أكبر هيئة دينية وهى المجالس المليـة، ثم أرسل(٦) نوابه الى كل الممالك يمثلونه أمام الملوك والامراء وينفذون إرادته فكانوا له بمثابة عيون وسفراء يخبرونه بما يجرى من الشئون المختلفة، وأخذ يكتب للملوك يذكرهم بتبعية أراضيهم للرسول بطرس ويطلب اليهم إرسال الأعشار

وحرم غريغورى سنة ١٠٧٥(٨) زواج القساوسة وحرم قبول المناصب الدينية من العلمانيين وهدد رجال الدين بالحرمان اذا هم قبلوها. وكذلك هدد الملوك والاشراف اذا هم ساعدوهم على قبول تلك الوظائف منهم رأساً

هنرى الرابع

وفى سنة ١٠٦٥ بلغ هنرى الرابع امبراطور المانيا (١٠٥٦—١١٠٦) سن الرشد فأخذ يحكم بمفرده وكان شاباً نشيطاً ذكياً لا بأس بمواهبه ولا ينقصه الا قليل من صدق العزيمة والشجاعة الادبية ولو اوتيهما لعد من كبار رجال التاريخ، ولكنه كان مدعياً متكبراً شديداً فى معاملته لأدواقه

ولما رأى البابا أن هنرى الرابع امبراطور المانيا لم يكترث بقراراته، أرسل اليه رسولاً يطلبه للحضور أمامه ويهدده بالحرمان إذا هو لم يحضر، فاعتبر هنرى هذا بمثابة إعلان للحرب وعقد مجلساً سنة ١٠٧٦ وأعلن عزل البابا، فاجاب غريغورى بعزل الامبراطور وحرمانه ومن ثم بدأ النزاع على أيهما صاحب السلطة العليا

الحرمان

والحرمان امضى سلاح استعمله غريغورى ومن جاء بعده من البابوات لتهديد معارضيهم واكراههم على الاذعان، فاذا صدر قرار الحرمان ضد شخص هجره الناس، وإذا كان ملكا أصبح أتباعه فى حل

من أن يخالفوا أوامره ، واذا مات حرم من صلوات الكنيسة ولم يدفن دفنة مسيحية ، وإذا نزلت نقمة الحرمان على أمة أغلقت كنائسها وخفتت أصوات الاجراس فيها ووقفت حركتا الزواج والدفن . ولا يجب أن يقال من أهمية هذا السلاح فقد كان الناس فى القرون الوسطى لا يهتمون بأمر اهتمامهم برضاء الكنيسة وطاعة أوامرها

الاشراف يوقفون الامبراطور

ولذلك ليس بغريب أن يضعف مركز هنرى بعد قرار الحرمان، فانتهز الاشراف فى المانيا فرصة ضعف الملك وحاولوا الاستفادة من نكبته، فعقدوا اجتماعاً فى غيابه وقرروا نزول هنرى عن مظاهر الملكية ولزوم سعيه فى التماس العفو من البابا فى مدة سنة

عند ذلك أسرع هنرى الى ايطاليا ليحول دون حضور غريغورى، لانه رأى فى حضوره ضياع سلطته السياسية . ووقف هنرى مستأذناً

اذلال كانوسا

على باب قلعة « كانوسا Canossa » فى شمال ايطاليا بالقرب من « بارما » حيث كان البابا نازلاً وهو فى طريقه الى المانيا ، والتمس المثول بين يديه ثلاثة أيام متوالية وهو عارى الرأس حافى الاقدام لابساً لباساً من الوبر. وأخيراً أذن البابا له بالمثول وغفر له ذنبه ورفع عنه النقمة . ويعد هذا إذلالاً للملكية لا مثيل له فى التاريخ

الحرب بين البابا والامبراطور

غير أن مركز هنرى بدأ يقوى بعد حادثة كانوسا ، فسير جيشين الى ايطاليا وأخذ رومة سنة ١٠٨٤ ، وكاد البابا يقع أسيراً فى يده . ولكن النورمنديين جاءوا برياسة « روبرت جسكارد » فانسحب هنرى وترك لهم رومة ، فنهبوها وأحرقوها ، فثار أهلها على البابا وحلفائه وأخرجوهم منها ، وفر غريغورى الى « سالرنو » وهى من أهم المدن النورمندية ،

حيث مات منفياً سنة ١٠٨٥ . ولكن البابوية لم تضعف بعده بل زادت قوتها بالدعوة الى الحروب الصليبية وبالنجاح الذى أحرزته الحملات الأولى من هذه الحروب . أما هنرى الرابع فمات سنة ١١٠٦ ، منغصاً بسبب حروبه مع أبنائه .

ولم تحل مشكلة تقليد الاساقفة الا فى عهد هنرى الخامس سنة ١١٢٢ باتفاق «ورمس Worms » وبمقتضاه نزل الامبراطور للبابا عن حق تقليد الاساقفة السلطة الدينية . وصار الاساقفة ورؤساء الاديرة ينتخبون بواسطة الكنيسة بحضور الملك أو من يمثله، ثم يقلدهم الامبراطور سلطتهم السياسية والقضائية والمدنية ويعطيهم الصولجان، كما يفعل مع أتباعه من العلمانيين ، أما الخاتم والعصا — اللذان هما شارتا الوظيفة الدينية — فتقوم الكنيسة بتسليمهما للاساقفة أو لرؤساء الاديرة مباشرة

اتفاق ورمس

أسرة هوهنشتاوفن (١١٣٨ — ١٢٥٤)

لم يحسم اتفاق « ورمس » النزاع بين البابا والامبراطور فتجدد النضال فى حكم الامبراطور « فردريك بربروس » ، وذلك أنه بعد أن انقرضت أسرة فرنكونيا انتخب أمير سوابيا « كنراد الثالث» ملكا سنة ١١٣٨ وكانت الأسرة تنتسب إلى« هوهنشتاوفن Hohenstaufen » وهو حصن فى جنوب سوابيا

وخلف« كنراد» سنة ١١٥٢ ابن أخيه «فردريك الأول» الذى عرف فيما بعد باسم فردريك بربروس أى ذى اللحية الحمراء، وهو أجل أباطرة العصور الوسطى.وكان عصره فى المانيا عصر عظمة حربية ورخاء تجارى وتقدم فى العلوم والفنون . وكانت قد نمت فى المانيا مدن لا تقل عن

فردريك بربروس

نمو المدن

مدن ايطاليا طابعاً للاستقلال وحباً للرقى العلمى والفنى ، وكثرت هذه المدن في الجنوب والغرب ، وبرزت منها كولونيا ومايز واجزبرج

وخوفاً من أمراء الاقطاع التجأت المدن إلى الامبراطور ليحميها، فصارت قوة للامبراطورية تعينها على الادواق وتساعدها في حروبها المختلفة .

مطامع بربروس

وكان فردريك قديراً واسع الخيال طموحاً الى المعالى لا يرضيه إلا أن تكون للامبراطورية قوة محسوسة فى سياسة أوربا، فكان يسعى للتمتع بحقيقة الملك واقامة حكومة قوية متحدة فى المانيا وبرغندية وايطاليا باخضاع كل من يعارضه من أمراء ومدن

اخضاع ثورة رومة

وانتهز فردريك فرصة قيام ثورة فى رومة فدخل ايطاليا واتفق مع البابا « هادريان الرابع Hadrian IV » على أن يتوجه أمبراطوراً مقابل مساعدته على قمع الثورة، وتم ذلك سنة ١١٥٥

ولكنه ما كاد يعبر جبال الالب عائداً حتى بدأ سوء التفاهم بين البابا والامبراطور، وذلك لسبب ادعاء البابا أن الامبراطور مدين له بتاجه وأن الامبراطورية انما هي منحة منحها البابا لفردريك . وقامت المدن

اخضاع مدن اللمبارد

اللمباردية بقيادة ميلان تعاكس الامبراطور وتعاون البابا فى كفاحه ، ولما آنس الامبراطور من هذه المدن صلابة فى مقاومة أوامره حاربها سنة ١١٥٨ وانتهى الامر بأن ضرب ميلان التى تعد زعيمة لتلك المدن سنة ١١٦٢ بعد حصار ثلاث سنين . عند ذلك وجدت المدن خلاصها فى الاتحاد فاتحدت ، وبمساعدة البابا « اسكندر الثالث » تكونت « عصبة مدن اللمبارد » سنة ١١٦٧. وباتحادها تجدد بناء ميلان ، وأسست مدينة

«السندرية» نسبة للبابا اسكندر الثالث اتناوىء « بافيا Pavia » التى كانت موالية للامبراطور

موقعة لنيانو

فلما عاد فردريك الى ايطاليا وتقابل سنة ١١٧٦ مع عصابة مدن اللمبارد بالقرب من ميلان، انهزم فى واقعة « لنيانو Legnano » وهى من الوقائع الحاسمة فى تاريخ العصور الوسطى. اذ بعدها اضطر الامبراطور الى التماس

اذلال البندقية

العفو من البابا فتقابلا فى البندقية ١١٧٧ وأعيدت حادثة «كانوسا» بعد مضى مائة عام بالضبط. وبمقتضى هذا الاتفاق (اتفاق البندقية) لم يعد الامبراطور يمس استقلال مدن اللمبارد واكتفى منها بالاعتراف له بالسيادة الاسمية

البابا اسكندر الثالث

أما البابا اسكندر الثالث — الذى كان سبباً فى هذا الانتصار — فكان شيخاً سياسياً عنيداً شديد المراس، قاد المعارضة ضد الأباطرة مدة خمسة عشر عاماً بدون أن يمل، وانتهى الأمر بانتصار البابوية حين ركع الامبراطور فردريك أمام البابا طالباً الغفران فى البندقية سنة ١١٧٧ كما ذكرنا. وقد قام فردريك بحملة صليبية وغرق فى الطريق سنة ١١٩٠ فى نهر فى كيليكية فى آسيا الصغرى

أصل دوقية النمسا

ومن أهم ما حصل فى عصره استئناف نشر الحضارة الجرمانية شرقى نهر الألب بعد أن اكتسحها هجوم الصقالبة والمجر، ففى سنة ١١٥٦ صارت الأراضى الواقعة شرقى بفاريا على نهر الطونة الاوسط دوقية منفصلة سميت النمسا بعد قليل، وكان القصد منها تأمين ألمانيا من غازات المجر، واليها انتقلت أسرة «هبسبرج» التى خلفت أسرة هوهنشتاوفن وسادت ألمانيا بل أوربا جميعها.

وحوالى ذلك الوقت أيضاً ظهرت فى الشمال تلك القوة التى مابرحت

أصل بروسيا

تقوى رويداً رويداً حتى ضارعت النمسا بل وتفوقت عليها، الا وهى «دوقية برندنبرج» التى أنشئت لتكون درعاً لألمانيا يقيها غارات الصقالبة، وتأيد مركزحا كمها بمنحه لقب «منتخب» سنة ١١٤١ . ولما انتقل حكم هذه الامارة الى اسرة «هوهنزلونHohenzollern» بعد ذلك بقرنين، أخذت تنمو نمواً بطيئاً حتى صار أمراؤها ملوكا فى بروسيا سنة ١٧٠٠ ثم أباطرة فى ألمانيا سنة ١٨٧١

الكفاح بين البابا انسنت الثالث «Innocent III» والامبراطور فردريك الثانى (١١٩٧ — ١٢١٦)

يعتبر انسنت هو وغريغورى السابع أعظم ممثلين للبابوية فى أوج عزها فى العصر الوسيط . تعلم انسنت فى جامعتى باريس وبولونى فى ايطاليا حتى صار ضليعاً فى القانون، فصبغ ادعاءات البابوية بصبغة قانونية

خطة أنسنت الثالث

وتتلخص خطة «انسنت» فيما يلى :

(١) ان يصبح البابا السيد المطلق فى ايطاليا . وعلى ذلك منع الامبراطور من تثبيت نفوذه فى تلك البلاد

(٢) أن يكون البابا الرقيب الاعلى على ملوك أوربا

(٣) أن يخلص بيت المقدس من أيدى المسلمين وأن يخضع الكنائس الشرقية وخصوصاً الكنيسة الشرقية البيزنطية — كنيسة القسطنطينية — لسلطة البابا وأن يقضى على الملحدين فى كل مكان

والمدهش أن البابا انسنت هذا قد نجح فى تنفيذ خطته الى درجة ما

(١) أما من حيث النقطة الاولى فان الحظ قد خدم البابا، فأصبح

فردريك الثانى ملكا على صقلية بعد موت أبيه هنرى السادس سنة ١١٩٧، ولم يكن لفردريك من العمر الا ثلاث سنوات أو ماحول ذلك . ثم ما لبثت أمه ان ماتت فتعين « انسنت الثالث » قيما على القاصر وبذلك أصبح البابا يدير شئون صقلية

سلطان البابا على الملوك

(٢) أما من حيث النقطة الثانية فان البابا قد نجح فى ذلك نجاحاً باهراً، فاصبحت كلمته مسموعة فى كل الحكومات وأصبحت القضايا تستأنف أمامه من كل الجهات . وليس أدل على قوة نفوذه من الحوادث الآتية فى فرنسا وانجلترا وغيرهما

أما فى فرنسا فانه أرغم الملك «فليب اغسطس» على رد زوجته الاولى فلما رفض الملك ، أصدر ضده قرار الحرمان فلم يسعه الا الاذعان

وأما فى انجلترا فان البابا حتم على الملك جون أو يوحنا تعيين «استيفن لنجتن Stephen Langton» —أحد رجال الدين المنتمين له — رئيساً لأساقفة «كانتربرى «Canterbury»، فرفض الملك هذا التعيين وصادر ممتلكات الكنيسة وحرم ارسال النقود إلى البابا. فأصدر هذا ضده قرار الحرمان وأنزل النقمة بانجلترا وأعلن عليه حرباً صليبية ، وحرض فيليب أغسطس على مهاجمة أملاك يوحنا وضمها اليه سنة ١٢١٣ م . فاضطر الملك يوحنا نهائياً إلى طلب الغفران فغفر له البابا بعد أن قدم له انجلترا هدية وتسلمها قطيعة، وقد اعترفت دول أخرى بسيادة البابا عليها وأهمها الصقليتين والسويد والدانمرقة والبرتقال وأرغونة

وعلى الكنيسة الشرقية

(٣) أما من حيث النقطة الثالثة فى المنهج فان البابا «انسنت الثالث» أثار شعور القوم فى أوربا نحو حرب صليبية جديدة ، وهى الحرب

الصليبية الرابعة التي وصلت إلى القسطنطينية، وهناك خلعت الامبراطور البوزنطى وأقامت حكومة لاتينية فى القسطنطينية وعلى ذلك أصبحت الكنيسة تابعة للبابا

كذلك أثار البابا حرباً شعواء ضد الملحدين الذين ظهروا فى جنوب فرنسا فى ذلك الوقت حول مدينة تولوز ويعرفون « بالألبجنس Albigenses » نسبة الى مدينة « البي » وكانت لهم مدنية زاهرة فى هذه البقاع فقضى عليها بعد هذه الحرب

فردريك الثانى (١١٩٧ — ١٢٥٠)

أما الامبراطورية فكان يمثلها فى ذلك العصر فردريك الثانى وكان قصيراً ضئيلاً، إلا أن مواهبه النادرة ومبتكراته فى الأفكار والأعمال أكسبته لقب « أعجوبة العالم » ولا شك انه أرقى ملك فى العصور الوسطى من حيث التعليم والتسامح الدينى والكفاءة الادارية والسياسية، بل هو أكثر شبهاً برجال العصور الحديثة

نبوغ فردريك

كان فردريك يقرض الشعر باللغة العامية الشائعة فى جنوب ايطاليا، ويعد من هذه الوجهة من السابقين فى ميدان أدبيات اللغات القومية التى شملت أوربا فى أواخر العصر الوسيط. كذلك كان فردريك يجيد ست لغات من بينها اللغة العربية، ولوعاً بتشجيع العلوم والفلسفة ولذا أنشأ جامعة فى « نابلى » ومدرسة للطب فى « سلرنو Salerno » وحديقة للحيوانات فى « بالرمو Palermo »، فتجلت فى جنوب ايطاليا نهضة علمية فنية لم تعد اليها بعد عصره، وكان يكرم العلماء ويتحبب اليهم وخصوصاً علماء

العرب. و بفضله نشأت أول حكومة مستنيرة فى أورباوهى حكومة الصقليتين

الا ان استنارته وحبه للعلوم جلبا عليه سخط البابوية التى وسمته بالالحاد وشوهت سمعتـه . أما فى المانيا فان اهمال الامبراطور زاد فى نفوذ الامراء

النزاع بين البابا والامبراطور

وكان كل من البابا والامبراطور يتطلع أن يكون سيد ايطاليا ولذا ألح البابا على فردريك أن يفى بوعده فى القيام بحرب صليبية حتى يبعده ، ولكنه بالرغم من ذلك خرج الى الشرق ونال بسياسته ما لم ينله غيره من قبله بسيوفهم من تأمين الحجاج والاتفاق مع السلطان الكامل ملك مصر . ثم ذهب الى بيت المقدس فتوج نفسه ملكا عليها ثم عاد الى نابلى فوجد البابا قد أعلن عليه حرباً صليبية ونهب بلاده ، فطرد فردريك جيوش البابوية وعقد الصلح بينهما . ولم يدم الصلح طويلا لان البابا عزل فردريك وساعد مدن اللمبارد عليه

كنراد الرابع

وبموت فردريك انتقل التاج إلى ابنه «كنراد الرابع Conrad IV» ولم يكن له قوة العارضة ولا حسن الادارة اللتين كانتا لأبيه فلم يفلح فى تأييد مركزه فى المانيا التى توج فيها منافسه « وليم الهولندى » وحاول أن يكسب معونة نابلى ففاجأته منيته سنة ١٢٥٤ قبل أن يتوج امبراطوراً ، ولم يعقب الا طفلا يسمى « كنرادينو »

وبقيت المانيا بعد وفاته بدون ملك الى سنة ١٣٣٧ وتعرف هذه المدة « بالفترة » التى انتهت بانتخاب «رودلف هبسبرج Rudeolf Hapsburg» ملكا وهو مؤسس أسرة هبسبرج المعروفة ولم تكن له ولا لأخلافه قوة تذكر لأن المانيا انقسمت الى نحو اربعمائة إمارة اقطاعية .

ظهور أسرة هبسبرج

وأهم ما حدث بعد رودلف انضمام بوهيميا الى أملاك أسرة هبسبرج بطريق الوراثة، ولم تمض مدة طويلة حتى ألف الناس انتخاب الامبراطور من أسرة هبسبرج دون سواها ، وقد زادت ممتلكات هذه الاسرة بفضل المصاهرات مع الاسر المالكة فى برغندية ثم فى أرغونة وقشتالة فأصبح السبيل ممهداً لعظمة الامبراطورية فى عهد شارل الخامس المعروف بشرلكان (١٥١٩ — ١٥٥٥)

الفصل السابع

الحروب الصليبية

تمهيد : حالة الشرق قبيل الحروب الصليبية

عرفنا كيف امتدت أملاك الدولة الاسلامية فى القرن السابع فوسعت بلاد العراق والفرس والشام ومصر . وكيف امتدت هذه الفتوحات فى القرن الثامن حتى شملت بلاد المغرب والأندلس غرباً وحتى وصلت الى نهر جيحون شرقا . ولم يكن من المستطاع بقاء هذه الممتلكات الواسعة خاضعة لحكومة واحدة مدة طويلة، وذلك بسبب تعدد الاجناس المختلفة وبسبب النزاع والتنافس القائم بين القبائل العربية (مثل مضر وحمير) وبسبب ظهور الخوارج . لذلك ما لبثت الدولة أن تمزقت واستقلت الاجزاء المتطرفة منها كبلاد الأندلس وبلاد المغرب ثم مصر ثم الشام ثم شمال شرقى بلاد الفرس ، وعلى ذلك ضعف سلطان الخليفة العباسى منذ القرن العاشر ولم يتعد نفوذه بلاد العراق

ظهور الاتراك السلاجقة

ثم كثرت الجنود المرتزقة من الاتراك فى خدمة الخليفة واغتصبوا السلطة السياسية منه تدريجا ، فظهرت قوة الاتراك السلاجقة فى القرن الحادى عشر ويعرفون بذلك نسبة الى زعيمهم « سلجوق » . ومهدهم الأصلى الأراضى التى حول بحر قزوين ووراء نهر جيحون . والمؤسس لسلطتهم السياسية هو «طغرل بك» السالف الذكر إذ قلده الخليفة القائم بأمر الله السلطة الزمنية سنة ١٠٥٥ واقتصر الخليفة على سلطته الدينية

وقرن اسمه باسمه فى الخطبة . وأخذ السلاجقة يمدون نفوذهم شيئاً فشيئاً حتى شمل بلاد العجم والعراق والشام وآسيا الصغرى

ألب ارسلان

وفى عهد السلطان « ألب أرسلان » الذى خلف طغرل بك (١٠٦٢ — ١٠٧٢) هدد السلاجقة ممتلكات الدولة البوزنطية في آسيا الصغرى وهددوا حدود مصر أيضاً . ولما شعر البوزنطيون بالخطر الداهم ثاروا على امبراطورهم وولوا عليهم جنديا اسمه «رومانوس» فهاجم السلاجقة بقوة بوزنطية عظيمة وتقابل الفريقان فى أرمينيا وانهزم البوزنطيون أخيراً سنة ١٠٧١ فى واقعة « ملاذكرد Manzikert » قرب بحيرة « وان » . وتعد هذه الواقعة من الوقائع الحاسمة لانها مدت سلطان السلاجقة الى سواحل بحر مرمره وعرضت عاصمة الدولة البوزنطية للخطر حتى صار الامبراطور يدفع الجزية للسلاجقة

فضل السلاجقة

والى السلاجقة يرجع الفضل فى تجديد قوة الاسلام واعادة تكوين وحدته السياسية فقضوا على الدويلات التى قامت فى الاقاليم الاسلامية بسبب ضعف الخلافة . وكان الاتراك السلاجقة مفطورين على حب البساطة والحروب كما كان العرب فى أول أمرهم فلم يتأثروا بالسكنى فى الحضر ومعيشة الترف ، فأدخلوا روحاً جديدة فى الاسلام ونهضوا به نهضة عظيمة فى القرن الحادى عشر

الملك شاه

وجاء بعد « ألب أرسلان » ابنه السلطان جلال الدين « الملك شاه » (١٠٧٢—١٠٩٢) وهو أعظم سلاطينهم ووزيره «نظام الملك» من أعظم وزراء الاسلام وكان ملكه يمتد من نهر السند الى البسفور واهتم «الملك شاه » بشئون الحكومة بنفسه وظل طول حياته يجول فى الاقاليم المختلفة

نظام الملك

ليتعرف أحوال رعيته، فنظم القوانين ونشر العدالة واهتم بالتعليم وعضد الشعراء والعلماء وظهرت المدارس والجامعات فى المدن الاسلامية وأهمها المدرسة النظامية والمدرسة الحنفيـة فى بغداد وما زال « نظام الملك » ساعياً فى نشر العلم حتى وشى به فعزل

الاتابكة

ولما مات الملك شاه سنة ١٠٩٢ ضعفت دولة السلاجقة وانقسمت بين أبنائه وأقاربه الذين كان يعينهم حكاماً ويطلق عليهم اسم « الاتابكة » — وعلى ذلك قامت على أنقاض دولته حكومات صغيرة تعرف بحكومات الاتابكة، وكان هؤلاء يتشبهون « بالملك شاه » ويحاولون مواصلة خطته من حيث الاهتمام بالقانون والتعليم

وبسبب تمزق دولة السلاجقة عاد الاسلام ضعيفاً كما كان قبل ظهورهم وتفككت أواصر وحدته السياسية وحرم زعيما قوياً يقود القوات الاسلامية ضد المهاجمين من الصليبيين واستمر الحال كذلك الى سنة ١١٢٧ حين ظهر «عماد الدين زنكى» كما سيأتى بعد

ولو أن الحروب الصليبية التى ابتدأت بعد أربع سنين من موت الملك شاه جاءت متقدمـة قليلا لتعذر نجاحها، ولكن البابا « أربان الثانى Urban II » اختـار للحملات الصليبية الوقت المناسب فنجحت الحملة الاولى

الحروب الصليبية

الحروب الصليبية حملات دينية عظيمة قامت بها أوربا مدة من الزمان من القرن الحادى عشر الى القرن الثالث عشر لتخليص

الاراضى المقدسة فى فلسطين من أيدى المسلمين ، ولإيجاد كنيسة وحكومة لاتينية فى الشرق . وانما سميت بهذا الاسم لأن الذين اشتركوا فيها من اهل أوربا كانوا يضعون علامة الصليب على اكتافهم إشارة لمهمتهم المقدسة . والاسباب التى دفعت أوربا الى خوض غمار هذه الحروب هى :—

الشعور الدينى

(١) كان الناس فى العصور الوسطى يعتقدون فى قوة الكنيسة ويخشون بأسها وعقابها ويمتثلون أوامر رجالها ، وكانوا لشدة جهلهم وانحطاط حالهم يقترفون آثاماً كثيرة ويحملون أنفسهم خطايا عديدة ، ولم يكن أمام المسيحيين فى ذلك الوقت سبيل لرفع هذه الخطايا إلا القيام بالاعمال الصالحة كالحج والصوم وتعذيب الجسم والتخشن فى الملبس واقتناء المخلفات، وأهم هذه الاعمال فى نظر الناس الحج الى الأماكن المقدسة التى وطئتها أقدام السيد المسيح وعذب فيها من أجل دعوته الدينية واذا كان ثواب الحج فى نظر الناس عظيما فكم يكون عظيما ثواب القتال فى سبيل تحرير هذه البلاد من أيدى المسلمين

ولقد ظل السبيل الى زيارة الاماكن المقدسة متيسراً فى عهد دولة الخلافة العربية وعهد استيلاء الفاطميين على فلسطين . فقد كانت تلك الأماكن محترمة فى نظر المسلمين كما كانت فى نظر المسيحيين . ولكن لما استولى السلاجقة على فلسطين سنة ١٠٧٦ —وكانوا حديثى عهد بالاسلام— أظهروا تمسكا شديداً بالدين ونسوا أنه مؤسس على التسامح،

جهل السلاجقة بتسامح الاسلام

فتغيرت الحال فلم يعد يلقى حجاج بيت المقدس من التسامح فى الدين ما كانوا يلقونه من قبل على أيدى أكثر الناس معرفة بحقيقة الاسلام

مطامع البابوية

(٢) رغبة البابا أو الكنيسة الغربية فى السيطرة على جميع العالم المسيحي. وقد شاهدنا نهوض البابوية فى عهد غريغورى السابع وانسنت الثالث وعلمنا كيف أن البابا أراد أن يكون العالم المسيحى تحت حكومة دينية واحدة رئيسها البابا، فكان طبيعياً أن ترحب الكنيسة بفرصة تكون نتيجتها اخراج المسلمين من بيت المقدس واخضاع الكنيسة الشرقية لنفوذها

الحالة العامة فى أوربا

(٣) وهناك أسباب ثانوية كميل الفرسان والاشراف الى المخاطرات والسياحة ورغبة بعضهم فى تكوين إمارات وحكومات فى الشرق ورغبة الرقيق فى التخلص من قيود الاقطاع التى كانت تربطهم بأرضيهم

الظروف التى مهدت السبيل لهذه الحروب

(١) انقسام دولة السلاجقة عقب موت الملك شاه وتفكك الوحدة الاسلامية وعدم ظهور زعيم قوى يجمع شتات القوات الاسلامية.

(٢) قيام المدن فى ايطاليا وخصوصاً جمهوريات جنوه والبندقية وبيزا، اذ لولا تكوين هذه القوات البحرية والتغلب على قرصان البحر الأبيض المتوسط من العرب وأهل بلاد المغرب واحتلال النورمنديين لجنوب ايطاليا وصقلية، لتعذر على الصليبيين عبور البحر الأبيض المتوسط الى فلسطين

(٣) تحول المجريين الى المسيحية الأمر الذى فتح الطريق بين غربى أوربا والشرق

(٤) انتصار البابوية على الامبراطورية، وتفوق البابا فى غرب أوربا جعل كلمته مسموعة وجعل كل الحكومات تسارع إلى تلبية ندائه

السبب المباشر

اما السبب المباشر للحرب الصليبية فهو استنجاد أمبراطور القسطنطينية بدول الغرب ، فانه لما انتصر السلاجقة وأصبح مركز الامبراطورية مهدداً عمد الامبراطور إلى الاستنجاد باقوى امير فى غرب أوربا وهو البابا ، وصادف أن أول طلب للامبراطور وصل الى البابا غريغورى السابع سنة ١٠٨٠ فكان وفق أمانيه . ولولا اشتغاله بنزاعه مع الامبراطور لبدأت حركة الحروب الصليبية فى عهده

ثم استنجد الامبراطور « الكسيوس Alexius » مرة ثانية بالبابا « اربان الثانى Urban II » سنة ١٠٩٥ وكان هذا البابا فرنسى الاصل تخرج فى دير كلونى Cluny . وبفضل ما أوتيه من العلم وما كانت عليه البابوية من القوة جمع سنة ١٠٩٥ مجلساً عاماً فى « كليرمنت Clermont » ، تمثلت فيه كل الطوائف من جميع أنحاء غرب أوربا وحضره من الاساقفة مائتان وخمسة وعشرون أسقفاً . فخطب البابا هذا الجمع كما خطبهم سفراء الكسيوس وكان « أربان » خطيباً مؤثراً فشرح حالة بيت المقدس وأعلن لزوم انقاذه من أيدى المسلمين وحرض الناس على الانضمام للحركة . وأعلن حماية الكنيسة لاملاك المحاربين وعائلاتهم وغفرانها ذنوب الخاطئين ، ووعد الذين يموتون فى سبيل هذه الحرب جنات النعيم ، فاجاب الجميع بصوت واحد « هكذا أراد الله Dieu le veut » . عند ذلك وضع البابا الصلبان على أذرع الذين تطوعوا ولذا سميت الحروب بالصليبية .

مجلس كليرمنت

هكذا أراد الله

وسرت فى الناس روح دينية قوية تسربت الى أعماق نفوسهم ، فهرعوا من جميع غرب أوربا ومعهم عائلاتهم مدفوعين بهذه الفكرة

الجديدة . والحقيقة أن أوربا المتنازعة المتنافرة ، المنقسمة الى دوقيات وإقطاعات عدة ، قد اتحدت لأول مرة بعد سقوط الدولة الرومانية وأصبحت يداً واحدة وتمسكت بفكرة عامة . ومما يزيد فى أهمية هذه الحركة أنه لم يظهر فى الشرق مثل هـذا الشعور أمام خطر هجوم الصليبيين ، بل ظل الأمراء المسلمون متنازعين حتى ظهر صلاح الدين بعد قرن من الزمان

وعلى أثر انتشار الدعوة اجتمعت الطبقات المنحطة من رقيق ومساجين وأشقياء ، وساروا من غير نظام ولا استعداد يريدون تخليص بيت المقدس غير عالمين بطول المسافة بين بلادهم وبين هذه الجهة . واقترفوا فى طريقهم جرائم وفظائع أدت الى قيام المجريين والبوزنطيين ضدهم . وأخيراً وصلوا الى القسطنطينية ورأى الامبراطور أن يتخلص منهم فساعدهم على العبور، فوصلوا الى « نيقية » وكان عددهم ثلثمائة ألف فقابلهم هناك السلاجقة وأفنوهم عن آخرهم سنة ١٠٩٦ . والمسئول عن هذه الحملة « بطرس الناسك » الذى جعل يطوف فى أوربا يحث الناس على محاربة المسلمين والفارس الفرنسى الملقب « والتر المفلس »

حملة بطرس الناسك

الحملة الصليبية الاولى (١٠٩٧ — ١٠٩٩)

فى هذه الاثناء كان الاستعداد للحملة الأولى قائماً على قدم وساق وكثر المتطوعون من الفرنسيس والبرغنديين والنورمنديين . ورؤساء هذه الحملة من طبقة الاشراف والأمراء التى تلى طبقة الملوك . وأهمهم « جدفرى Godfrey » دوق اللورين و« ريموند Raymond » دوق بروفنس »

زعماء الحملة

فى جنوب فرنسا و «بوهمند Behemund» ابن روبرت جسكارد مؤسس مملكة النورمنديين فى جنوب ايطاليا

ويعد « جدفرى » أصلح الصليبيين وأحبهم الى الناس، أما « ريموند » فكان أرفعهم منزلة، وأما « بوهمند » فكان أقواهم وأشدهم مراساً. واتخذ كل زعيم طريقاً خاصاً مع أتباعه واتفقوا على أن يجتمعوا فى القسطنطينية جميعاً سنة ١٠٩٧، لأن ذهابهم مجتمعين يجعل المؤونة صعبة. فلما اجتمعوا فى القسطنطينية بلغوا مائة الف فارس وستمائة الف من المشاة من حجاج وقساوسة وغير ذلك خلا النساء والاطفال

خوف الكسيوس منهم

ولم يكن الامبراطور الكسيوس مستعداً لقبول هذا العدد العظيم فى عاصمة ملكه وخاف أن يدبر الصليبيون خلعه، وكل ما كان يرمى اليه من الاستعانة بأوربا هو أن ترسل اليه نجدة تساعده على السلاجقة. فلما سمع بهذا العدد العظم والزعماء المشهورين وعدم مبالاتهم بسلامة دولته، أخذ الحيطة لنفسه وحاول ان يستخدمهم فى تحقيق أغراضه فكان لا يكاد زعيم يصل الى العاصمة حتى يقنعه الامبراطور أن يرد الى الدولة ما عسي ان يستولى عليه من مدن وأقاليم كانت الى عهد قريب تابعة لها، نظير امداد الصليبيين بالمؤن والذخائر أثناء سيرهم الي بيت المقدس

ولما انتظم عقدهم، عبروا الى الاناضول فى صيف سنة ١٠٩٧ وحاصروا « نيقية » فنقل « قليج ارسلان » صاحب سلطنة الروم عاصمته الى قونيه.

موقعة دوريليم

وبعد الاستيلاء على نيقية تقدم الصليبيون الى دوريليم (اسكى شهر) حيث هزموا جيوش ارسلان فلم يعد يعترض سبيلهم. وتفرغ الكسيوس الى استرجاع أسيا الصغرى ويئس من اتفاق الغربيين فكف عن

مساعدتهم، بل جعل يناهضهم رجاء ان ينتزع كل ما دخل فى حوزتهم

بعد موقعه دوريليم أرسل بوهمند أخاه تنكرد للاستيلاء على كيليكيا، فتقدم الى « الرها أو ارفا Edessa » وانتزعها من يد الامير التركى وكون فيها أول أمارة لاتينية سنة ١٠٩٨



قتال بين الصليبيين والمصريين (الصليبيون على اليسار)

فتح انطاكية

أما بقية الصليبيين فزحفوا الى انطاكية وحاصروها فى اكتوبر سنة ١٠٩٧ فقاومت تسعة أشهر ذاق فيها الغربيون ويلات الجوع والبرد والطاعون حتى كاد يستولى عليهم اليأس. ولو اتحد امراء المسلمين فى سوريا لقضوا على الحملة إذ ذاك، ولكن انقسامهم مكن الصليبيين من الانتصار فأذاقوا أهل المدينة سوء العذاب وقتلوا منهم عشرات الالوف

وانتخبوا « بوهمند » اميراً على انطاكية وما يليها

فتح بيت المقدس

وبعد أن استراحت الجنود تقدم كثير منهم الى «أورشليم» فى يونيه سنة ١٠٩٩ وكانت فى يد حامية مصرية صغيرة، فحاصروها خمسة أسابيع ثم وعدوا بالمحافظة على رجال الحامية ولكنهم ما كادوا يدخلونها حتى حدثت مذبحة عظيمة قتل فيها أكثر من سبعين ألفاً، وكتبو الى البابا يهنئونه بقولهم «اذا أردت أن تعلم بما جرى لأعدائنا، فثق أنه فى إيوان سليمان ومعبده، كانت خيلنا تخوض فى بحر من دماء الشرقيين الى ركبتيها»

وبعد الفتح انتخبوا « جدفرى » ملكا على بيت المقدس ولكنه اكتفى بلقب حامى قبر المسيح. وانتخب بعده أخوه بلدوين وشرع الغربيون يخضعون المدن الباقية فى فلسطين. وسهل عليهم هذه المهمة المساعدات التى كانت تقدمها لهم أساطيل المدن الايطاليه فأخذوا عكا سنة ١١٠٤، وصور سنة ١١٢٤. وأنشأوا إمارة طرابلس وولوا عليها ريمند دوق تولوز

نتائج الحرب الصليبية الاولى

١ — تكونت أربع إمارات لاتينية فى الشام (ا) بيت المقدس وحاكمه جدفرى ثم من بعده أخوه بلدوين (ب) انطاكية وأميرها بوهمند أولا واخوه تنكرد ثانياً (ج) طرابلس وأميرها ريمند (د) الرها وحاكمها بلدوين. ولم يحاول الصليبيون إخضاع بلاد الشام، بل اقتصروا على احتلال السواحل وتركوا المدن الهامة التى فى الداخل مثل دمشق وحلب

٢ — ضمت الدولة البوزنطية جزءاً عظيماً من آسيا الصغرى بعد أن فتحه الصليبيون

٣ — بدأت جمهوريات جنوه والبندقية وبيزه تؤسس علاقاتها التجارية مع الشرق بفضل مساعدة الصليبيين ، وجاء الى بلاد فلسطين كثير من الاوربيين

٤ — قامت العلاقات بين أمراء الصليبيين وأشرافهم وفق نظام الاقطاع المتبع فى أوربا ، فكانت كل أمارة مستقلة تماماً عن الأخرى رغم أنهم اعتبروا ملك بيت المقدس سيداً لهم

٥ — لما كان العنصر الفرنسي متغلباً على غيره أصبحت اللغة الفرنسية هى السائدة وأطلق العرب عليهم جميعاً لقب الفرنجة

الفرسان الرهبان

٦ — ظهرت طوائف جمعت بين مبادىء الرهبنة ومبادىء الفروسية، مهمتها حماية المسيحيين والعناية بالمرضى والجرحى أثناء الحروب ، وكانوا يأخذون على أنفسهم العهود المتبعة وهى الفقر والطهارة والطاعة . وأهم هذه الطوائف « فرسان المعبد Knights of the Temple » وأعضاء هذا العهد يسمون Templars و « فرسان القديس يوحنا Knights of St. John » ويلقبون باسم Hospitallers و « فرسان التيوتون » وغيرهم . وما لبث ان انضم الاشراف والفرسان بكثرة الى هذه الطوائف وانهالت عليهم المنح والاراضى والاموال ، حتى أصبحوا من أغنى الطوائف

امتزاج الصليبيين بالاهالى

٧ — لم يمض جيل على وجود الصليبيين بالاراضى المقدسة حتى اندمجوا فى الاهالى وتصاهروا معهم وتأثروا بالبيئة الجغرافية . وقد كان المسيحيون الشرقيون ضد الصليبيين ، والدليل على ذلك أنه فى الحروب المقبلة لم يستنجد الصليبيون بمسيحى الشرق مثل الشام مثلا

الحرب الصليبية الثانية

تمهيد

من أهم العوامل التى ساعدت الصليبيين على نجاحهم فى الحرب الاولى ، انقسام دولة السلاجقة وعدم ظهور زعيم يجمع شتات القوات الاسلامية ويقودهم ضد الصليبيين . ولكن فى سنة ١١٢٧ ظهر أول زعيم من أمراء السلاجقة عمل على توحيد قوى المسلمين وايجاد وحدة قوية فى الشرق تناوىء الصليبيين وتطردهم من ديارها ، وهذا هو عماد الدين زنكى الذى عين فى تلك السنة أتابكا على الموصل والعراق. ولما كانت أملاكه مهددة بوجود الصليبيين فى الرها توفرت أسباب النزاع بينه وبينهم . ثم مالبث أن استنجد به بعض مدن الشام مثل حلب وحماة ودمشق ضد الصليبيين فسار إلى الشام واحتل حلب وبعض مدن أخرى .

عماد الدين زنكى

وفى سنة ١١٤٤ تمكن من فتح مدينة الرها وكانت من أمنع وأهم ممتلكات الصليبيين . وأثناء ما كان يواصل فتوحاته مات مقتولا سنة ١١٤٦ . وكان أميراً مصلحاً شهماً مشجعاً للتجارة والعلوم ، أعاد الأمن فى البلاد والثقة فى نفوس القوم وترك من أولاده «سيف الدين» الذى خاف أباه فى الموصل و«نور الدين محمود» الذى خلفه فى الشام واتخذ حلب مقراً له

نور الدين

نشأ نور الدين فى معسكر أبيه أميراً شجاعا مشرعا عادلا مستنيراً ، واصل سياسة أبيه فى مكافحة الصليبيين وتوحيد القوات الاسلامية ضدهم

وفي سنة ١١٤٧ دمر مدينة الرها على أثر فتنة قام بها الأرمن، فأثارت هذه الحادثة الشعور الديني فى أوربا من جديد وقامت الحرب الصليبية الثانية خوفاً من تقدم المسلمين بزعامة نور الدين

الحرب الصليبية الثانية ١١٤٧ — ١١٤٩

انزعج الناس فى أوربا وخافوا نتيجة انتصارات نور الدين فقامت حركة دينية شبيهة بالحركة التى سبقت فى الحرب الأولى . ويرجع الفضل فى تحريك همم المحاربين هذه المرة الى الراهب الفرنسى « سان برنارد » ، وكان ذا نفوذ عظيم فى جميع غرب اوربا . ذكياً فصيحاً ، أمكنه بهذا التأثير أن يضم الى صفوف المحاربين الملوك والامراء . وفعلا انضم ملك فرنسا لويس السابع وأمبراطور المانيا كنراد الثالث . وكان العنصر الالمانى فى هذه الحرب هو المتفوق على كل العناصر الأخرى . وقد أخذ ملك فرنسا زوجته معه وكثر عدد السيدات فى هذه الحملة

زعماء الحملة

وأول من بدأ بالسير هم الالمان بقيادة الامبراطور فاتخذوا طريق البر ورحب بهم المجريون والبوزنطيون للصلة العائلية التى تصله بامبراطور الشرق . ولم يشأ أن ينتظر ملك فرنسا ، فعبر البحر الى آسيا الصغرى واخترقها وتكبد خسائر عظيمة بسبب الجوع ومهاجمة السلاجقة له . فاضطر الي الرجوع الى نيقية حيث تقابل مع الفرنسيس وساروا فى طريق أزاء سواحل آسيا الصغرى ، ولكن هجمات السلاجقة لم تنقطع فأكملوا طريقهم بحراً ووصل الفرنسيون الى انطاكية سنة ١١٤٨

مقاومة السلاجقة

أما الامبراطور كنراد فوصل الى عكا، وانضم الفريقان بعد أن باد

ثلاثة أرباع قواتهم الأصلية وقصدوا دمشق وبذلك ارتكبوا غلطة سياسية لأن أمير دمشق كان مواليا للصليبيين ـ وجاء أتابكة الموصل وأتابكة حلب واجتمعت قوات سيف الدين وقوات نور الدين للدفاع عن دمشق ، فلما لم يقو الصليبيون على أخذها عاد الامبراطور ثم ملك فرنسا إلى اوربا. وفشلت الحرب الصليبية الثانية فشلا كانت نتيجته تقوية الوحدة بين المسلمين واظهار ضعف الصليبيين فى الشام، فقل عدد الحجاج وانقضت اربعون سنة دون قيام حملة كبيرة

فشل الحملة

مقدمة الحرب الصليبية الثالثة

استيلاء نور الدين على دمشق

بقيت أمام نور الدين مشكلتان (١) أخذ دمشق التى كان أميرها موالياً للصليبيين (٢) محاولة أخذ مصر ومنع الصليبيين من تقوية نفوذهم فيها . أما دمشق فقد استولى عليها نور الدين سنة ١١٥٤ على أثر استنجاد أهلها به ضد الصليبيين ، وتعد هذه خطوة هامة فى سبيل توحيد القوات الاسلامية .

نحو تكوين مصر

بقيت مسألة مصر ولما كان حكامها من الفاطميين الذين هم من الشيعة لم يشأ السلاجقة الانضمام اليهم . وكانت الخلافة الفاطمية فى آخر أيامها فى منتهى الضعف ، والقوة كلها فى أيدي وزراء لا هم لهم الا استبقاء السلطة فى أيديهم . لذلك طمع كل من السلاجقة والصليبيين فى الاستيلاء عليها وتسابق الى امتلاكها الفريقان — أما الصليبيون فكانوا يريدون مصر لعدة أسباب منها مركزها الحربى والايراد الذى يمكن الحصول عليه منها ، ولأهميتها من جهة المواصلات البحرية بين الصليبيين وبين أوربا.

أما أهميتها لنور الدين فهى أنها تضيق على الصليبيين الخناق من جهة الجنوب فتحصرهم بين نارين . ويتلخص النزاع من أجل مصر بين نور الدين والصليبيين فى الادوار الاتية

الدور الاول سنة ١١٦٤

بدأ النزاع بين وزيرين مصريين وهما ضرغام وشاور فى عهد « العاضد » آخر الخلفاء الفاطميين وكان شاور وزيراً فى الصعيد فعزله

ضرغام وشاور

ضرغام فاستنجد بنور الدين وقدم له شروطاً عظيمة وهى ثلث ايراد مصر يدفع بمثابة جزية عدا تكاليف الحملة . ولكن نور الدين تردد فى ذلك لعدم ثقته فى شاور ولان إرسال الحملة يعرضها لخطر مهاجمة الصليبيين . الا انه بعد الإلحاح قبل نور الدين ولبى الطلب . فلما وصل هذا الخبر الى ضرغام أيقن بالانهزام ففكر فى الامر وتم رأيه على أن يستنجد بالصليبيين فاتفق مع « أموري » Amalric ملك بيت المقدس (سنة ١١٦٣ — سنة ١١٧٤)

شيركوه فى مصر

وأرسل نور الدين قوة تحت قيادة « أسد الدين شيركوه » هزمت الصليبيين ومن معهم من المصريين ، وقتل ضرغام . فخلا الجو لشاور وأصبح وزيراً ، فلما تم له الامر فى مصر غير سياسته وأراد التخلص من السلاجقة ونسى كل ما تعهد به لهم سابقاً . ولكي يأمن شرهم كاتب الصليبيين الذين سرعان ما جاؤا لنجدته ولكنهم عجزوا عن طرد شيركوه

جلاء السلاجقة والصليبيين

بعد أن حاصروه ثلاثة أشهر فى بلبيس ، فاتفق الطرفان على أن يخليا مصر وتعهد الصليبيون بعدم التدخل فى شئونها

الدور الثانى سنة ١١٦٧

قبل ان يغادر الصليبيون مصر اتفق معهم شاور اتفاقاً سرياً ، فلما نما الى علم نور الدين خبر هذه المعاهدة اقتنع برأى شيركوه الذى ما فتىء ينصح لسيده بفتح مصر

وفى سنة ١١٦٧ جرد نور الدين حملة بقيادة شيركوه فسارت نحو مصر واخترقت الصحراء وعبرت نهر النيل الى الجيزة ، وما لبث أن جاء الصليبيون حسب الاتفاق السرى وعسكروا بالفسطاط وأرادوا أن يتثبتوا من المعاهدة فاستوثقوا من ذلك بعد مقابلة الخليفة الفاطمى «العاضد» وامضائها منه. وبعد أن وصل الصليبيون للشاطىء الغربى من النهر تقابل الجيشان فى واقعة «البابين» جنوب المنيا بعشرة أميال وانهزم الصليبيون. ودخل شيركوه الاسكندرية وعين صلاح الدين حاكما عليها . ولكن حاصره الصليبيون بمساعدة البوزنطيين من جهة البحر . ولما لم يتمكن من رد المحاصرين اتفق الفريقان على الهدنة ثم غادر شيركوه مصر بعد أن أخذ مبلغاً من المال من الملك «أمورى»، وكذلك غادرها الصليبيون بعد أن تركوا بها حامية منهم

واقعة البابين

اعترض بعض الصليبيين على الخطة التى اتبعها الملك أمورى فى الحرب السابقة وأظهروا له ضرورة الاستيلاء على مصر ، لانها المنفذ الوحيد للصليبيين بعد أن اشتد الضغط عليهم من الشمال فدخل الصليبيون مصر فاتحين هذه المرة وقتلوا أهل بلبيس واقترفوا فظائع شتى لكى يرهبوا البلاد وعسكروا قرب الفسطاط

الدور الثالث ١١٦٨

عند ذلك خشى شاور نجاح الصليبيين فقر رأيه على حرق الفسطاط منعاً لتقدمهم ، فاستمرت النيران بها اربعة وخمسين يوماً ، ولا تزال آثار هذه الحرائق موجودة بالفسطاط بالجهة الجنوبية الغربية من القاهرة

حرق الفسطاط

وعند ذلك استنجد الخليفة العاضد بنور الدين فجاء شيركوه للمرة الثانية يقود حملته فاستقبله المصريون كمخلص ولما كانت مملكة

بيت المقدس مهددة من الشمال بقوات نور الدين غادر الصليبيون البلاد بعد أن فشلوا فى الاستيلاء على مصر . وحاول شاور ان يتودد الى شيركوه فلم يفلح وقتل شاور سنة ١١٦٩ وأصبح شيركوه وزيراً على مصر ولم يبق فى الحكم إلا شهرين ثم مات وخلفه ابن أخيه صلاح الدين

صلاح الدين

تولى حكم مصر بعد شيركوه سنة ١١٦٩ فهو الذى انتفع بكل مجهودات عمه ولقب صلاح الدين بالملك الناصر وكان عمره إذ ذاك احدى وثلاثين سنة . وكان رجلا تقياً هادئ الاخلاق بسيطاً فى معيشته، عاهد نفسه منذ ان تولى أمر مصر أن يهب حياته لطرد الصليبيين من الشرق . وكان مركز صلاح الدين السياسى فى أول الأمر فى منتهى الدقة ، وذلك لأنه كان رئيس وزارة الخليفة الفاطمى الشيعى وفى الوقت نفسه قائداً من قواد السلطان نور الدين السنى المعين من قبل الخليفة العباسى ، وزيادة على ذلك لم يكن صلاح الدين أكبر قواد نور الدين الموجودين فى مصر فى ذلك الوقت ، ولذا كان يخشى كثيراً أن يدعوه نور الدين الى الشام ويعين قائداً بدله فى مصر

خلقه

موقفه

غير أن صلاح الدين بمهارته وحذقه السياسي أمكنه أن يوفق بين التناقض الظاهر فى وظيفته وأملت عليه سياسته أن يتريث فى تحويل المذهب الشيعى فى مصر . فبدأ بذكر اسم السلطان نور الدين بعد اسم الخليفة الفاطمى فى خطبة الجمعة، ثم أخذ يحبب للناس التعاليم السنية ففتح المدارس وأحضر العلماء وأخذ يهئ الجو للتغيير الدينى المنتظر ، ثم عمل

حذقه السياسى

على أن يقوى مركزه فى مصر من غير اثارة شكوك نور الدين فدعا اليها أهله وأقاربه واعتز بهم وصاروا من أخلص المؤيدين لسلطته ، ثم تحبب الى المصريين وأحسن معاملتهم وأجرى العدل بينهم

ولما شعر صلاح الدين بأن أعوان الخليفة الفاطمى يدبرون خطة ضده أخذ يضعف من قوتهم وقتل «جوهر» رئيس حرس الخليفة وكان من السودانيين ، وعلى أثر ذلك قامت فتنة السودانيين في الصعيد سنة ١١٦٩ واستمرت مدة ، ثم وصل الى علمه ميل الخليفة العباسى والسلطان نور الدين الى اقامة الشعائر السنية فى مصر بدل مذهب الشيعة فقرر أن تكون خطبة الجمعة باسم الخليفة العباسى وكان ذلك سنة ١١٧١ .

فتنة السودانيين

وبعدها بأيام مات «العاضد» آخر خلفاء الفاطميين في مصر دون أن يعلم بما حصل وبموته انقضت الخلافة الفاطمية وتحولت مصر الى المذهب السنى نهائياً وأصبح صلاح الدين الحاكم المطلق فى مصر . وقد حاول الصليبيون الذين فى بيت المقدس أن يحولوا دون امتلاكه إياها ، فحاصروا دمياط بحراً بالاشتراك مع البوزنطيين ولكنهم ارتدوا عنها وتكبدوا خسائر فادحة ، وكانت هذه آخر حرب هجومية قامت بها مملكة بيت المقدس فى مصر

مصر لصلاح الدين

العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين

لما قوى مركز صلاح الدين فى مصر ورأى نور الدين أن الزعامة فى الشرق قد تنتقل اليه توترت العلاقات بين الاثنين ، ولكن ما فتئ صلاح الدين للنهاية يظهر خضوعه وولاءه لنور الدين وينفذ أوامره .

وبهذه السياسة تمكن صلاح الدين من توسيع نفوذه ففتح بلاد النوبة واليمن، غير ان كل هذا لم يمنع نور الدين من أن يضمر له بعض السوء الى ان مات نور الدين فجأة سنة ١١٧٤ وخلا الجو لصلاح الدين

ولا شك أن نور الدين يعتبر من خيرة السلاطين الذين حكموا فى الشرق باتفاق آراء المؤرخين المسلمين والصليبيين فى ذلك الوقت ، إذ هو الذى أحيا دولة السلطان ملك شاه وحقق امانى عماد الدين زنكي، فوحد القوات الاسلامية فى الشام وحال دون انقسام كلمة المسلمين ازاء الصليبيين . وبموته أصبح صلاح الدين أقوى أمير مسلم فى الشرق

صلاح الدين والملك الصالح

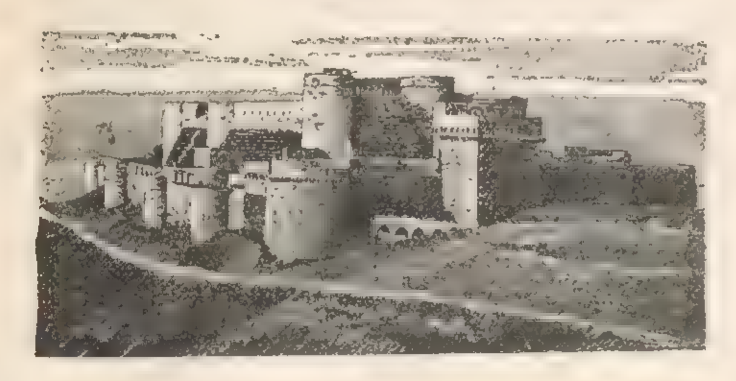
أما ابن نور الدين الذى خلفه وهو «الملك الصالح» فلم يكن له من العمر الا احدى عشرة سنة ، فوقع تحت نفوذ بعض وزرائه وحاول صلاح الدين أن يتفق مع الملك الصالح فيكون تابعاً له كما كان تابعاً لأبيه فلم يفلح وقامت الحرب بينهما : وكان طبيعياً أن يحارب صلاح الدين حتى تبقى وحدة المسلمين والا ضاعت المجهودات التى صرفت وانقسم المسلمون فى الشرق كما حصل على أثر موت عماد الدين زنكى . وانتهت الحرب بهزيمة الملك الصالح واخذ صلاح الدين دمشق وأصبح سلطان مصر والشام بموافقة الخليفة العباسى سنة ١١٧٥

ثم مات الملك الصالح سنة ١١٨١ فلم يجد صلاح الدين صعوبة فى أخذ حلب ثم الموصل وصار السيد الوحيد فى غرب اسيا بما فى ذلك سلطنة سلاجقة الروم. وعلى ذلك تحققت سياسة نور الدين وأصبح الصليبيون فى بيت المقدس محصورين بين قوات اسلامية متحدة من الشمال والجنوب والشرق

علاقات صلاح الدين مع الصليبيين فى بيت المقدس

ان الحروب التى قامت قبل ذلك بين المسلمين والصليبيين فى الشام لم تكن فى الحقيقة إلا مناوشات بسيطة انتهت بهدنة بينهم وبين صلاح الدين سنة ١١٨٠ . وأما الحرب العامة التى ستنتهى باخراج الصليبيين من بيت المقدس فسببها أنه سنة ١١٨٦ قام نزاع بين صلاح الدين والصليبيين بسبب ما كان يفعله أحد فرسان الصليبيين المسمى «ريجينولد Reginald of Chatillon » صاحب حصن الكرك من قطع طريق الحجاج والمسافرين إلى مصر وسلب القوافل . وقد حدث أنه سلب قافلة فيها أخت صلاح الدين فصمم هذا على الانتقام، وزاده تصميماً قيام «ريجينولد» بحملة يقصد بها تدمير مكة والمدينة. فقامت الحرب العامة بين المسلمين والصليبيين بقيادة صلاح الدين وسقط حصن الكرك. ثم تقابل

صاحب الكرك



قلعة الكرك

واقعة حطين

الفريقان فى واقعة «حطين» فى يوليه سنة ١١٨٧ فانهزم الصليبيون انهزاماً حاسماً وقتل منهم عشرة آلاف ووقع رؤساؤهم أسرى فى أيدى صلاح الدين ، ومن هؤلاء الاسرى صاحب الكرك و « جاى دى لوزنيان »

« Guy de Lusignan » ملك بيت المقدس ثم سقطت عكا ونابلس والرملة وقيسارية ويافا وبيروت ، وكلها كانت حصوناً هامة فتحت ابوابها للمسلمين من غير مقاومة

ثم فتح بيت المقدس عنوة ، واظهر صلاح الدين تسامحاً وليناً مقرونين بالشفقة والرحمة نحو فقراء الصليبيين والنساء والاطفال ، فقد ترك لهم فرصة أربعين يوماً لاخلاء البلد ، وفرض دية شخصية كان يدفع بعضها من جيبه الخاص . وقد سمح بفك أسر « جاى دى لوزنيان » بعد أن أقسم ألا يحاربه . ولم يبق للصليبيين من إماراتهم وممتلكاتهم سوى صور .

فتح بيت المقدس

الأسباب التى ساعدت على ضعف الصليبيين فى بيت المقدس

١ — لما مات الملك أمورى اعتلى العرش ملوك أطفال ضعاف وسادت المنازعات الأهلية

٢ — ان الصليبيين كانوا منقسمين على أنفسهم فلا اتحاد بين من كان منهم فى أنطاكية مثلاً ومن كان فى بيت المقدس

٣ — ساعد على ضعف الحكومة المركزية تفوق نظام الاقطاع بين الصليبيين

٤ — فساد أخلاق الصليبيين بسبب تأثير البيئة فيهم وخصوصاً أن عدداً كثيراً منهم كان من عائلات وضيعة فى أوربا

٥ — إن الشئون الاقتصادية أصبحت فى أيدى تجار ايطاليين من جنوه والبندقية فلم يستفد الصليبيون من ذلك شيئاً

الحرب الصليبية الثالثة

لما ذاع خبر انهزام الصليبيين فى حطين وفتح المسلمين بيت المقدس وانكماش دولة الصليبيين فى الشام، تهيأت أوربا لحرب صليبية جديدة — وكانت الحالة فى أوربا قد تغيرت فى القرن الثانى عشر عما كانت عليه فى القرن الحادى عشر، إذ بدأ الملوك فى أوربا يتغلبون على النظم الاقطاعية تدريجياً وأصبح سلطانهم قوياً فى البلاد وعلى ذلك لم يكن البابا هو المحرك الوحيد للحرب الثالثة كما حصل فى الحرب الاولى .

زعماء الحملة

وقد كانت هذه الحملة مكونة من جيوش قوية منظمة لا من طوائف همجية مدفوعة بعامل الحماسة الدينية من غير نظام ولا استعداد . وزعماء هذه الحملة هم الامبراطور فردريك بربروس وفليب اغسطس ملك فرنسا ورتشارد قلب الاسد ملك انجلترا، غير أنه ان صعب توحيد القوات الصليبية فى الحرب الاولى فان توحيدها فى الحرب الثالثة كان أصعب لتقدم روح القومية فى ممالك أوربا وما جرت اليه من التنافس . ومع ذلك كله فان وقع خبر سقوط بيت المقدس فى نفوس الناس كان سبباً فى تخفيف تلك الفروق والمنافسات بين الملوك فى مبدأ الحرب الثالثة

بربروس

وكان الامبراطور «فردريك بربروس» أول من تحرك للحرب إذ اجتمع الالمان فى « راتسبون Ratisbon » سنة ١١٨٩ واتخذوا الطريق البرى إلى آسيا الصغرى مخترقين بلاد المجر والبلقان . ثم ذهبوا إلى آسيا واخترقوا جبال طوروس ودخلوا بلاد الارمن فى كيليكيا سنة ١١٩٠، وهناك نزل الامبراطور فى نهر سالف وغرق . وكان لموت فردريك بربروس أثر

سيء فى نفوس أتباعه فتشتت شملهم وبدأوا ينخذلون بعد أن كانوا منتصرين ، وعاد جزء من الجيش إلى المانيا وسار الباقون بقيادة « دوق سوابيا » وهو ابن الامبراطور بربروس ، ولكنه هو أيضاً مات فى الطريق فتبدد الباقون ولم يصل منهم إلى عكا الا النزر اليسير

فليب أغسطس وقلب الاسد

وفى أثناء ذلك اجتمع «فليب اغسطس» ملك فرنسا مع «رتشارد» ملك انجلترا وقاما من مرسيليا ومعهما جيوشهما وكثير من الاشراف سنة ١١٩٠ فوصلوا الى صقلية ولبثوا فيها مدة سنة ، ثم قاما قاصدين عكا ولكنهما عرجا على قبرص فاحتلها رتشارد وبقي هناك الى أن استنجد به الصليبيون فى الشام ، لان جاى دى لوزنيان عاد فحنث بيمينه ودعا نفسه ملك بيت المقدس وبدأ يحاصر عكا، فجاء صلاح الدين بقواته وحاصره وضيق عليه وعلى من معه الخناق مدة طويلة

ويلاحظ أن صلاح الدين اكتفى بتفوقه البرى ولم يحاول حصار الصليبيين من جهة البحر ، وعلى ذلك أصبح هؤلاء متصلين بأوربا بحراً فكانت تأتى اليهم المؤن والرجال والذخائر . واستمر الحصار حتى جاء فليب اغسطس ملك فرنسا ورتشارد قلب الاسد ملك انجلترا وسقطت عكا فى أيديهما سنة ١١٩١

عند ذلك دب النزاع بين الصليبيين وخاصة بين رتشارد وفليب فغادر فليب الشام وأصبح رتشارد بمفرده ، وأراد أن يواصل انتصاراته فأظهر فى حروبه ضد المسلمين فروسية اكسبته شهرة عظيمة وانتصر على صلاح الدين فى واقعة « ارسوف » ولكن هذه الانتصارات لم تكن حاسمة . وعلي ذلك بدأت مفاوضات الصلح بين رتشارد وسيف الدين

واقعة أرسوف

صلح الرملة ١١٩٢

أخى صلاح الدين واتفقا نهائياً سنة ١١٩٢ على صلح الرملة وهو عبارة عن هدنة تستمر ثلاث سنوات وثمانية أشهر ويقضى بما يأتى

١ — يترك بيت المقدس تحت حكم المسلمين بشرط أن يسمح للمسيحيين بالزيارة والحج

٢ — أن يحمى الصليبيون ساحل الشام من صور الى يافا

٣ — أن يرد المسلمون المخلفات الدينية

وغادر رتشار الشرق سنة ١١٩٢ وفى أثناء الطريق وقع أسيراً فى يد «ليوبلد دوق النمسا» الذى سلمه الى الامبراطور هنرى السادس، ولم يفك هذا أسره الا بعد أن دفع دية كبيرة. وما لبث صلاح الدين ان مات سنة ١١٩٣


نسر صلاح الدين

وكانت نتيجة الحرب الصليبية الثالثة ان أصبحت عكا مركزاً سياسياً للصليبيين بدل بيت المقدس، وامتد أجل بقائهم في الشام مائة سنة أخرى. اما أملهم في الاستيلاء على بيت المقدس فقد تبدد نهائياً

الحرب الصليبية الرابعة ١٢٠٢ — ١٢٠٤

فى سنة ١١٩٨ بدأت الحملة الرابعة التى انضم اليها عدد كبير من الطبقات الوضيعة مثل الحملة الأولى. وكان السبب في قيام هذه الحملة

تحريض البابا « انسنت الثالث » وأهم زعمائها « بلدوين دوق فلندره »، واتفق الصليبيون مع رئيس جمهورية البندقية « الدوج دندولو » — وكان رجلا كبير السن كفيف البصر سياسياً كثير المكر والخداع — على أن يمدهم بالسفن والمؤونة مقابل مبلغ من المال وتعهدوا له أن يقتسموا معه كل الغنائم والاراضي التى تقع فى أيديهم

الدوج دندولو

وكان غرض الصليبيين الوحيد الوصول الى مصر ولكن «الدوج « دندولو » Dandolo بمهارته أمكنه أن يؤثر فى الصليبيين وأن يستخدمهم فى مصالح البندقية الخاصة، فساعدوه في اخضاع مدينة «زارا» سنة ١٢٠٢ وكانت تابعة للمجر. ثم زارهم أمبراطور قسطنطينية المخلوع واستنجد بهم ومناهم اذا هم ساعدوه فى استرداد عرشه. فقصدوا القسطنطينية سنة ١٢٠٣ ولم يلقوا صعوبة فى الاستيلاء عليها . ثم طالبوا الامبراطور بالمبلغ الذى وعدهم به ،واشتط هذا فى جمع النقود من الناس فقاموا بالثورة ضد الصليبيين . عند ذلك فر الامبراطور وقام الصليبيون يدافعون عن أنفسهم فدمروا وقتلوا وسلبوا ونهبوا وكسروا التماثيل التى كانت بالميادين وأخذوا الصور الفنية ، وأصبحت القسطنطينية وباقى ممتلكات الدولة فى أيدى الصليبين والبنادقة مناصفة .والمدهش أن هذه الحركة لم تسبب قيام المسيحيين فى أوربا ضد ما اقترفه الصليبيون فى القطسطنطينية . وهذا يدل على أن شعور الاوربيين من حيث الحروب الصليبية أخذ يضعف

الاستيلاء على الدولة البوزنطية

وقد قابل البابا انسنت الثالث قيام الحكومة والكنيسة اللاتينية فى القسطنطينية بالاستحسان . واختار الصليبيون «بلدوين دوق فلندره»

أمبراطور على القسطنطينية وتركوا للبنادقة اختيار الرئيس الدينى للقسطنطينية . وقد قسم الصليبيون البلاد الى اقطاعيات حسب نظام الاقطاع وأصبح أشراف الصليبيين أدواقا على هذه الاقطاعات، ونشأت دوقيات فى سلانيك و نيقية وفى أثينا. أما البنادقة فاكتفوا باحتلال المرافئ والسواحل وأصبحت جميع التجارة فى أيديهم

وقد استمرت حكومة اللاتيذيين فى القسطنطينية الى سنة ١٢٦١ وقامت فى هذه الاثناء حرب بينهم وبين البلغار انهزم فيها الصليبيون. وفى النهاية تمكن أحد البوزنطيين المسمى « ميخائيل باليولوغس » من تأسيس إمارة فى نيقية سنة ١٢٥٩ . ثم هاجم القسطنطينية وزالت دولة الصليبيين الذين قاموا بالحملة الرابعة . واستمر بقاء البوزنطيين فى القسطنطينية الى سنة ١٤٥٣ حين جاء الترك . ولم يكن للحملة الصليبية الرابعة نتيجة سوى اضعاف وسائل الدفاع فى القسطنطينية

نهاية الحروب الصليبية

أما الحروب الصليبية التى تلت ذلك فهى حملات ثانوية ليس لها من الاهمية ما لسابقاتها . وآخر مظهر من المظاهر الدينية التى استولت على الاوربيين الحملة التى قام بها الاطفال سنة ١٢١١ فى المانيا وفى فرنسا . فقد قام هؤلاء الاطفال واجتمعوا وصمموا على الذهاب الى بيت المقدس بعد ان انتخبوا منهم رؤساء . أما الاطفال الذين جاءوا من المانيا فارجعهم البابا ، وأما أطفال فرنسا فذهبوا الى مرسيليا ومنها أخذهم بعض التجار و باعهم فى الاسواق بيع السلع ، بعد أن مناهم بانه سيحملهم الى بيت المقدس

الحملات الصليبية التى وجهت ضد مصر

لما مات صلاح الدين سنة ١١٩٣ ، قسمت دولته بين أولاده الثلاثة وبين أخوته وقامت الحروب بين أفراد العائلة ، ولكن لحسن الحظ ما لبثت الحالة إلا قليلا حتى ظهر سيف الدين — أخو صلاح الدين وساعده الايمن فى حروبه — فحال دون انقسام الدولة . وكان يلقب بالملك العادل وكان من اكفأ القواد وأمهر السياسيين ورجال الدين؛ فاتفق مع أحد أبناء صلاح الدين واحتفظ بوحدة المسلمين فى غرب آسيا وأصبح لمصر المكانة الاولى بين تلك الامارات . وكان «القاضى الفاضل» المشهور بأدبه وعلمه يساعد سيف الدين فى شئون البلاد

ولما أيقن الاوربيون انه لا فائدة من استرداد بيت المقدس ما دام السلطان الايوبى قويا فى مصر ، وجهوا حملاتهم ضدها . وأول هذه الحملات هى حملة «جان دى برين Jean de Brienne» سنة ١٢١٨ م

الحملة الاولى

هاجم الصليبيون دمياط وعلى الرغم من مناعة المدينة وكبر حاميتها سقطت وأتوا فيها بفظائع كثيرة ، واستعد الصليبيون بعد انتصارهم فى دمياط للزحف على القاهرة وفى هذه الاثناء مات الملك حزينا ، والقى مسئولية طرد الصليبيين من مصر على عاتق ابنه «الملك الكامل» (١٢١٩-١٢٣٨) الذى ورث جميع الصفات الحسنة التى كانت لأبيه وعمه ، فاقام الملك الكامل الاستحكامات للدفاع عن المنصورة . ولما خشى من اطراد نجاح الصليبيين تقدم لهم بشروط مدهشة وهى ترك مصر وأخذ بيت

المقدس . ولكنهم لم يقبلوا لانهم كانوا منتصرين ولأن مأربهم كان القضاء على مصر لأنها أهم من بيت المقدس، ولأن الروح الدينية كانت قد قلت وحلت محلها المصلحة المادية ، ولأن بيت المقدس محاط بامارات اسلامية فلا يسهل الاحتفاظ به

وقد أخطأ الصليبيون فى اتخاذ الطريق الى القاهرة فساروا من وسط الدلتا حيث الترع منتشرة وتركوا الطريق الذى يخترق الصحراء الشرقية . وقد وقف لهم الملك الكامل فى المنصورة مع النجدات التى جاءت اليه من جميع الممالك الاسلامية وكان الوقت اثناء الفيضان ، فقطع المصريون الجسور وأحاطت المياه بالصليبيين فلم يروا بداً من طلب الصلح وعادوا سنة ١٢٢١ .

الحملة الثانية

وهى حملة الامبراطور فردريك الثانى

كان الامبراطور فردريك قد وعد البابا انسنت الثالث بالقيام بحرب صليبية ولكنه ظل يتنحل الاعذار حتى قام فى سنة ١٢٢٨ . وكان قد تزوج بابنة « جان دى برين » واتخذ لقب ملك بيت المقدس شرفاً . ولما قام بحملته كان محروماً من الكنيسة ولم يأخذ معه سوى خمسمائة فارس فكانت حملة غريبة من كل الوجوه . ومع ذلك فانه بسياسته ، ولما اشتهر عنه من عطفه على المسلمين، صادفت حملته نجاحاً لم تصادفه الحملات السابقة اذ اتفق مع السلطان الكامل — وكان متخوفاً من ضياع دمياط وتهديد القاهرة مرة أخرى — فسارع لعقد اتفاق مع فردريك الثانى بمقتضاه

اتفاق الكامل وفردريك

(١) اعطى فردريك بيت المقدس بشرط أن يحتفظ المسلمون بالاماكن الاسلامية المقدسة، ومقابل ذلك يتعهد فردريك بمساعدة الملك الكامل ضد أعدائه سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين

(٢) يتعهد فردريك بعدم ارسال النجدة للامارات الصليبية الموجودة فى الشام

ولما ذاع خبر هذا الاتفاق أنكره المسلمون والصليبيون فى وقت واحد . والحقيقة انه من الصعب الحكم على مزايا الاتفاق وهل هى فى مصلحة المسلمين أم فى مصلحة الصليبيين . ولكن أهميته للمسلمين هى أن احتفاظ الملك الكامل بمصر أهم بكثير من بيت المقدس لان مصر كانت بلد خصب ورخاء فى حين أن بيت المقدس بلد جدب

أما الصليبيون فقد كان الاتفاق ضرراً عليهم لأنه نص على ألا تأتيهم النجدات من أوربا وهذا اضعاف لهم، ولا يغنى عنهم حكمهم بيت المقدس وحوله الامارات الاسلامية لان المسلمين لا بد أن يستولوا عليه يوماً ما

عودة فردريك

ومع ذلك فان فردريك الثانى والملك الكامل قد قبلا هذه الشروط ودخل فردريك الثانى بيت المقدس وتوج نفسه ملكا هناك ، ولكنه لما كان محروماً من الكنيسة انفض عنه الصليبيون فغادر بلاد الشام وعاد الى أوربا واصطلح مع البابا مؤقتاً نخفف البابا من حدته. وبقى بيت المقدس فى أيدى الصليبيين حتى جاء الملك الصالح أيوب واسترده سنة ١٢٤٤

الحملة الثالثة

وهى حملة لويس التاسع St. Louis ملك فرنسا سنة ١٢٤٩

لم تكن هذه الحملة حملة صليبية عامة بل كانت قاصرة على الفرنسيين وكان

لويس التاسع ملكا تقياً صالحاً مدفوعاً بالعامل الديني وهو يشبه جدفرى دوق بويون .

سقوط دمياط

قصد الفرنسيون مصر واستولوا على دمياط سنة ١٢٤٩ . وارتد المصريون الى المنصورة وحصنوا موقفهم هناك ، ولكن لويس التاسع ارتكب الغلطة التي ارتكبها جان دى برين من قبل وهى السير الى القاهرة عن طريق الدلتا حيث تكثر الترع . عبر الصليبيون النهر وأقاموا استحكامات أمام المنصورة عند البحر الصغير وبنوا قنطرة على هذه الترعة، وفى هذه الاثناء مات الملك الصالح أيوب الذى خلف أباه

شجرة الدر

الملك الكامل سنة ١٢٣٨. ولكن زوجته «شجرة الدر» اتفقت مع باقي الأمراء على مواصلة الدفاع ضد الصليبيين من غير أن يعلموا الناس خبر موت السلطان. وأخذت تباشر الحكم الى أن جاء «توران شاه» بن الملك الصالح وتركت له مهمة الدفاع

توران شاه

لم يكد توران شان يتسلم الامر حتى نظم قوات الدفاع ، فنقل أجزاء السفن على ظهور الجمال الى دمياط وعندها ركبت السفن ونزلت بالبحر وهاجمت الصليبيين فى دمياط . وفى أثناء ذلك كان الملك لويس قد أعياه الوقوف أمام المنصورة وفشا المرض بين جنوده وحاول الهجوم على المسلمين فلم يفلح . وعلى ذلك قرر التقهقر نحو دمياط وحرق كل العدد والاستحكامات التى كانت مع الصليبيين ما عدا القنطرة التى كانت على

واقعة فارسكور

البحر الصغير. وتعقبهم المسلمون ولحقوا بهم عند فارسكور، وانسد أمامهم

الطريق بسبب وقوع دمياط فى أيدى المسلمين فانهزم الصليبيون انهزاماً حاسما ، وقتل منهم نحو ثلاثين ألف وأسر الملك ومن معه من الطبقات الشريفة ، ولم يفك أسره الا بعد دفع دية عظيمة من المال

أسر لويس التاسع

أما توران شاه فقتله المماليك لشدته . وكان المماليك من أقوى العناصر التى ساعدت على هزيمة الصليبيين فقوى مركزهم وعملوا على أخذ الملك من أيدى الايوبيين

بدء المماليك البحرية

وبتوران شاه انتهى عهد الايوبيين فى مصر وبدأ عهد سلاطين المماليك البحرية . وقد أدى الايوبيون لمصر خدمات جليلة اذ حموها من هجمات الصليبيين وكان أكثر ملوكهم ذوى مقدرة وكفاءة وكذلك كان الوزراء، وقد كانت سياستهم التجارية حازمة فاتفقوا مع البنادقة وعقدوا معاهدات تجارية كان من شأنها ان زادت فى ثروة مصر، وقد اهتموا بالعلوم والادبيات اهتماماً عظيما فظهر فى عهدهم الكتاب والمؤرخون مثل القاضى الفاضل وبهاء الدين زهير وكثر المتعلمون وانتشرت المدارس وظهرت نهضة أدبية عظيمة

وبعد استيلاء جنود الملك الصالح أيوب على بيت المقدس سنة ١٢٤٤ لم يبق للصليبيين الا بعض مدن على الساحل وعادت الحال إلى ما كانت عليه سنة ١١٨٧ أى بعد واقعة حطين. واستمر لقب بيت المقدس يتوارثه أبناء أسرة الهوهنشتاوفن الى أن انقرضت هذه الاسرة فاتخذ ملوك قبرص هذا اللقب (لأنهم من نسل جاى دى لوزنيان) . وظلت عكا أهم مركز سياسى وتجارى فى يد الصليبيين واستمرت المنازعات الداخلية قائمة بينهم وبين تجار البندقية وجنوه

وفى أثناء هذا النزاع كانت قد ظهرت دولة المغول فى الشرق واستولت على البلاد الشرقية واستولى «هولاكو» المغولى على بغداد سنة ١٢٥٨ ودمرها وقتل الخليفة العباسى وقضى على الخلافة العباسية. وحاول الصليبيون أن يستميلوا المغول نحوهم ضد المسلمين، ولكن جاء أحد سلاطين المماليك المدعو «قطز» وانتصر على المغول فى واقعة «عين جالوت» فى الشام سنة ١٢٦٠ وهى من الوقائع الحاسمة فى تاريخ الشرق

وقعة عين جالوت

ثم جاء السلطان «بيبرس» سنة ١٢٦٢، وجدد عهد صلاح الدين فى غرب آسيا. وأخذ يخضع ممتلكات الصليبيين مدينة بعد اخرى وحصناً بعد آخر، فاستولى على يافا سنة ١٢٦٨ ثم اتجه شمالا وأخذ انطاكية. وفى سنة ١٢٨٩ سقطت طرابلس وأخيراً سقطت عكا سنة ١٢٩١ وانتهى عهد الصليبيين فى الشرق

نتائج الحرب الصليبية

كان للحروب الصليبية نتائج ظاهرة أهمها ما يأتى:

١ — صانت دولة البوزنطيين وحالت دون مهاجمة السلاجقة لأوربا. ولو ترك السلاجقة لابتلعوا جزءاً كبيراً منها

٢ — ظهور المدن فى أوربا وخصوصاً المدن التجارية وشراء حريتها من الأشراف بالمال والتقليل من نفوذ الأشراف. وظهور الطبقات الوسطى وتقوية مركز الملوك فى أوربا. ومعنى هذا القضاء على نظام الاقطاع وازالة بعض الفوارق التى كانت تفرق بين الطبقات فى أوربا. ومن أهم المدن التى نشأت فى ذلك الوقت مدن ايطاليا المستقلة. وكانت هذه المدن واسطة الاتصال بين الشرق والغرب فأدخلت الى

أوربا كثيراً من نفائس المصنوعات والمحصولات الشرقية

٣ — اختلط الغربيون بمدنية أرقى من مدنيتهم ، فتعلموا منها أشياء كثيرة لطفت من خشونتهم وهذبت أخلاقهم . وقد أدى اتصال المسيحيين بالمسلمين الى تخفيف حدة التعصب الديني الذى ينشأ عادة من جهل الناس بأحوال الشعوب الأخرى . وقد أدى هذا الاتصال أيضاً الى تسرب علوم المسلمين الى أوربا وانتشارها هنالك بالتدريج، حتى نشطت أفكار الاوربيين من عقالها ونفضت عنها غبار العصور الوسطى . وما زالت هذه الحركة الفكرية تنمو حتى أخذت شكلها النهائي فى النهضة الاوربية

٤ — بدأ اهتمام الناس باخبار الرحلات والاستكشافات وذلك على أثر ما حمله الصليبيون الى بلادهم من حوادث وأخبار البلاد التى زاروها . وكانت نتيجة ذلك ان ظهر الرحالة « مركوبولو Marco Polo » فى القرن الثالث عشر . وهذه الرحلات مهدت الطريق لظهور « خرستوف كلمب » فى المستقبل

٥ — علمت شعوب أوربا وملوكها الاتحاد من أجل غرض واحد

٦ — قوت مركز البابا فى نزاعه مع الامبراطور

٧ — نشطت التجارة بين الشرق والغرب وصارت مصر وسوريا سوقاً تجارية بين الغرب والشرق، فزادت ثروة الحكومة والاهالى زيادة عظيمة ظهر أثرها فيما شاده سلاطين المماليك من الآثار . وبقي الأمر كذلك الى أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت التجارة والنهضة من الشرق الى الغرب

الفصل الثامن

ضعف البابوية فى اوربا

ان فى قيام الحرب الصليبية لدليلاً محسوساً على ما كان للبابا من القوة والنفوذ فى أوربا فى العصور الوسطى . وان تأسيس الامارات الصليبية فى سوريا وفلسطين واتصال الصليبيين فيها بالكنيسة اللاتينية فى روما بعد الحملة الاولى جعل للبابا فى أوربا مركزاً متفوقاً، بلغ منتهى قوته عندما اقام الصليبيون كنيسة لاتينية فى القسطنطينية من سنة ١٢٠٤ الى سنة ١٢٦١ . غير أننا إذا دققنا النظر وجدنا ان هذا التفوق لم يكن حقيقاً، وانه قد بدأ يضعف فى القرن الثالث عشر، فقوة الشعور الدينى التى ظهرت فى الحروب الصليبية الأولى لم يعد لها اثر يذكر فى الحرب الرابعة وما تلاها

ويمكن فهم أسباب ضعف البابويه منذ القرن الثالث عشر اذا عرفنا أهم الاسباب التى ساعدت على تقويتها فى العصور الوسطى

اسباب ضعف الكنيسة

قوى مركز الكنيسة في العصور الوسطى لضعف الملوك والسلطات المركزية ولتفشى نظام الإقطاع بما ينطوى عليه هذا النظام من اضطراب الأمن وانتشار الحروب الفرديه والداخلية، ولاحتكار رجال الدين لكل وظائف الحكومة والاعتماد عليهم فى كل شىء، لانهم كانوا وحدهم المتعلمين فى العضور الوسطى

بدء قوة الملوك

ولكن لما جاء القرن الثالث عشر كان الملوك قد نجحوا فى تكوين

حكومات قوية ، وفى اخضاع الاشراف والمدن ، وفى القضاء على نظام الاقطاع تدريجياً ، وكان قد ظهر من غير رجال الدين رجال وثق بهم الملوك فعينوهم فى الوظائف واستعانوا بهم على تحقيق اغراضهم . وأهم من ذلك كله تمكن الملوك من كسب الشعوب الى جانبهم ، فأصبحت الشعوب أهم عضد لهم فى مناوأة الكنيسة

ولما شعر الملوك بقوتهم انكروا على السلطة الدينية تدخلها فى شئونهم الداخلية والسياسية . ولم يقبلوا أوامر البابا أو يكترثوا بتهديداته كما كانوا يفعلون سابقاً . وعلى ذلك قام النزاع ثانياً بين السلطتين فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر كما قام فى القرن الحادى عشر بين غريغورى السابع وهنرى الرابع ، ولكن فى حين ان الاول كان من أجل تقليد رجال الدين للوظائف كان النزاع الثانى من أجل فرض الضرائب على رجال الدين بعد أن كانوا معفين منها ، فرفضت الكنيسة ذلك واعتمدت على أن الأراضى موقوفة لخدمة الله فلا يصح أن يأخذ الملك عنها ضرائب . أما الملوك فانهم لما اشتدت حاجتهم للمال بسبب كثرة مصاريفهم طمعوا فى ممتلكات رجال الدين الواسعة ورغبوا فى فرض الضرائب عليها .

نزاع جديد بين البابوات والملوك

البابا بونيفاس الثامن

وأول ما ظهر هذا الكفاح بين السلطتين كان بين البابا « بونيفاس الثامن Boniface VIII » من سنة ١٢٩٤ الى سنة ١٣٠٣ وبين الملك « فليب الرابع » (١٢٨٦ — ١٣١٤) ملك فرنسا رغم ما كان بينهما من العلاقات الودية ، وكان لملك فرنسا المنزلة الأولى فى اوربا بعد سقوط أسرة الهوهنشتاوفن وضعف الامبراطورية

وكان البابا بونيفاس الثامن — من آخر الباباوات العظام الذين ظهروا في العصر الوسيط — شيخاً طاعناً في السن شديد المراس متمسكا بحقوق البابوية كما وضعها غريغورى السابع وكما شرعها ونفذها أنسنت الثالث ، ولكن لم تكن له من القوة فى هذا الكفاح مثل ما كان لهما

وفليب الرابع

أما فليب الرابع ملك فرنسا فهو الذي قلنا عنه أنه كان يساعده رجال القانون ويحضونه على التشبه بأباطرة الرومان ، وقد فرض ضريبة ثقيلة على رجال الدين ، فأصدر البابا سنة ١٢٩٦ قانوناً يقضى بعدم دفع ضرائب لأية سلطة زمنية ويهدد بالحرمان كل من يقبل دفع هذه الضريبة من رجال الدين وكل من يصر من رجال السلطة السياسية على أخذها

وعلى ذلك بدأ الكفاح بين البابا والملك. واعتمد الملك على تعضيد الشعب له فأصدر قراراً يحرم تصدير الذهب والفضة الى الخارج، والغرض من ذلك حرمان الكنيسة من الأموال التى كانت تجبيها من فرنسا ، فتخوف البابا وسعى فى الصلح سنة ١٣٠٠

الا أن فليب صمم على عقاب البابا واظهار تفوقه عليه فجمع فى سنة ١٣٠٢ مجلس طبقات الامة ، دعا اليه ممثلين للمدن وللشعب زيادة على ممثلى الاشراف ورجال الدين ، فقرر المجلس أن ليس للبابا سلطة فى فرنسا إلا فى الشئون الدينية وانه لا رئيس للملك إلا الله ، وأقسم نواب الطبقات أنهم يحاربون من أجل الملك ويضحون كل شيء فى سبيل تأييده

وبينما البابا يستعد لاصدار قرار بعزل الملك ، أرسل هذا اليه قوة

القبض على البابا

قبضت عليه فى بلدة « أناني Anagni » فى ايطاليا ، وقام أهل المدينة وخلصوه فدخل البابا رومة ولكنه مات حزيناً سنة ١٣٠٣ . وتعتبر

حادثة « أناني » انتقاماً لحادثتي كانوسا والبندقية ، ويجب أن لا يفوتنا أن تفوق البابا الديني كان معترفا به ، ولكن وجه النزاع كان بشأن تدخل البابا فى الشئون الداخلية والسياسية .

بين بونيفاس وملك انجلترا

كذلك قام النزاع بين « بونيفاس الثامن Boniface VIII » وادوارد الأول ملك انجلترا للسبب نفسه . فجمع الملك البرلمان سنة ١٣٠١ وتقرر أن ليس للبابا حق التدخل فى الشئون الداخلية . وامتنعت انجلترا بعد ذلك عن تقديم المنحة التى تقيد بدفعها الملك يوحنا مع البابا أنسنت الثالث . ويعتبر بونيفاس الثامن آخر العظماء من بابوات العصور الوسطى ، ومن بعده لم تعد للكنيسة قوتها الأولى

الاسر البابلى

واختلف الكرادلة فى انتخاب خلف « لبونيفاس الثامن » وانقسموا إلى حزبين : حزب يؤيد ملك فرنسا وهو الحزب القوى وحزب ضعيف يحبذ ما فعله البابا بونيفاس الثامن ، وقد تغلب الحزب الفرنسى نهائياً ، بعد أن بقى كرسى البابوية خالياً مدة سنتين . وانتخب « كلمنت الخامس » وهو فرنسى يعضده ملك فرنسا ، وكان أسقفاً « لبردو » فى فرنسا ، لذلك اختار البابا الجديد أن يتخذ مقره فى « أفيون » قرب نهر الرون فى مقاطعة « بروفانس » ليكون قريباً من ملك فرنسا . واستمر البابوات فى « افنيون » إلى سنة ١٣٧٧ وتعرف هذه المدة بمدة « الاسر البابلى » تشبيهاً لها بما لحق اليهود قديماً لما أخرجوا من ديارهم واسروا فى بابل وعادوا بعد مدة . ومدة الأسر البابلى سبعون سنة وكان البابوات فى هذه المدة خادمين لمصالح فرنسا منفذين لسياسة ملكها ، وانتهزت بعض الحكومات هذه الفرصة واعلنت استقلال ملوكها عن البابوية وقلت

موارد الثروة لدى البابوات، فلجئوا إلى جمع الاموال بطرق أثارت انتقادات الناس كبيع الوظائف وبيع صكوك الغفران الخ . وشيد البابوات قصراً فخماً لهم فى «افنيون» وعاشوا معيشة البذخ والتنعم وان كانوا على العموم رجالا أقوياء صالحين حسنى الأخلاق

وأخيراً سادت الفوضى فى ممتلكات البابوية فى إيطاليا وخصوصاً فى رومة نفسها ، فتأثر البابا «غريغورى الحادى عشر» وقرر العودة إلى رومة سنة ١٣٧٧ ، وسرعان ما بدأ عهد الانقسام العظيم الذى استمر نحو أربعين سنة (١٣٧٨ — ١٤١٥) وهو أن العالم المسيحى فى غرب أوربا انقسم إلى قسمين على كل قسم بابا يدعى أنه صاحب الحق الشرعى وأنه يستمد سلطانه من الرسول بطرس

الانقسام العظيم

وتعرضت البابوية لانتقادات شديدة بسبب هذا الانقسام وقلت مهابتها فى نظر القوم . وأصبح المسيحيون فى حيرة أمام البابوية واشتغلت الجامعات ببحث الموضوع واقتراح الحلول التى قد تؤدى الى علاج الحالة ، وبدأ الناس يفكرون فى اصلاح الكنيسة

ويكلف Wyclif ١٣٢٠ — ١٣٨٤

أهم الذين نادوا بالاصلاح فى القرون الوسطى « ويكلف » الذى ولد سنة ١٣٢٠ ، وبينما كان استاذاً فى جامعة اكسفورد طلب البابا المنحة المفروضة على انجلترا ، فكتب « ويكلف » معارضاً له . ثم تدرج من ذلك وأعلن حق السلطة الزمنية فى ممتلكات الكنيسة إذ أساءت الكنيسة ادارة هذه الممتلكات ، ثم أعلن أن ليس للبابا قدرة الا فى حدود

الكتب المقدسة ، وأخذ يطعن فى البابوية وادعاءاتها ونظمها والاساليب التى كانت متبعة فى ذلك الوقت . وكان «ويكلف» يعظ باللغة الانجليزية، واتهم بأثارة الفتن والتحريض على الثورة ومات سنة ١٣٨٤

وسرعان ما انتشرت آراؤه فى أوربا وخصوصاً فى بوهيميا حيث كانت الصلات بينها وبين انجلترا ودية ، فقام «يوحناهوس» من جامعة براغ ونشر آراء ويكلف

يوحنا هوس John Huss

ولد يوحنا هوس سنة ١٣٦٩ وكان فى جامعة براغ (عاصمة بوهيميا) حين انتشرت آراء وكتابات «ويكلف» ، فأعلن أنه لا يحق للانسان أن يطيع أوامر أناس مثقلين بالذنوب والخطايا فخشيت السلطة الدينية والسلطة السياسية انتشار أفكاره

المجالس الدينية

ويعتبر « ويكلف » و « هوس » رسل حركة الاصلاح الدينى التى بدأت في أوربا فى عصر النهضة . ولما اشتد انتقاد الكنيسة والبابوية اقترحت جامعة باريس أن يعقد مجلس دينى عام تكون سلطته وارادته فوق ارادة البابا ويترك لهذا المجلس علاج الحال . وأخيراً تغلبت فكرة دعوة المجلس وبدأت الحركة المعروفة بحركة « المجالس الدينية Conciliar movement »

مجلس بيزا

عقد أول مجلس فى بيزا سنة ١٤٠٩ باتفاق الجانبين — الجانب الرومانى والجانب الفرنسى — ولما لم يحضر البابوان قرر المجلس عزلهما وانتخب بابا جديداً فأضاف المجلس ثالثاً ، لأن الآخرين لم يقبلا

أن ينزلا عن كرسى البابوية ، وعلى ذلك انفض المجلس بعد أن زادت المسألة تعقداً وقر الرأى على اجتماع مجلس آخر

مجلس كنستانس سنة ١٤١٤

لما كانت نتيجة مجلس « بيزا » زيادة تعقيد المسألة قر الرأى على اجتماع مجلس آخر فى « كنستانس » سنة ١٤١٤ . ويعتبر مؤتمر « كنستانس » هذا من أهم المؤتمرات الدولية فى العصور الوسطى ، استمر منعقداً ثلاث سنوات وحضره الامبراطور « سجزمند Sigismond » والكرادلة والأساقفة ورؤساء الأديرة من كل أنحاء أوربا ، وحضره البابا الرومانى أولا ولكنه عاد فرجع الى رومة

وأهم المسائل التى نظر فيها المجلس هى :

١ — علاج الانقسام داخل الكنيسة وتوحيد البابوية

٢ — القضاء على فكرة الالحاد والنظر فى قضية يوحنا هوس

٣ — النظر فى اصلاح الكنيسة إصلاحاً عاماً

عودة الوحدة الدينية

أعلن المجلس فى أول أمره تفوقه على البابا وعزل البابا الرومانى ثم استقال البابا الذى تعين فى مجلس « بيزا » ولم يبق إلا البابا الفرنسى فى « أفنيون » وهو « بندكت الثالث عشر .Benedict XIII » فأنه أبى أن يستقيل معتمداً على قوة الفرنسيين والاسبان . ولكن الفرنسيين انفضوا من حوله لرغبتهم فى علاج الحالة ولم يبق معه غير الاسبان فقرر المجلس عزله سنة ١٤١٧ . وانتخب بابا جديداً وهو « مارتن الخامس Martin V » وبذلك انتهى الانقسام العظيم

محاكمة هوس

ثم نظر المجلس فى قضية يوحنا هوس — وكان الامبراطور قد أعطاه الأمان للحضور أمام المجلس فى « كنستانس » — وحاول أن يقنعة

بعدم التشبث بآرائه فلم يفلح ، وقصر المجلس بحثه فى القضية على المسألة الآتية : وهى أنه اذا كانت الآراء التى أبداها «هوس» فى كتاباته توافق مصلحة وآراء الكنيسة كان بها ونجا من العقاب ، وأما اذا كانت تخالف تعاليم الكنيسة فيجب عقابه . ولما كان الحل ظاهراً وهو أن الكتابات تخالف آراء الكنيسة إذ ذاك ، والا فلم يكن من داع لكتابتها ، رأى المجلس نفسه مضطراً الى اثبات ادانته فى حين أنه كان يريد به الخير .

حرق هوس

فلما ظهرت ادانته للمجلس قبض عليه سنة ١٤١٤ ثم تسلمته السلطة المدنية وحرق سنة ١٤١٥ . وكان ذلك على غير رغبة الامبراطور ولكنه لم يجد سبيلا لحمايته ، ولم يقدر أن يفوه ببنت شفة فى هذا الموضوع خشية أن يتهم بالالحاد . ولم يكن لحرق هوس من نتيجة سوى تقوية حركة الالحاد فى بوهيميا

مسألة الاصلاح

أما المسألة الثالثة التى نظر فيها المجلس وهى مسالة الاصلاح فقد اقترحت اصلاحات عدة تناقش فيها المجلس مدة طويلة ولكنه لم يتخذ أى قرار نهائى بشأنها ، وكل ما أثبته أن سبب الفساد فى الكنيسة يرجع الى اهمال البابا استدعاء المجلس الدينى . وعلى ذلك اقترح المجلس لزوم عقد مجلس دينى مرة فى كل عشر سنوات على الأقل

ويمكن القول بوجه عام ان مجلس « كنستانس » لم ينجح إلا فى مسألة واحدة وهى علاج الانقسام وتوحيد البابوية

بعد ذلك عقدت مجالس دينية كثيرة لم تقم بعمل يذكر ، وما لبثت النهضة أن جاءت وظهرت حركة الاصلاح الدينى فى أوربا

الفصل التاسع

فرنسا وانجلترا

فى نهاية العصر الوسيط

حرب المائة السنة

هى عبارة عن عدة حروب متقطعة تخللها فترات طويلة ، قامت بين انجلترا وفرنسا واستمرت من سنة ١٣٣٨ الى سنة ١٤٣٥

سبب الحرب

والسبب فى قيام هذه الحروب مسألة مهمة هى : هل يسمح لملك انجلترا بعد أن فقد نورمندية وانجو سنة ١٢١٤ ان يملك پواتو واكتين وغسقونية ، وبذلك يعرقل مساعى ملك فرنسا فى سبيل توحيد مملكته سياسياً ؟

ولما كان ملوك انجلترا متمسكين بحقوقهم فى هذه الأقاليم لم تكن ثمة مندوحة عن قيام الحرب ، اذا صمم ملوك فرنسا على نشر سلطانهم على جميع هـذه البلاد . وكان من الطبيعى أن تنتهى الحرب بأحدى النتيجتين الآتيتين : اما أن ملك انجلترا ينجح فى اخضاع فرنسا واعلان نفسه ملكا عليها ، أو أن ملك فرنسا يتمكن من طرد الانجليز نهائياً ويضم أملاكهم الى فرنسا . ومما يسهل فهم هذه الحروب بيان ملوك فرنسا وانجلترا فى أثنائها . أما ملوك فرنسا فهم :

فليب السادس	١٣٢٨ — ١٣٥٠
يوحنا	١٣٥٠ — ١٣٦٤
شارل الخامس	١٣٦٤ — ١٣٨٠
شارل السادس	١٣٨٠ — ١٤٢٢
شارل السابع	١٥٢٢ — ١٤٦١

وأما ملوك انجلترا فهم :

ادوارد الثالث	١٣٢٧ — ١٣٧٧
رتشارد الثانى	١٣٧٧ — ١٣٩٩
هنرى الرابع	١٣٩٩ — ١٤١٣
هنرى الخامس	١٤١٣ — ١٤٢٢
هنرى السادس	١٤٢٢ — ١٤٦١

بوادر النزاع

ظهرت بوادر النزاع بين انجلترا وفرنسا على أثر انقراض أسرة هيوكابت — الاسرة الحاكمة فى فرنسا — سنة ١٣٢٨ بموت الابن الثالث لفليب الرابع ، وبادعاء ادوارد الثالث ملك انجلترا حق تتويج نفسه ملكا على فرنسا بما أن والدته هى ابنة فليب الرابع . غير أن علماء القانون فى فرنسا لما رأوا مطامع ملك انجلترا أعلنوا أنه — حسب التقاليد الفرنجية القديمة — لا يجوز لسيدة أو لوارثيها اعتلاء عرش فرنسا . وعلى ذلك انتخب فليب السادس أول ملوك أسرة « فالوا «Valois» » ملكا على فرنسا وأصبح نجاح ادوارد الثالث بعيد الوقوع

وفى أول الأمر لم ير الملك ادوارد الثالث بداً من قبول الحالة . ولكن سرعان ما قام النزاع بسبب الحادثة الآتية

قام النزاع بين مدن فلندره و بين ملك فرنسا إذ حاولت هذه المدن

مدن فلندره

الاستقلال فقام ملك فرنسا حاكمها بقمع هذه الحركة ، وكانت هذه المدن من أغنى مدن أوربا فى العصور الوسطى لاشتهارها بالمنسوجات الصوفية ، وكانت علاقاتها بانجلترا متينة بسبب الروابط التجارية التى كانت تربط الاقليمين ، إذ كانت انجلترا تصدر أحسن الاصواف التى كانت تعتمد هذه المدن عليها فى منسوجاتها . لذلك لما أعلن ادوارد الثالث حقه فى تاج فرنسا أنحازت مدن فلندره إلى جانبه

المقاطعة التجارية

وفى سنة ١٣٣٦ أمر حاكم الفلندره بسجن كل التجار الانجليز الموجودين فى بلاده ، وأجاب ادوارد الثالث بمنع تصدير الصوف ومنع استيراد المنسوجات الصوفية رغبة فى شل الحركة التجارية . وفى الوقت نفسه سعى فى حماية الصناع الفلمنكيين فنقلهم الى بلاده وأسكنهم فى أقليم « نُرفلك » وبدأت تظهر صناعة الاصواف فى تلك الاقاليم . وكانت السفن الانجليزية تعمل فى البحار للاحتفاظ بسيادة الانجليز على البحر بين فرنسا وانجلترا

هذه هى مقدمات حرب المائة السنة التى لم تبدأ فى فرنسا حتى سنة ١٣٤٦ ، إذ هاجم ادوارد الثالث ساحل نورمنديه وتوغل فى الداخل حتى اقترب من باريس ثم عاد وقابل الفرنسيين فى واقعة « كِرسى » حيث

موقعة كرسى

انتصر الانجليز . ولهذه الواقعة أهمية فى التاريخ إذ ظهر للعالم أن الصفوف المتراصة من المشاة ، إذا عملت بالاتحاد وأحكمت استعمال الاقواس والنشاب ، أمكنها أن تنتصر على الفرسان بسهولة . وعلى أثر هذه الموقعة أخذ الانجليز « كاليه » وبقيت فى قبضتهم مدة قرنين من لزمان

وقد اضطر الجانبان الى الكف عن القتال بسبب انتشار الطاعون المعروف بالموت الاسود الذى اجتاح اوروبا كلها ١٣٤٨—١٣٤٩ وأفنى نصف السكان تقريباً

الموت الاسود

ثم تقابل الانجليز مع الفرنسيين فى حرب اخرى سنة ١٣٥٦ فانتصر الامير ادوارد الملقب بالامير الاسود (ابن ادوارد الثالث) فى واقعة «بواتييه Poitiers» وفيها اظهر الانجليز مهارة فى استعمال الاقواس والنشاب وأخذ يوحنا ملك فرنسا أسيراً الى لندن ، ولكن كل هذه الانتصارات لم تكن حاسمة واضطر ادوارد الثالث فى النهاية الى عقد معاهدة برتني Bertigny سنة ١٣٦٠، وبمقتضاها نزل ادوارد الثالث عن حقه فى تاج فرنسا وعن حقوقه فى نورمندية . وفى مقابل ذلك أخذ ادوارد « بواتووغيين وغسقونيا وكاليه » ، وتبلغ مساحتها ثلث مساحة فرنسا تقريباً، يحكمها من غير الاعتراف بسيادة فرنسا عليها

بواتييه ١٣٦٠

معاهدة برتني ١٣٦٠

الا أن هذه المعاهدة لم تبق نافذة المفعول مدة طويلة فان «الامير الاسود » —الذى حكم الاقاليم الجنوبية نيابة عن والده— اشتد فى معاملة الاهالى الذين كانوا يفضلون الحكم الفرنسى بطبيعة الحال على الحكم الانجليزى ، فقاموا بالثورة ضد الانجليز وشجعهم على ذلك مرض «الامير الاسود» وموته وضعف ادوارد الثالث فى شيخوخته. وتمكن ملك فرنسا « شارل الخامس » (١٣٦٤ — ١٣٨٠) من استرداد الاقاليم التى أخذها الانجليز بالتدريج ولم يبق لهؤلاء بعد موت ادوارد الثالث سنة ١٣٧٧ من الممتلكات فى فرنسا سوى « كاليه » وأقليم صغير حول « بُردو »

بعد هذا وقفت الحرب بين فرنسا وبين انجلترا بسبب سوء الحالة

الاقتصادية والاجتماعية فى المملكتين ، ففى فرنسا التى كانت ميدانا لهذه الحروب تعطلت الزراعة والصناعة والتجارة وانتشر الجنود وعاشوا بالنهب من مهاجمة البلاد

أثر الحرب فى انجلترا

أما فى انجلترا فانه لما قلت الايدى العاملة بسبب الموت الاسود الآنف الذكر واحتاج الاشراف الى عمال يعملون فى ضياعهم ومزارعهم ، ارتفعت أجور العمل لدرجة جعلت هؤلاء الاشراف يلجؤون الى الحكومة فأصدرت هذه قانوناً تهدد بسجن من يأبى قبول الاجور القديمة ، فتذمر رقيق الاراضى وقام الفلاحون بالثورة سنة ١٣٨١ واجتمع منهم نحو مائة ألف فى جنوب وغرب انجلترا ، فهاجموا قصور الاشراف وحرقوها ودمروا ما بها وأبادوا سجلات عبوديتهم ، وفتحت لهم «لندرة» الابواب فدخلوها وطلبوا مقابلة الملك الصغير «رتشارد الثانى» ، فقابلهم ووعدهم بالغاء الرق فتفرقوا . وتمكن الاشراف من الانتقام من زعماء الحركة انتقاماً مريعاً

ثورة الفلاحين ١٣٨١

مواصلة الحرب ضد فرنسا

وفى سنة ١٣٩٦ اغتصب هنرى الرابع العرش من رتشارد الثانى فأراد هنرى الخامس ابن هنرى الرابع أن يقوى مركز أسرته فى انجلترا ويستميل اليه الناس بواسطة الحرب ضد فرنسا ، فأعلن حقه فى تاجها سنة ١٤١٤ وهاجمها فى السنة التالية وانتصر على الفرنسيين فى واقعة « أجنكورت Agincourt » بالقرب من «كِرسى» . وكانت الحالة فى فرنسا سيئة للغاية لأن شارل السادس كانت قواه العقلية ضعيفة ، فقام النزاع بين كبار الاشراف فى فرنسا كل يحاول الاستئثار بالسلطة . وكان أهم هؤلاء الاشراف « دوق برغندية » الذى حاول انشاء دولة مستقلة بين

اجنكورت ١٤١٥

الحالة فى فرنسا

فرنسا وألمانيا و « دوق ارليانز » .

معاهدة تروى

وفى هذه الظروف العصيبة اضطرت الحكومة الى عقد معاهدة « تروى » Troyes سنة ١٤٢٠ التى تقرر فيها أن يكون هنرى الخامس نائباً عن الملك فى فرنسا وأن يتوج ملكا عليها بعد موت شارل السادس. غير أنه في سنة ١٤٢٢ مات الاثنان وترك هنرى الخامس بعده ابنه هنرى السادس وعمره بضعة أشهر فعين « دوق بدفورد Bedford » وصياً على الملك فأحسن القوامة عليه وواصل الانتصار على فرنسا وبمساعيه أعلن هنرى السادس ملكا على شمالها الى نهر اللوار جنوباً فأسقط في يد ولى العهد — الدوفن Dauphin — الذى لم يجرؤ على تتويج نفسه ملكا . وكان ولى العهد «شارل السابع» خملا بليداً لم يحاول توحيد الصفوف الفرنسية وبث العاطفة الوطنية والحماسة الحربية ضد الانجليز،

شارل السابع


شارل السابع

فقوى مركز هنرى السادس فى فرنسا ولا سيما حين انضمت الى جانبه برغندية بعد أن قتل دوقها في وليمة أقامها «الدوفن» —وكانت برغندية من أغنى وأقوى مقاطعات فرنسا — واستطاع الانجليز أن يحاصروا « أورليان » ، وتعتبر أورليان مفتاحاً لجنوب فرنسا

وبينما المدينة مشرفة على التسليم جاء المدد الى فرنسا من ناحية لم تكن فى الحسبان . ففى وسط هذا الانخذال والانهزام ظهرت في شرق

جان دارك

فرنسا فتاة قروية اسمها « جان دارك Jeanne D'Arc » أعلنت للناس انها سمعت منادياً يناديها بأن تقوم وتحارب على رأس الجيش الفرنسي، فتطرد الانجليز من فرنسا وتأخذ بيد ولى العهد فتتوجه ملكا على فرنسا فى كنيسة « ريم ».

وقالت أن مصدر هـذه الرسالة سر إلهي . وأنها مدفوعة بالقوة الالهية لتنفيذ مهمتها فاستخف الناس بدعوتها في أول الامر، ولكنها نجحت في مقابلة ولى العهد « الدوفن » وأجابها الى طلباتها. وكان مجرد وجود جان دارك ، تلك الفتاة الطيبة القلب المخلصة ، فى وسط الجنود الفرنسية كافياً لتحميسهم وتوليد روح جديد لا عهد للفرنسيين به من قبل — روح الإستبسال والاستماتة في سبيل الدفاع عن أرض فرنسا .

فسار الجيش الفرنسي وعلى رأسه جان دارك مرتدية ملابس الرجال وبفضل ما أظهره الفرنسيون من الشجاعة انهزم الإنجليز في سنة ١٤٢٩ ورفعوا الحصار عن «أورليان» وبعد ذلك حققت باقى برنامجها وتوج الدوفن فى كنيسة «ريم» ملكا على فرنسا فى السنة نفسها . وأرادت أن تعود الى قريتها ولكن الملك ألح فى لزوم بقائها فى الجيش حتى يتم طرد الانجليز. فبقيت جان دارك ودبت فى نفوس القواد



جان دارك

عوامل الحسد والغيرة، فتركوها تقع أسيرة فى أيدى البرغنديين سنة ١٤٣٠ أثناء حصار « كومپيين » وباعها البرغنديون لحلفائهم الانجليز الذين لم يعاملوها

كأسيرة، بل عاملوها كساحرة ملحدة وكونوا محكمة دينية لمحاكمتها فحكمت عليها بالحرق سنة ١٤٣١ ونفذ الحكم فى مدينة «روان»

طرد الانجليز

بعد ذلك مات دوق بدفورد وانحاز البرغنديون الى جانب فرنسا فى نفس السنة. وكان ذلك من أقوى العوامل التى ساعدت الفرنسيين على طرد الانجليز سنة ١٤٥٣ فلم يبق لهم إلا «كاليه». وتم بذلك توحيد فرنسا سياسياً وبدأ ملوكها يثبتون عرشهم ويقوون سلطانهم فى البلاد، حتى أصبحت فرنسا من أقوى الممالك فى أوربا إذ استطاع لويس الحادى عشر (١٤٦١ — ١٤٨٣) ومن بعده شارل الثامن (١٤٨٣ — ١٤٩٨)، أن يحتفظوا بجيش دائم ويوطدوا السلطة الملكية الاستبدادية.

اتحاد فرنسا

وقد نجح لويس الحادى عشر فى ضم دوقية برغندية وبروفانس الى التاج الفرنسى، حتى لم يبق من الدوقيات المهمة سوى برطانية وهذه ضمها شارل الثامن سنة ١٤٩١ بزواجه من وارثتها. فأصبحت فرنسا كتلة واحدة فى وسعها أن تشرع فى غزو جيرانها الضعفاء. ولم يتأخر شارل الثامن عن غزو ايطاليا سنة ١٤٩٤. وبدخول هذه الحملة فى ايطاليا سرت روح النهضة الحديثة الى الفرنسيين فخرجوا من العصور الوسطى

حرب الوردتين

أما فى انجلترا فقامت حروب داخلية بين الاحزاب المختلفة من الأشراف تعرف «بحروب الوردتين» نسبة الى الوردة الحمراء التى كانت شارة أسرة «لنكستر» والوردة البيضاء التى كانت رمز أسرة «يورك»، وكانت كل من الاسرتين تدعى انها أحق بالملك من منافستها.

وبدأ النزاع حين ثار دوق يورك على الملك هنرى السادس وطرده، وتوج نفسه سنة ١٤٦١ باسم أدوارد الرابع (١٤٦١ — ١٤٨٣) وبقى

النزاع مستمراً حتى مات أدوارد الرابع وخلفه ابنه ادوارد الخامس فى الثانية عشرة من عمره، وقام بالوصاية عليه عمه « دوق جلستر » الذى زج به وبأخيه وأقاربه فى السجن، واعتلى العرش باسم رتشارد الثالث (١٤٨٣ — ١٤٨٥) ولم يهدأ له بال حتى قضى على ابنى أخيه فى السجن، فسخط عليه الشعب وقام «دوق رتشمند» من سلالة أدوارد الثالث من أسرة لنكستر وحارب رتشارد وانتصر عليه فى واقعة « بزورث Bosworth » سنة ١٤٨٥ وقتل رتشارد فى المعركة وأعلن رتشمند ملكا على انجلترا باسم « هنرى السابع » فوضع بذلك أساس حكم « أسرة تيودور » فى انجلترا . وحسم النزاع بتزوجه من «اليصابات» وارثة أسرة يورك

أسرة تيودور

وبتولى أسرة «تيودور» بدأت عوامل النهضة تظهر فى انجلترا وبدأ تاريخها الحديث

الفصل العاشر

الدولة العربية فى الاندلس

أثر الفتح العربى

كان لفتح العرب أسبانيا أثر عظيم فى تقدم حالة البلاد الاجتماعية إذ أزال الفوارق التى كانت تفصل بين الطبقات وقضى على امتيازات الأشراف ورجال الدين ، وحرر رقيق الأراضي اذا هم اعتنقوا الاسلام وأعطى الذين بقوا فى المسيحية حق الشكوى من أسيادهم ، وأوجد فى البلاد حكومة مستنيرة تجبى الضرائب من الجميع على السواء وتعمل لمصلحة الجميع . وترك العرب للمسيحيين كنائسهم وأديرتهم وحريتهم التامة واكتفوا منهم بدفع الجزية يقدرونها حسب ثروة الافراد . أما اليهود فقد رفع عنهم الاضطهاد وأصبحوا أحراراً فى عقائدهم والقيام بشئونهم الخاصة . وما لبث الاطمئنان أن عاد الى نفوس المسيحيين فى اسبانيا وفضلوا الحكم العربى على الحكم القوطى

حكام الاندلس

لما استدعى الخليفة الوليد بن عبد الملك عامليه موسي بن نصير وطارق بن زياد ، أصبح حكم البلاد بيد عبد العزيز بن موسى بن نصير فأظهر كفاءة عظيمة وعين مجلساً خاصاً للنظر فى وضع القوانين والتوفيق بين مصالح القبائل المختلفة من العرب وأهمهم الحميرية والعراقية والشامية ، وشجعهم على الاختلاط والتصاهر مع المسيحيين وبدأ هو بتزوج أرملة « لزريق » . ولما كان كثير من العرب الذين نزلوا باسبانيا قد باشروا الصناعة والزراعة والتجارة بمصر والشام ، كان أول اهتمامهم فى اسبانيا

عبد العزيز ابن موسى

موجهاً الى اصلاح الاراضي والعناية بالزراعة. فاستثمروا أراضيها الخصبة واستدروا خيراتها الكثيرة ، فانتعشت البلاد بعد قليل من الزمن وأصبحت الأندلس من أحسن بلاد العالم وأرقاها من جميع الوجوه

ولما قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير أخذ أمراء أفريقية الذين كان مركزهم «القيروان» يعينون حكاماً للأندلس من قبلهم ، واستمر الحال كذلك حتى أرسل عمر بن عبدالعزيز حاكما من قبله وهو «السمح ابن مالك الخولانى» الذى قاد العرب شمالا ففتح « أربونه » على الساحل الشرقى بعد أن عبر جبال البرانس ودخل مقاطعة « اكيتين » ووصل الى « طولوشه »، وهناك قابله الفرنجة واشتبك معهم فى واقعة قتل فيها سنة ٧٢١ م، وتعرف هذه الواقعة عند العرب باسم « بلاط الشهداء » . وعلى أثرها تقهقر العرب جنوباً وحصنوا « أربونة » فأصبحت مركزاً حربياً بحرياً وقاعدة فتوحاتهم في البحر الابيض المتوسط

السمح بن مالك

عبد الرحمن الغافقى

هو من أهم الحكام الذين عينهم الخلفاء الامويون على اسبانيا وأعظمهم كفاءة ، كان محبوباً لدى الجند حازماً عادلا . وطد النظام والطمأنينة بالبلاد ، واستطاع بحكمته أن يوفق بين المضريين والحميريين

موقعة تورز ٧٣٢م

وسار عبدالرحمن بجيشة شمالا فاحتل «بردو» وهزم دوق اكيتين، ودخل برغندية واحتل «ليون» ثم سار شمالا واحتل نهر اللوار الواقعة عليه عاصمة الفرنجة، فقابلوه بين « تور » و «بواتييه» واستمرت المعركة بضعة

أيام كانت نتيجتها قتل عبد الرحمن وانهزام العرب سنة ٧٣٢ . وكان يقود الفرنجة «شارل مرتل »ويعزى هذا الانهزام للأسباب الآتية .

أسباب هزيمة تور

(١) أن العرب تركوا حاميات عديدة فى المدن والحصون التى فتحوها في طريقهم الى الشمال فأضعف ذلك من قوة الجيش

(٢) أن العرب كانوا مثقلين بالغنائم والأسلاب ولم يطيقوا صبراً على اهمالها بل فضلوا المحافظة عليها على الحرب، وكان اهتمامهم بها من أشد أسباب انهزامهم

(٣) أن الفرنجة كانوا أكثر عدداً وقد انضم اليهم الالمان من الاقاليم المجاورة

(٤) وقوع النفور بين العرب والبربر

وتعد هذه الواقعة من الوقائع الحاسمة في التاريخ لانها أوقفت العرب عند حد لم يتعدوه، إذلو نجحوا في هذه الموقعة لوقع غرب أوربا تحت حكمهم . وكانت نتيجة واقعة تور أن الفرنجة فطنوا للخطر الداهم من ناحية العرب في أسبانيا ، فأوثقوا علاقاتهم مع اللمبارديين ومع الامارات المسيحية في شرق اسبانيا وزال الخوف من نفوس الفرنجة، وتركوا العرب يتطاحنون الى أن تتضعضع قوتهم

نتائجها

ولما انتقل الملك من الامويين الى العباسيين أخذ الخلفاء يقتلون الامويين ويشردونهم ، فأفلت منهم عبد الرحمن الملقب «بالداخل» وهو ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان . هرب الى مصر ومنها الي برقة ثم الى بلاد المغرب وخاطب جماعة من أنصار الأمويين في أسبانيا فبثوا له الدعوة . ثم عبر البحر الى اسبانيا فى خلافة أبي جعفر

المنصور العباسى فانتصر على « يوسف الفهرى » الوالى العباسى فى واقعة «موزاره» واستقل بالحكم فبايعه القوم سنة ٧٥٦

عبد الرحمن الداخل (٧٥٦ — ٧٨٧)

استقل فى حكم أسبانيا سنة ٧٥٦ ميلادية أى بعد موقعة « الزاب » التى هزم فيها الامويون بست سنوات وأسس حكومة مستقلة عن مركز الخلافة ، وراثية فى نسله فقطع الخطبة عن العباسيين ولكنه لم يأخذ لنفسه لقب الخليفة بل تركه للعباسيين . وكذلك فعل من جاء بعده الى أن ضعف سلطان الخلافة العباسية

أعماله

ولما ثبتت قدم عبد الرحمن الداخل الأموى بالأندلس أخذ فى بناء المسجد والقصر فى قرطبة ، ووجد أن العرب والبربر يميلون الي الأخذ بنظام الاقطاع السائر فى أوربا فيستقل كل منهم فى مقاطعة ويتحدون وقت الخطر ، فأخذ عبد الرحمن يناهض هذه الحركة التى كانت فى مصلحة الفرنجة فى الشمال والذين بدأوا يزحفون جنوباً

وكان عبد الرحمن صادق النظر السياسى لطيف الطبع شديد الميل الى ما تنتجه الفنون والصنائع من الأعمال الجليلة وما تبتدعه العقول السليمة من الأشياء التى ترفع العقل وترقيه، وقد لقبه رعاياه « بالعادل » ومات فى سنة ٧٨٧، وخلفه ابنه « هشام » وكان حليما محسناً فأحبته الرعية ، وخلفه ابنه « الحكم » سنة ٧٩٥ وكان قاسياً غليظ الطبع معتزلا عن الناس، وفى عهده تمكن شرلمان من أخذ برشلونة والجزء الشمالى من أسبانيا .

عبد الرحمن الاوسط

ثم جاء « عبد الرحمن الأوسط » أو الثانى وفى عهده جاء النورمنديون وهاجموا

سواحل أسبانيا ودمروا الثغور والمدن فردهم خاسرين ، وفى عهده ظهر تفوق دولة العرب في الأندلس فى العلوم والفنون والآداب وجاء من بغداد «ذرياب» أحد المشهورين فى الموسيقى والغناء فوضع أساس الحركة الاندلسية الشهيرة فى الطرب والغناء والموسيقى ، وفى عهده أيضاً أصبح بلاط الملك مثالا ينسج على منواله من حيث الآداب والسلوك وظهرت الفروسية بأجلى مظاهرها فى اسبانيا ومنها نقلت الى اوربا

الادب والفن

عبد الرحمن الثالث (الناصر) ٩١٢ — ٩٦١

هو أكفأ من حكم أسبانيا من الامويين ، وجد بلاد الاندلس مضطربة فأخضع الثوار واحتل حصونهم ومدنهم وأصبح السيد المطاع في البلاد ودانت له الاندلس فى سائر جهاتها ، ما عدا أقليمى « ليون » فى الشمال « وكتالونيا » فى الشمال الشرقى . وسرعان ماعادت الأندلس الى سابق مجدها وشوكتها . وهو أول من اتخذ لقب الخلافة لنفسه ولقب بأمير المؤمنين فى الأندلس وذلك على أثر ضعف الخلافة العباسية وتسلط موالى الاتراك فى بغداد . وظهر أمره فى أوربا وخافته الدول فأرسلت اليه سفراءها يخطبون وده ، وفى خلافته صارت مدينة قرطبة — عاصمة الاندلس — مركز العلوم والآداب وكثر فيها العلماء من كل فن وجاء الطلبة من جميع الاصقاع لحضور دروس جامعاتها ، وشيد المبانى والقصور الفاخرة . ومن قصوره العجيبة قصر « الروضة » ساق اليه المياه من أعلى الجبل . ومن منشآته أيضاً ضاحية الزهراء التى اتخذها داراً للملك وبنى

نهضة الاندلس العلمية

بها من المبانى والقصور ما يقصر دونه الوصف [1]

ولما رأى عبد الرحمن أن أمراء العرب يحاولون الاستقلال عن الخلافة وانه لا يمكن الاعتماد عليهم كثيراً ، أخذ يدخل فى خدمته أطفالا من رقيق الأجانب من الجنس الصقابي رباهم تربية اسلامية وعهد اليهم بمهام الاعمال . وفى عهده استفحل أمر الفاطميين فى شمال أفريقية وكان يريد أن يقضى على دولتهم لولا اشتغاله بمراقبة حركات الامارات المسيحية فى الشمال . ووصلت فى عهده الزراعة والتجارة والصناعة إلى أعلى درجات الرقى فى بلاد الاندلس

استخدام الاجانب

وجاء بعده ابنه « الحكم الثانى » وواصل خطة أبيه فى كل شئ ومات سنة ٩٧٦ . وبموته انتهت عظمة الدولة الأموية فى الاندلس إذ ترك بعده ابنه هشام وهو ابن احدى عشرة سنة وجعل الوصاية عليه لحاجب الدولة « محمد بن عبد الله بن على » وكان رجلا حازماً كثير الطمع قادراً ، فأخذ مقاليد الأمور بيده وحجز الخليفة فى قصره ولم يترك له عملا ما ومنع اتصال الشعب به وقام بدور يشبه دور حجاب القصر فى دولة الفرنجة ، وقد قضى أغلب مدته يحارب الامارات المسيحية فى اسبانيا فانتصر عليهم مراراً ولكنه عجز عن كسر شوكتهم . وتشبه محمد ابن على بالخلفاء فلقب نفسه « بالمنصور » وذكر اسمه فى الخطبة مع اسم الخليفة ووضع إسمه كذلك على السكة . وجعل منصبه وراثياً فى عائلته ومات سنة ١٠٠٢ بعد أن أدهش الاسبانيين والعالم بأعماله وجرأته ومقدرته

الحجاب

المنصور

---

(١) وقد قيل فى وصف قرطبة

بأربع فاقت الامصار قرطبة ... منهن قنطرة الوادى وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم أرفع شيء وهو رابعها

ويعد عهده من أزهر وأينع عصور الأندلس، ويفضل بعض المؤرخين عهده على عهد عبد الرحمن الناصر . وخلفه ابنه « عبد الملك » وواصل سياسة أبيه فى الحكم . ولكن الناس مع تقديرهم لأعمال أفراد هذه الأسرة كرهوا أن يفتات على حقوق صاحب الحق الشرعى . وكان النزاع بين الطبقات قد استحكم وقامت الثورة على أثر موت عبد الملك واستمرت مدة من الزمن انتهز فى أثنائها الحكام والامراء الفرصة واستقلوا فى مقاطعاتهم . وانتهى عهد خلفاء بنى أمية وجاء عهد ملوك الطوائف

عبد الملك

ملوك الطوائف

انتهى عهد خلفاء بني أمية سنة ١٠٢٩ وجاء عهد ملوك الطوائف فظهر « بنو عباد » فى أشبيلية و« بنو ذى النون » فى طليطلة وصار عرب اسبانيا منقسمين إلى أكثر من عشر ممالك ، فى كل منها أمير يدعى أن له حق السيادة على الآخرين فلا يفتأ كل منهم يغير على الآخر حتى حل بهم الدمار . على أن هؤلاء الملوك كانوا من أنصار العلم والأدب وعلى ذلك استمرت النهضة العلمية فى البلاد على الرغم من ضعف الحالة السياسية . ولقد اتضح تماماً أن مصير الاسبانيين إلى الفوز على العرب عاجلا أو آجلا ، ولولا أن العرب استنجدوا بالبربر فى شمال أفريقية لتمكن الاسبانيون من طردهم من اسبانيا فى القرن الحادي عشر

وانتفع الاسبانيون بذلك الانقسام والضعف، فأخذوا يحرضون الأمراء ضد بعضهم . وأول زعيم للاسبانيين فى الشمال « سانكو » العظيم ٩٧٠ — ١٠٣٥ وهو ملك قشتالة ، ثم أخذ خلفاؤه يوسعون أملاكهم تدريجياً نحو الجنوب حتى وصلوا إلى نهر « التاجه » . واتفق « الفنس

انتصار الامراء الاسبانيين

السادس » مع ابن عباد الثالث أمير اشبيلية وأخذوا طليطله وهى من أقوى حصون العرب سنـة ١٠٨٥ . ومن أهم الاسباب التى ساعدت ملوك قشتالة على النجاح اتحاد بعض أمراء العرب معهم ضـد البعض الآخر ، وهذا يدل على أن الاعتبارات الدينية لم تكن وحدها سبباً للحروب فى القرن الحادى عشر

دولة المرابطين أو الملثمين

فى أثناء تضعضع دولة المسلمين فى اسبانيا ظهر جماعة من البربر فى شمال افريقية يعرفون بالمرابطين نشروا سلطانهم من غمبيا إلى الجزائر . ومؤسس هذه الاسرة هو «عبدالله بن تاشفين» الذى بنى مدينة مراكش، وأهم ملوكها « يوسف بن تاشفين » وكان تقياً سياسياً قوى العزيمة دانت له بلاد المغرب كلها سنة ١٠٩٤ ، ولما أخذ ملك قشتالة «الفونس السادس Alfonso vi »طليطله وهدد قرطبة استنجد العرب به، فدخل المرابطون بلاد الاندلس بجيش جرار عمت به الحماسة كل العرب وقابلوا المسيحيين فى واقعة « زلاقة » سنة ١٠٨٦ التى انتصر فيها البربر وانهزم الاسبانيون انهزاماً تاماً ، ولم يبر يوسف بن تاشفين بالعهود التى كانت بينه وبين ملوك الطوائف ، بل ضم اقليم « اندلوسيا » إلى دولة المرابطين فأصبحت تابعة لدولة البربر فى افريقية . وقد حاول أن يثبت قدمه فى اسبانيا باستصدار تقليد بحكمها من قبل الخليفة العباسى . وخلفه ابنه «على» سنة ١١٠٧ فعامل العرب معاملة أمة مغلوبة ، واستحضر لذلك قبائل جمة من

افريقية فجردوا القبائل العربية من أملاكها ، فنشبت الحرب الداخلية وانبرى الاسبانيون للتغلب على المسلمين بمساعدة كثير من الصليبيين

دولة الموحدين

قامت دولتهم بفضل مجهودات زعيمهم « محمد بن تومرت » الملقب بالمهدى ووزيره وقائد جيوشه عبد المؤمن

تلقى محمد العلم على الامام الغزالى وأدرك كيف ينال الحكم بواسطة العقائد الدينية، ثم عاد إلى المغرب لنشر مذهب الغزالى وادعى أنه المهدى المنتظر ، فلما قوى حزبه شرع يقاتل المرابطين بمساعدة تلميذه عبد المؤمن الذى ولى الأمر من بعده وكان خبيراً بالحروب، فأخضع دولة المرابطين واستنجد أهل الأندلس بالموحدين سنة ١١٤٧ فعبروا البحر ودخلوا البلاد فأزالوا منها بقايا دولة المرابطين

وكان ملوك هذه الدولة من الفقهاء المستنيرين الذين عضدوا العلم والأدب فى الأندلس . وأهم ملوكهم أبو يعقوب يوسف وخلفه ابنه يعقوب وهو الذى حارب ملك البرتغال فى واقعة «العرقوص Alaroes » سنة ١١٩٥ فانتصر عليهم وكاد يظفر بطليطلة . وكان « أبو يعقوب » وابنه معاصرين لصلاح الدين ، وفى عصرهما ظهر جماعة من كبار الفلاسفة والحكماء أمثال ابن رشد (١١٢٦ — ١١٩٨) وابن زهر ، وكثرت المدارس والمساجد والمستشفيات

ولما مات يعقوب انتهز المسيحيون الفرصة فقاموا وأعلنوا حرباً صليبية على العرب فى اسبانيا . وساعد على اذكاء نار هذه الحرب البابا أنسنت الثالث فاجتمع المسيحيون وقاتلوا المسلمين فى واقعة «لورقة» أو «لوركه» سنة ١٢١٢ انهزم فيها العرب انهزاماً تاماً ، ولم تقم لهم بعدها قائمة فى اسبانيا . وأخذ الاسبانيون يستولون على مدينة بعد أخرى ويفرقون بين أمراء العرب فيساعدون البعض ضد الآخر ، حتى اقتصر سلطان العرب على ماوراء «غرناطة» فى الجنوب الشرقى من اسبانيا . وأخذ الاسبانيون قرطبة سنة ١٢٣٦ وسقطت بلنسية سنة ١٢٣٨ ، ومرسية سنة ١٢٤٦ وسقطت اشبيلية سنة ١٢٥٨

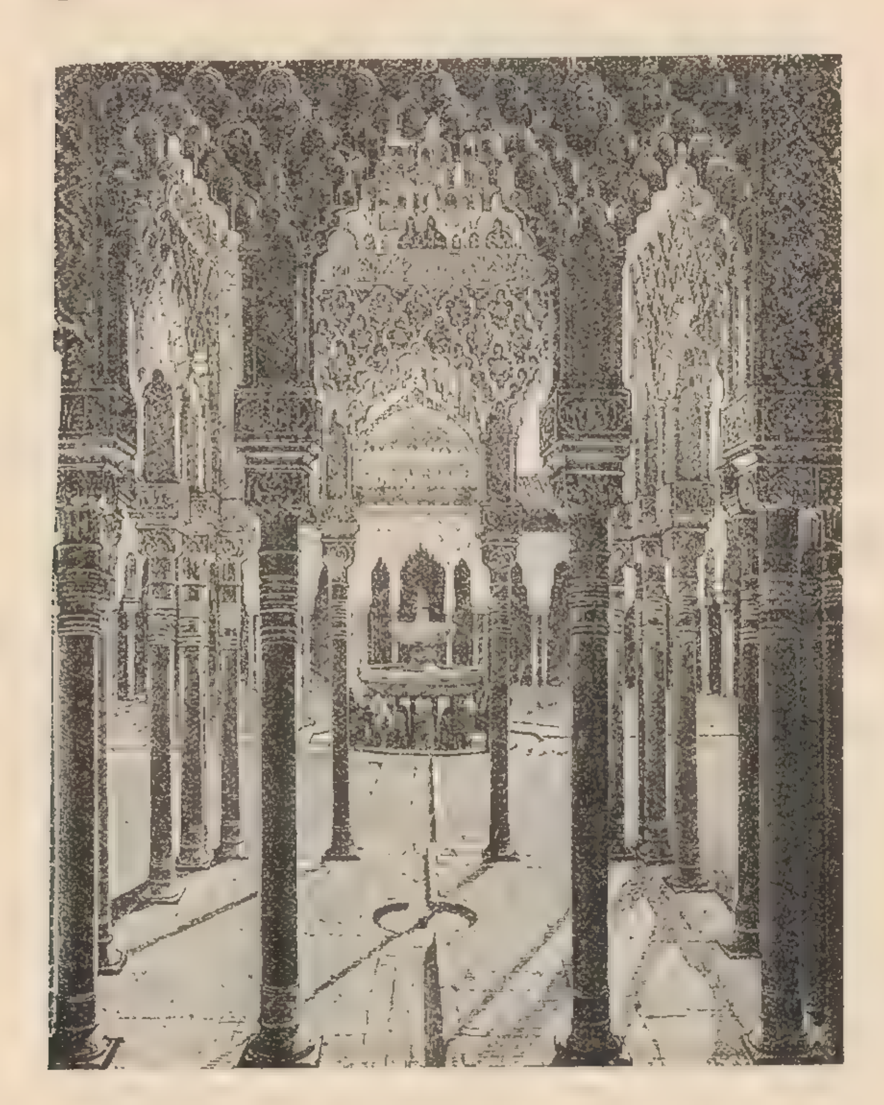
اسرة غرناطة

وفى أثناء ذلك تمكن «ابن الاحمر» من تثبيت سلطانه على غرناطة وما حولها فأنشأ حكومة قاومت الاسبانيين مدة قرنين من الزمان واتخذ غرناطة مقراً لحكمه وبنى قصر «الحمراء» الشهير . ووثق العلاقات بينه وبين المغاربة ليستعين بهم ضد الاسبانيين عند الحاجة . وقد أعاد بنو الاحمر فى غرناطة مجد الأندلس السالف واحتفظوا بتفوقها العلمى والصناعى والزراعى فى هذه الأقاليم

ومات ابن الاحمر سنة ١٢٧١ ، واستمر الحكم في هذه الاسرة حتى قوى ملوك قشتالة وصارت الحرب بينهم وبين المسلمين سجالا ، فأخذت قشتالة مدينة جبل طارق سنة ١٣٠٩ واتحدت مع البرتغال فى موقعة «ريو صالادو» التى انتصرتا فيها انتصاراً مبيناً سنة ١٣٤٠

واضطر سلطان غرناطة الى الاعتراف لملك قشتالة بالسيادة ودفع الجزية سنة ١٤٥٣ . ثم اتحدت ارغونة وقشتالة بزواج «فرديند» ملك

أرغونة « بأيزابلا » ملكة قشتالة فصار لهما التصرف فى هذه الممالك سنة ١٤٧٩ ، وتصادف أن انقسمت الاسرة المالكة فى غرناطة على نفسها



بهو السباع فى غرناطه

واستعان أحد أمرائها بفرديند، فتقدم لمساعدته وانتصر سنة ١٤٩٠ قرب مدينة «لورقة» واستمر فرديند وايزابلا يعملان على طرد العرب من الاندلس فسقطت غرناطة سنة ١٤٩٢ وبذلك تم تكوين دولة اسبانيا الحديثة

الفصل الحادى عشر

مصر منذ الفتح العربى

مصر أيام الخلفاء (٦٤١ — ٨٦٨)

بقيت مصر بعد الفتح اكثر من قرنين من الزمان تابعة للخلافة يولى عليها الخليفة حاكما من قبله ، وهذا الحاكم كثيراً ما كان يعين كبار الموظفين مثل أمير الجند وصاحب الخراج والقاضى

وقد بقى عمرو بن العاص يحكم مصر كلها أو بعضها مدة خلافة عمر

عمرو بن العاص

واهم ما حدث فى عصره صد الحملة التى بها استرجع الرومان الاسكندرية سنة ٦٤٥ وحاولوا استرجاع مصر كلها فقابلهم عمرو وشتت شملهم .

عبد الله بن أبى السرح

وجاء بعد عمرو عبد الله بن سعد بن أبى السرح ففتح النوبة وعاهد أهلها على جزية سنوية بقيت تدفع الى عصر المماليك

وبعد ذلك بثلاث سنين ارسل الرومان اسطولا عظيما لاستعادة مصر، فقابلهم العرب باسطول صغير وبعد تراشق بالنبال والحجارة تقاتلوا بالسيوف حتى لاذ الرومان بالفرار ، وتعرف هذه الواقعة بواقعة «ذات السوارى» . ومن نتائجها ان بقيت مصر نهائياً للخلافة ولم يفلح الرومان فى استرجاعها

مصر والنزاع بين على ومعاوية

ولما اشتط عبد الله بن سعد فى جمع الخراج ورفعه الى ١٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار سخط عليه الشعب وبعثوا الى الخليفة وفداً كان له ضلع فى قتل عثمان

ولما قام النزاع بين على ومعاوية انقسم العرب بمصر الى فريقين بقيا فى حروب وشقاق الى ان تغلب عمرو بن العاص المولى من قبل معاوية ودخل الفسطاط سنة ٦٥٨ . وبقى حاكما بها حتى مات فى سن التسعين سنة ٦٦٤ وقد كافأه معاوية على سالف خدماته فى التحكيم وغيره باعطائه خراج مصر له

ولم يتغير شكل حكومة مصر ايام الامويين والعباسيين . وانما كانت تتأثر الادارة بروح الحاكم ومقدار محافظته على الحق وحرصه على صالح الاهالى. وكان الحكام زمن الامويين كلهم من العرب ومنهم اربعة من ابناء الخلفاء أو إخوتهم

التجاء مروان الثانى الى مصر

وقد التجأ مروان الثانى آخر ملوك بنى أمية الى مصر رجاء مقاومة العباسيين ولكنه هزم وقتل فى بوصير، واستولى « صالح بن على » قائد العباسيين على مصر دون مقاومة وجعل بنو العباس يولون على مصر رجالا من بيت الخلافة خاصة ومن العرب عامة حتى سنة ٨٥٦ ، حين بدأ الخلفاء يعينون الاتراك ويقطعون البلاد لقواد الفرق التركية التى بدأوا يستخدمونها بدل العرب والفرس ، ولكن هؤلاء القواد لم يحضروا بأنفسهم الى مصر بل كانوا يعينون عليها ولاة من قبلهم يديرون شئونها ويرسلون اليهم ما يبقى من الايراد

بناء العسكر

وقد بنى العباسيون شمالى الفسطاط مقراً لحكمهم يعرف «بالعسكر» نسبة الى المكان الذى عسكر به صالح بن على سنة ٧٥٠، وبنوا كذلك قبة الهواء (٨٠٩ — ٨١٠) على سفح المقطم موضع القلعة الآن، وكان الحكام يفضلونها على العسكر أيام الصيف

وكان ولاة العباسيين لا يكاد يستقر أحدهم فى مركزه حتى يخلفه غيره ولذا كان الامن مضطربا والشغب كثيراً ، وزادها ضغثاً على إبالة الخلاف الذى وقع على أثر موت هرون الرشيد سنة ٨٢٠ بين ولديه الامين والمأمون . ولم يستقر للبلاد قرار حتى أرسل المأمون سنة ٨٢٦ «عبدالله بن طاهر» وهو من أشهر قواد عصره فأخضع عرب الحوف الذين كانوا ثائرين ضد الحاكم ، واستخلص الاسكندرية من يد جماعة من مهاجرى الاندلس كانوا قد استولوا عليها ثم تغلب على الحاكم الذى كان يمثل « الأمين » وأعاد الامن الى نصابه . وكان عبدالله عادلا رحيما تقياً محباً للعلماء والشعراء

عبد الله ابن طاهر

ولم يكد عبد الله يغادر مصر حتى رفعت الثورة عقيرتها واضطر المأمون أن يحضر بنفسه لاخضاعها فقضى عليها وترك البلاد هادئة . ومن ذلك الوقت قلت الثورات وكثر دخول المصريين فى الاسلام حتى صار معظم السكان مسلمين

وقد اشتهر فى هـذا العصر عدد من القضاة كانوا مثالا للزهد والنزاهة والعدل ، وكثيراً ما كان القاضى يستمر فى عمله مع ولاة مختلفين ، وكان بعضهم لا يلى القضاء إلا مكرها

ولا يكاد يوجد بين الولاة خير من « عنبسة » آخر من ولى مصر من العرب ، وكان « عنبسة » متواضعاً حريصاً على خدمة الرعية واقامة الشعائر الدينية ، وفى مدته استولى الرومان على دمياط وخربوها سنة ٨٥٣ وتقدموا الى بلبيس فهمّ « عنبسة » للقائهم فلم يسعهم إلا الفرار . وفى السنة التالية رفض النوبيون دفع الجزية وغزا ملكهم « علي بابا » بلاد الصعيد بجيش

كبير ونهب اسنا وادفو فاستعان عنبسة بالخليفة فهزم « على بابا » بعد حرب طاحنة ورضى بدفع الجزية

وجاء بعد عنبسة ولاة من الترك جلهم جفاة لا عهد لهم بالحكم تفاقمت فى أيامهم الثورات وعمت الفوضى ، ولم ينتشل البلاد من هذه الوهدة إلا احمد بن طولون

١٨ الدولة الطولونية (٨٦٨ — ٩٠٥)

كان « طولون » مملوكا تركيا ممن أرسلهم حاكم بخارى هدية للخليفة المأمون سنة ٨١٥ فنال الحظوة لديه ، وقد ولد ابنه اومتبناه « احمد ابن طولون » سنة ٨٣٥ فنشأ نشأة طيبة وبرع فى علوم اللغة والقرآن والشريعة واولع بالتعليم العسكرى الذى كان يربى عليه فتيان الاتراك في سر من رأى (سمارا)

ولحسن حظه أن الامير « بقبق » الذى تزوج من أرملة طولون منح ولاية مصر (نحو سنة ٨٥٤) واختار احمد نائباً عنه فيها ، فحضر اليها سنة ٨٦٨ وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره ، وكان ابو العباس احمد بن طولون قديراً خبيراً باختيار الرجال فلم يمض وقت طويل حتى أحس الناس نفوذه . ومن أكبر المساعدين له كاتم سره احمد الواسطى

حرج موقفه

كان موقف ابن طولون محوطاً بالمصاعب الداخلية والخارجية . فاما الداخلية فدسائس « ابن المدبر » صاحب الخراج الذى أثرى على الاختلاس وابتزاز الاموال بمختلف الضرائب والمكوس . ثم قيام العلويين فى غرب الاسكندرية وفى اسنا ومقاومتهم له مدة

ولم يقلل من حظ ابن طولون قتل الامير «بقبق» إذ أن الخليفة منح مصر للامير «برقوق» وهو حمو ابن طولون ولهذا أطلق يده فى مصر وضم اليه الاسكندرية وغيرها مما لم يكن داخلا تحت نفوده أولاً. وما زال نفوذ ابن طولون يزداد حتى أعطيت مصر طعمة «للموفق» أخي الخليفة سنة ٨٧٢ فلم يعبأ ابن طولون بهذا التغيير واسترضى الخليفة بالهدايا والتحف وصار فى الواقع ملكاً مستقلا فى مصر ولا سيما بعد أن تخلص من أكبر منافس له فى داخلية البلاد وهو ابن المدبر الذى بقى صاحب الخراج مدة طويلة ثبت فى أثنائه مركزه، ولكنه قبل عن طيب خاطر مثل وظيفته فى الشام خوفاً من بطش ابن طولون

القطائع

ولما استقر الامر لاحمد بن طولون وكثر جنده وحاشيته بنى لهم مدينة «القطائع» على «جبل يشكر»(١) وجعل لكل طائفة من أتباعه قطيعة خاصة يقيمون بها، وشاد لنفسه قصراً فخماً تحت قبة الهواء به حديقة غناء وميدان لسباق الجياد. وأما مسجده المعروف فلم يشرع فى بنائه إلا سنة ٨٧٦ واستغرق عامين كاملين فى بنائه. وأهم ما يلاحظ فيه إقامة الاعمدة من الآجر لأول مرة بدل نقل أعمدة حجرية من الآثار القديمة، وانه أول بناء استعمل فيه العقد المخموس الذى لم يستعمل فى انجلترا إلا بعد ذلك بقرنين من الزمان

مسجد ابن طولون

ولما عظمت نفقات ابن طولون على مبانيه وجيشه وحصونه وتضاعفت صلاته للعلماء وصدقاته على الفقراء، لم يستطع أن يرسل شيئاً الى «الموفق» فجهز هذا جيشاً لاخراج ابن طولون من مصر ولكنه لم يقدر على

---

(١) بين ميدان القلعة وزين العابدين

انفاذه لقلة المال . فتشجع ابن طولون وقر عزمه على توسيع ملكه فانتهز فرصة موت «ماجور» والى الشام وساق جيشه اليها سنة ٨٧٨ بحجة أن الخليفة كان قد أذن له بالاستيلاء عليها قبل تولية «ماجور» ففتحت دمشق أبوابها وقدم رجال الدولة وأعيان البلاد خضوعهم له حتى صار ملكه يمتد من نهر الفرات الى برقه، ومن جبال طوروس الى شلال اسوان

اتساع ملكه

وبعد ان ترك ابن طولون حاميات فى الرقة وحران ودمشق عاد الى مصر لان ابنه العباس الذى كان يحكم البلاد فى غياب أبيه أراد أن يستقل بملكها، فلما حضر أبوه التجأ العباس الى برقة وقاوم سنتين حتى هزم وقضى حياته سجيناً

وقد شجر الخلاف بين ابن طولون والموفق دون أن يظفر أحدهما بالآخر. وكذلك شجر الخلاف بينه وبين الروم فانتصرت جيوش ابن طولون عليهم قرب طرسوس سنة ٨٨٣ وغنمت أموالا طائلة . وقد أعياه الجهد فمرض وحمل على سرير الى مصر حيث لم يجده حذق الاطباء فمات فى مايو سنة ٨٨٤ قبل أن يبلغ الخمسين

انتصاره على الروم ٨٨٣

وكان أحمد بن طولون كريماً شجاعاً تقياً خبيراً بأخلاق الرجال ، يشرف على أعمال الدولة بنفسه ويستطلع أحوال رعيته ، ويقرب العلماء ويجزل لهم العطاء ويشجع الزراع ويؤمنهم على أملاكهم. وهو أول حاكم بعد الفتح الاسلامي أنهض قوة مصر وجمّل عاصمتها

صفات ابن طولون

وقد خلف أحمد بن طولون ابنه الثانى «أبو الجيش خمارويه» وكان فى العشرين من عمره ميالا للترف يجهل الحكومة والحروب، فلا عجب

خمارويه

أن تآمر أعداؤه مع نائبه فى دمشق على ارجاع الشام الى حكم الخليفة ، ودخل «ابو العباس بن الموفق» دمشق وتقدم جنوباً حيث قابله خمارويه ومعه ٧٠٠٠٠ مقاتل عند « الطواحين » قرب الرملة فذعر خمارويه وفر بأكثر جيشه الى مصر ، وثبت قائده «سعد الاعسر» مع بقية الجند فهزم الاعداء وأبى الخضوع لسيده فنهض خمارويه وهزمه فى دمشق سنة ٨٨٦ وطارد اعداءه الى « سمارا » فولاه الخليفة مصر والشام والعواصم على الحدود الرومانية لمدة ٣٠ سنة . وقد تشجع خمارويه فدخل عدة حروب أيدت مقدرته الحربية

استرجاع الشام

ثم زوج ابنته «قطر الندى» للخليفة « المعتضد » . وتكلف فى ذلك ما يقصر دونه الوصف من بناء القصور على طول الطريق من مصر الى بغداد لنزول العروس كل ليلة وقد أكثر من الجواهر والتحف الى غير ذلك مما دعا الى صرف الف الف دينار

زواج قطر الندى

وما زال خمارويه يسرف فى البناء وأنواع الترف حتى كادت موارد ثروته تنضب ، وأهم ما شيده توسيع قصر أبيه « بالقطائع » وتحويل الميدان حديقة غناء يتضوع منها عبير أزهار شتى ، صفت بأشكال بديعة ، تغرد فوقها الاطيار التي أكثر من جمعها فيها . كذلك زين « بيته الذهبى » بتماثيل منقوشة تمثله وزوجاته وقيانه . ولما كثر أرقه ملئت له بركة من الزئبق يترجح عليه سريره ، وقد شد بخيوط من حرير الى عمد من الفضة

وقد حقد عليه بعض جواريه فاغرين به من قتله وهو فى طريقه الى دمشق سنة ٨٩٦

ابو العساكر

وخلفه ابنه الاكبر «ابو العساكر» جيش وكان فى الرابعة عشرة من عمره لا يفقه لمركزه الخطير معنى ، منغمساً فى لهوه فخرجت سوريا وما يليها عن طاعته وعمت الفوضى فروع الادارة ونفدت اموال الخزانة، فعزله جنده بعد اشهر من اعتلائه العرش

خاتمة الدولة الطولونية

وجاء بعده اناس ضعاف لم يحسنوا القيام بواجبات الحكم فارسل الخليفة الى مصر جيشاً بقيادة «محمد بن سليمان» هزم الطولونيين وخرب القطائع عن آخرها ما عدا جامع ابن طولون .

وقد عمرت الدولة الطولونية ٣٧ سنة كانت مصر فيها مستقلة فى «الواقع»، ولذا استعادت كثيراً من عظمتها السالفة وبلغت من الحضارة والرخاء درجة لم تبلغها منذ الفتح الاسلامى

الدولة الاخشيدية (٩٣٥ — ٩٦٩)

عودة مصر للخلافة

بقيت مصر بعد زوال دولة ابن طولون ثلاثين عاماً فى هرج ومرج، لانها كانت تابعة للخلفاء العباسيين وكان هؤلاء ضعافاً لا يستطيعون تأييد الحكام الذين يعينونهم على البلاد، فاصبح الامر والنهى بيد الجند الاتراك وقوادهم واضطر الحكام الى استرضاء الجند بالعطاء كلما امكن ذلك

وليس ادل على ضعف الخلفاء العباسيين وولاتهم فى مصر ورغبة المصريين فى التخلص منهم من تمكن « محمد الخالنجى » — وهو شاب من عامة الناس — من جمع عدد صغير من المصريين فى فلسطين سنة ٩٠٥ واعادة الخطبة للطولونيين هناك ، ثم دخول مصر وحكمه إياها ثمانية اشهر باسم الطولونيين

وادهى من ذلك وامر ان مصر كانت عرضة للغزو من جانب الخلفاء الفاطميين الذين ظهرت دولتهم فى المغرب حتى نهبوا الاسكندرية ووصلت جيوشهم الى الفيوم سنة ٩١٤ ، وعجز الحكام عن طردهم ست سنين كاملة رغم حضور المدد من بغداد اكثر من مرة

الا ان طرد جيوش الفاطميين لم يعقبه القضاء على الفوضى الضاربة اطنابها فى البلاد ، بل بقى الجند يجوسون خلال الديار ويسومون اهلها سوء العذاب مدة خمس عشرة سنة ، حتى ولى امرها « محمد الاخشيد » سنة ٩٣٥ بامر من الخليفة الراضى . والاخشيد لقب ملوك « فرغانة » السابقين « ومحمد بن طغج » هذا من سلالة هؤلاء الملوك كان جده ضابطا فى جيش المعتصم وخدم ابوه مدة فى جيش خمارويه . وكان محمد الاخشيد قوى الساعدين لا يقدر رجل آخر ان ينزع عن قوسه ، وكان قائداً حذراً يفضل السلم على المغامرة فى الحروب وبدخوله مصر عاد اليها الامن والسكينة ولم يجرؤ احد على الثورة فى وجه جيش الاخشيد وفيه ٤٠٠٠٠ مقاتل

الاخشيد

وقد سبق أن خلفاء بنى العباس كانوا اذ ذاك فى منتهى الضعف ليس لهم من أمر الملك شيء وان « بنى بويه » حكموا فارس « والحمدانيين » حكموا العراق مستقلين عن الخليفة وكذلك حكم الاخشيد مصر مستقلا بها ، ولكن لا يتأخر عن مد يد المساعدة للخليفة البائس

الحرب في سوريا

وبينما الاخشيد هادىء فى ملكه إذ انقض « ابن رائق » على حمص ودمشق فقاتله المصريون وتم الصلح على ان تكون سوريا شمالى « الرمله »

لابن رائق وجنوبيها للاخشيد يدفع عنه جزيه سنوية . ولما مات ابن رائق أخذ الاخشيد سوريا كلها بغير قتال واضاف اليه الخليفة مكة والمدينة ثم جعل مصر له ولأبنائه مدة ثلاثين سنة ، فأخذ الاخشيد لابنه البيعة من قواد الجند ووجوه الناس

ثم أغار سيف الدولة الحمدانى على دمشق وهزم الجيوش المصرية بقيادة كافور ، فخرج اليه الاخشيد ومزق جيشه كل ممزق فى واقعة « قنسرين » ودخل حلب ودمشق ولكنه مع ذلك تنازل عن حلب وشمال سوريا لسيف الدولة حباً فى مسالمتـه . ومات الاخشيد بدمشق سنة ٩٤٦ ودفن ببيت المقدس

موت الاخشيد

ويذكر الاخشيد باعادة الامن الى نصابه وبجعل مركزه وراثياً وإن كان لمدة محدودة ، ممـا أدى الى استقلال مصر استقلالا فعلياً ، فأصبحت تجبى اليها ثمرات سوريا وغيرها من البلاد التابعة لها

وتولى بعد الاخشيد ابناه « ابو القاسم » أنجور (٩٤٦ — ٩٦١) وابو الحسن على (٩٦١— ٩٦٥) ولكنهما لم يعطيا فرصة لاظهار مقدرتهما إذ كانا تحت وصاية « كافور » حاكم مصر الحقيقي . كان ابو المسك كافور عبداً حبشياً اشتراه الأخشيد بثمن بخس وولاه قيادة الجيوش ثم نصبه استاذاً لأولاده ، وقد نجح كافور بعد حروب مع الحمدانيين فى مد املاك مصر الى حدود الاناضول وأحاط نفسه بالشعراء والعلماء وبذل لهم الهبات

كافور

ولما مات أبو الحسن على الاخشيد سنة ٩٦٥ اعتلى العرش « كافور »

ومنحه الخليفة لقب استاذ مصر وأملاكها ، فبقي يدير شئونها فى بذخ وتنعم حتى مات سنة ٩٦٨ بعد أن حكم مصر اثنين وعشرين سنة ، وبمجرد موته اجتمع رجال البلاط وانتخبوا —من تلقاء أنفسهم وبدون رجوع لأمر الخليفة العباسى — من بنى الاخشيد ملكا لمصر وممتلكاتها كما انتخبوا ولى عهد له ، إلا أنهما لم يضطلعا باعباء الحكم فتطلع « المعز » رابع الخلفاء الفاطميين الى ضم مصر الى أملاكه فلم تمض سنة على موت كافور حتى دخل الجيش الفاطمى الفسطاط سنة ٩٦٩ وانفصلت مصر عن بغداد نهائياً

الدولة الفاطمية (٩٦٩ — ١١٧١)

أصل الشيعة

لما توفى النبى صلى الله عليه وسلم دون أن يعين خلفه انتخب مسلمو المدينة أبا بكر ثم عمر ثم عثمان خلفاء عليهم وأقر المسلمون عامة ذلك الانتخاب . إلا أن أناساً كانوا يرون أن مبدأ الانتخاب يجر الى مشاكل كثيرة وان الاولى اتباع مبدأ الوراثة ، وان على ابن أبى طالب يجب أن يكون الوارث الوحيد للنبى صلى الله عليه وسلم لانه ابن عمه وزوج ابنته فاطمة الزهراء وأبو حفيديه الحسن والحسين

وأصحاب هذا المذهب يعرفون بالشيعة لتشيعهم وتشجيعهم لعلى وأولاده ، وقد أذكى تحمسهم لأهل البيت الاضطهادات الكثيرة التى أوقعها الامويون بآل محمد والتى بدأت بحادثة « كربلاء » وأدت الى سقوط دولة بنى أمية وقيام دولة بنى العباس مكانها، إلا أن العباسيين

اضطروا الى اضطهاد العلويين خوفاً من نفوذهم وكثرة الموالين لهم وتعدد الثورات التى قام بها الشيعة يحاولون القضاء على الدولة العباسية واحلال أحفاد « على » محلها

الشيعة فى أفريقية

والذى يعنينا الآن انتشار دعوة الشيعة بين البربر فى شمال أفريقية لم تكن أفريقية يوماً ما مرتبطة بالامويين ولا بالعباسيين ارتباطاً شديداً، بل كانت كثيرة الثورات والقلاقل كما رأينا حتى تركها الرشيد شبه مستقلة تحت أمرة بنى الاغلب . لهذا ولبعدها عن بغداد ، ولتفشى الجهل بين أهلها وتصديقهم ما يقصه دعاة الشيعة من المظالم التى لا تفتأ تقع على آل بيت محمد ، ولسهولة اثارة حميتهم لدعوة دينية فى الظاهر ، - لكل هذه الاسباب وغيرها كانت أفريقية تربة خصبة لبث الدعوة لبنى على وفاطمة

عبيد الله المهدى

وأكبر الدعاة لبنى فاطمة فى المغرب «ابو عبد الله الشيعى»، وقد بدأ ينشر الدعوة سنة ٨٩٣ «لعبيد الله بن محمد» من نسل جعفر الصادق فتبعه خلق كثير أقنعهم بقرب ظهور المهدى المنتظر من بيت النبوة ، ولم تمض سنون قليلة حتى بلغ جيشه مائتى الف مقاتل وحتى قضى على الدولة «الاغلبية» من شمال أفريقية سنة ٩٠٨ وأعلن «عبيد الله المهدى» أنه المهدى المنتظر وانه وحده خليفة النبى سنة ٩١٠ وعرف نسله بالفاطميين [1]

وكان عبيد الله حاكماً نشيطاً دان له شمال أفريقية من مصر الى قرب شواطئ المحيط الاطلسى، وقضى على ما كان يرمى اليه الشيعة أنفسهم من اهمال الدين والانغماس فى اللهو ونشر المذاهب الفوضوية

(١) انتساب عبيد الله المهدى الى سيدنا على موضع شك كبير

القائم بأمر الله

وخلفه ابنه « القائم بأمر الله » (٩٣٤ — ٩٤٦) وقد أرسل جيشاً استولى على الاسكندرية سنة ٩٣٥ فطرده جند محمد الاخشيد وأوقع به هزيمة منكرة : ثم اشتغل « القائم » باخضاع ثورة داخلية فى المغرب استمرت الى حكم الخليفة الثالث الملقب بالمنصور (٩٤٦ — ٩٥٣)

المعز لدين الله

ثم أعقبهم « المعز لدين الله » (٩٥٣ - ٩٧٥) فافتتح عصراً جديداً. كان المعز سياسياً محنكا يعرف الشروط التى لا بد من توافرها لاحراز النجاح ، ولا يترك فرصة تمر به دون أن يستخدمها لمصالحه ، هذا إلى أنه كان مثقفاً تأخذ بلاغته بالالباب ، واسع الكرم محباً للعدل

بدأ المعز بالطواف فى ملكه الشاسع لاستطلاع أدواء الرعية ووصف دوائها وعين « جوهر الصقلى » وزيراً وقائداً لجنوده ففتح بقية المغرب الى شاطئ المحيط ، ولكن أكبر أمانيه كانت فتح مصر لعظم ثروتها ووفرة تجارتها ونشاط أهلها ، ولما علمه من ضعف الحكومة بعد موت كافور ، وعصيان الجند وانخفاض النيل سنة ٩٦٧ وما تلاه من قحط ووباء فني به خلق كثير

جوهر وفتح مصر

شرع المعز يحفر الآبار على طول الطريق من «القيروان» عاصمة ملكه الى الاسكندرية وتخزين المؤن والذخائر وسير جوهر القائد من القيروان فى فبراير ٩٦٩ بمائة الف جندى . فلما وصل الى الاسكندرية طلب السكان منه الأمان فأمنهم وسار الى الفسطاط فاستولى عليها بعد مقاومة يسيرة، ولم يبت ليلته حتى وضع أساس القاهرة حيث شيد قصرين عظيمين أحدهما قصر الخليفة الخاص والآخر كان بمثابة متنزه يطل على

حديقة كافور بينهما ميدان لاستعراض الجند يعرف باسم « ما بين القصرين » . وكان الخليفة يمر من أحد القصرين الى الآخر بطريق تحت الارض خشية أن تكثر رؤية الناس له فيستهينوا به . وقد بالغ المؤرخون فى وصف هذين القصرين مبالغة عظيمة ، وبنى « الجامع الازهر » كذلك (٩٧٠ - ٩٧٢) ليصلى فيه الخليفة بالناس يوم الجمعة

ثم التفت إلى إعادة السكينة وتخفيف وطأة القحط بما أرسله المعز من الحبوب وبالزام جميع التجار أن يبيعوا حبوبهم بأثمان معتدلة أمام المحتسب (مندوب الحكومة فى السوق) ، ولضمان العدالة جعل حكم كل جهة بيد حاكم مصرى وآخر مغربى . وما لبثت بلاد النوبة أن قبلت أن تدفع له الجزية المعتادة وخطب له الحمدانيون فى شمال الشام وأخضع جنوب الشام وطرد منه حسين الاخشيد

اتساع ملكه

وعند ذلك الح جوهر علي سيده ان يبادر بالحضور الى عاصمته الجديدة فحضر اليها باهله وولده، بل ورفات اسلافه، ودخلها فى مايو سنة ٩٧٣ فاستقبله أهل البلاد بالترحاب واعجبهم كرمه وبلاغته

دخول المعز مصر

وبحضور المعز صارت لمصر السيادة - لا على بلاد النوبة وجنوب الشام فقط - بل على الحجاز وبلاد المغرب نفسها، إذ كانت مركز دولة الفاطميين وقلبها النابض ، منها تصدر الاوامر الى انحاء الدولة وتدبر شئونها ومنها يذهب الحكام لبقية البلاد

أعماله

وقد انتفع المعز بثغور مصر لزيادة اسطوله فاقام حوضاً فى المقس - وهى ثغر القاهرة قبل بولاق - وبنى به ٦٠٠ سفينة وهو أكبر اسطول

رأته مصر منذ الفتح الاسلامى واستبقى الجيش فى كفاية حربية عظيمة، وعني بالنيل والرى والزراعة والقضاء

وفى آخر حكمه غزا « القرامطة » مصر ووصلوا الى عين شمس سنة ٩٧٤ وانتشروا فى جميع انحاء القطر يفسدون ويخربون ، ثم حاصروا القاهرة وكادوا يستولون عليها لولا ان عَمد الخليفة الى تقديم مبلغ كبير من الذهب الزائف الى شيخ بنيِ طى اكبر حليف للقرامطة ، فتخاذل فى الموقعة التالية . واستطاع « المعز » ان يطارد القرامطة الى سوريا ومات سنة ٩٧٥ فى السادسة والاربعين من عمره . وقد ترك لمصر دولة مترامية الاطراف لم يقو خلفاؤه على الاحتفاظ بها كاملة بل استقلت عنهم افريقية سنة ١٠٤٦ وضعف نفوذهم فى سوريا التى كانت مهداً للقلاقل . ولم يخضع لهم عن طيب خاطر الا الحجاز رغم ما كان لهم من قوة برية وبحرية اذ اتخذوا جنوداً من البربر ، وآخرين من الترك وغيرهم من السودان

العزيز

خلف العزيز (٩٧٥ — ٩٩٦) اباه وكان حسن الطلعة قائداً جريئاً ميالا للتسامح حتى مع اعدائه . وقد استوزر من أول حكمه « يعقوبْ ابن كِلس » وهو يهودى اعتنق الاسلام وبقى متربعاً في كرسى الوزارة نحو خمسة عشر عاماً وكذلك استوزر « عيسى بن نسطريوس » ، وبفضل هذين الوزيرين امتلأت الخزانة وانتشرت السكينة فى ربوع البلاد ، ولكنهما كانا يحبان جمع المال ويؤثران مظاهر العظمة والابهة ولا يقلان عن سيدهما فى حب التحف النادرة والملابس الفاخرة والاحجار الكريمة ، وغيرها من لوازم الترف والثروة التى جعلت مصر فى عهد الفاطميين مضرب الامثال

واهم من هذا آثار العمارة والهندسة وتنظيم الحكومة فى عهده ، فقد بنى الجامع المعروف بجامع الحاكم لأن الحاكم هو الذى اتمه ، وحفر ترعاً عديدة وشيد القناطر والحياض

و « العزيز » أول من نظم الحفلات الرسمية وأول من اعطى موظفيه مرتباً معيناً كما أنه أول من ادخل مماليك الترك فى جيش مصر فكانوا وبالا عليها . ويعتبر العزيز احزم خلفاء الفاطميين وارشدهم . ولسوء حظ مصر لم يعقب العزيز الا ابناً واحدا من أم مسيحية هو الحاكم بامر الله



مشكاة من الزجاج المحلى بالمينا

(٩٩٦ — ١٠٢١)

الحاكم

تولى الحاكم فى سن الحادية عشرة وكان أبوه قد عين « بيرجوان »[١] أستاذاً له أى وصياً عليه ، واسندت قيادة الجند « لابن عمار المغربى » ولقب أمين الدولة وأصبح فى الواقع نائباً عن الخليفة ففضل ابناء جلدته وأعانهم على الجند الاتراك الذين جلبهم العزيز ، فكثر الشجار بين الطرفين فى الطرقات وشاع نهب المتاجر وانتهى الامر بفوز الترك وقتل ابن عمار . واصبح الامر بيد « بيرجوان » ولكنه ترك حبل الامور على غاربها فبدأ « الحاكم » يباشر الادارة بنفسه وظهر ميله لسفك الدماء ، فقتل

(١) لايزال شارع بيرجوان بالخرنفش يسمى باسمه

شذوذ الحاكم

« بيرجوان » وتجلى شذوذه لرعيته فى عدة أوامر خارقة للعادة منها قفل الحوانيت نهاراً ولزوم فتحها وفتح المنازل واضاءتها ليلا وتحريم صنع أحذية للنساء حتى لا يستطعن الخروج من منازلهن وقطع الكروم ومنع الناس من أكل الزبيب والملوخية والعسل

وبعد أن قضى عشر سنين من حكمه دون أن يتدخل فى الامور الدينية لغير المسلمين، أخذته نوبة من التعصب الاعمى حدت به الى اصدار خطرات من وساوسه تضيق على المسيحيين واليهود فى حين أنه كان يختار منهم أعاظم رجال دولته . وقد تمادى هذا الخليفة الشاذ فى سفك الدماء حتى كان وزراؤه وقواده لا يثقون باستقرار رؤوسهم على أجسادهم مهما جلت خدماتهم له

أبو ركوة

وفى عهده توالت ثلاث سنين مجدبة ساءت لها حال البلاد حتى طمع فى غزوها « أبو ركوة » وهو من الاسرة المالكة في الاندلس ، فرّ منها وأقام نفسه خليفة فى المغرب ثم غزا برقة ومصر حتى نزل بالجيزه وعسكر قرب الاهرام ولم تتغلب عليه جيوش الحاكم الا بعد مطاردته الى النوبة بجهد جهيد

ومن أهم آثاره اتمام جامع الحاكم الذى بدأه العزيز قرب باب النصر وتشييد « دار العلم » أو « دار الحكمة » لنشر مذهب الشيعة خاصة وتشجيع العلوم عامة. وكانت دار العلم قصراً فخماً بها مكتبة كبيرة مباحة للخاص والعام يقصدها العلماء من الاقطار النائية

نهاية الحاكم

أما « الحاكم » فما زال جنونه يشتد حتى خيل اليه أنه إله جدير

بالعبادة وساعده ملحدون أتوا من المغرب ومن الفرس وأشهرهم «درازى» الذى أسس مذهب « الدروز » فى لبنان على اعتقاد ألوهية الحاكم وقد أثارت دعوته هذه ثائرة المسلمين ووقعت البلاد فى محنة كبيرة ووقف دولاب العمل فى كل مكان وخرج عليه الجند الترك والمغاربة وانضمت اليهم اخت الحاكم «سيدة الملك»، فهزموا الجنود السودانية التى كانت تحميه . وقتل الحاكم وهو يجول في الصحراء ولم يعثر له على أثر ولا يزال « الدروز » يعتقدون أنه سيعود بعد اختفائه فيصلح العالم

الظاهر

وخلفه ابنه الظاهر (١٠٢١ — ١٠٣٦) وكان فى السادسة عشرة من عمره فقامت باعباء الحكم عمته «سيدة الملك»، فلما أدركها الموت التف حول الخليفة ثلاثة شيوخ أقصوا عنه كل ناصح أمين وأهملوا الرعية. وجاء على أثر ذلك انخفاض النيل فعم الكرب واشتد الغلاء وأصبح الحرب فى الطرقات سجالا بين الجند والاهالى — كل ذلك والخليفة منغمس فى ملذاته عاكف على لهوه وقسوته

المستنصر

ولما مات بالطاعون خلفه ابنه المستنصر (١٠٣٦ — ١٠٩٤) وعمره سبع سنين، وكانت مصر قد فقدت كل ممتلكاتها تقريباً فحاول المستنصر أن يسترجع المغرب فأرسل عرب « بنى هلال » المشهورين ففتحوا برقة وطرابلس فقط وأقاموا فيهما

أما بلاد العرب فمعظم نفوذ الفاطميين فيها، لا بجهودهم أنفسهم، بل بقيام دعاة لمذهب الشيعة ملكوا الحجاز واليمن سنة ١٠٦٣ وأعلنوا حق الفاطميين المقدس فى الخلافة

وقد توالى الوزراء فى أول حكم المستنصر دون أن يتمكن أحدهم من

الاحتفاظ بمركزه طويلا حتى تربع فى دستها رجل عصامي يسمى « اليازورى » (١٠٥٠ — ١٠٥٨) أراد اصلاح حال الفلاح وزيادة الأيراد فحرم على المرابين شراء المحصولات من الفلاحين قبل حصادها بثمن بخس وادخر القمح اتقاء القحط ، ولكنه رغم ذلك لم يفلح لسوء الحال العامة. وكان اليازورى محباً للفنون مشجعاً للعلماء ومات مسموماً سنة ١٠٥٨

اضطراب البلاد

وبموت اليازورى تعاقب وزراء كثيرون لم يستقروا فى الحكم الا قليلا لضعف الخليفة وتآمر من حوله من حاشية وجيش ، حتى عمت شكوى الرعية من كثرة التغيير والتبديل فى موظفى الحكومة المسئولين. وزاد الطين بلة ان اشتد النزاع بين الجند السودانية والاتراك وتغلب الترك وطردوا أعداءهم الى الوجه القبلى فأصبح الصعيد كله فى قبضة السودانيين . واستولى الترك وحلفاؤهم من البربر بزعامة « ناصر الدولة ابن حمدان » على الوجه البحرى وخربوه وتوالى القحط سبع سنين لغاية ١٠٧٢ حتى بيع الرغيف بخمسة عشر ديناراً وأكل الناس الخيل والحمير والكلاب والقطط حتى أتوا على آخرها، ثم انقلبوا يأكل بعضهم بعضاً وصار لحم الآدمى يباع فى الاسواق

ولما فنيت ثروة المستنصر — وكانت ثروة لم يسمع بمثلها — نهب الجند الاتراك قصره ونفائسه وبددوا المكتبة الكبرى وكان فيها ما يربو على ١٠٠,٠٠٠ كتاب من أنفس الكتب فى جميع العلوم التى عرفها العرب

وقد ضاق الخليفة ذرعاً بمساوئ الجند ولا سيما الترك منهم فاستقدم «بدرا الجمالى» حاكم عكا — وكان أول أمره مملوكا أرمنياً ارتقى فى سلك الوظائف الكبرى حتى عين حاكما لجهات عدة — فحضر بجنده وأمرهم باغتيال زعماء الترك فى ليلة واحدة فاستراح العباد من شرهم سنة ١٠٧٣.

بدر الجمالى

ونزل الجمالى بشارع بيرجوان وأطلق الخليفة يده فى جميع الامور فأخذ يعيد لقصر الخليفة كل ما عثر عليه من نفائسه السالفة، ثم فتح البلاد من جديد وخلص الدلتا من يد البربر والصعيد من يد السودانية، فأطمأن الفلاحون تحت حكمه العادل وعادوا لفلح أرضهم فكانت العشرون سنة الاخيرة من حكم المستنصر عهد أمن ورخاء. وقد بنى «بدر الجمالى» سوراً حول القاهرة وأزال الابواب القديمة وبنى باب النصر وباب الفتوح وباب زويله فى مواقع مختلفة من السور كما ترى الآن — بناها على نمط الحصون البوزنطية لما علم من مناعتها

سور القاهرة

ومات بدر الجمالى فى ربيع سنة ١٠٩٤ فى الثمانين من عمره وخلفه فى الوزارة ابنه الافضل شاهنشاه ومات المستنصر فى السنة نفسها

وهنا يجدر بنا أن نلم بنظام الحكم في مصر زمن الفاطميين:

كان الجيش ذا طبقات عديدة أهمها طبقة الامراء وضباط حرس الخليفة يرأسهم الاساتذة ورجال الحرس وعددهم ٥٠٠٠، وكانت فرق الجيش كثيرة تسمى كل فرقة باسم الخليفة أو الوزير الذى أوجدها أو حسب جنسيتها كالحافظية والسودانية والرومية والصقلبية، وكان عدد الجيش يزيد وينقص من حين لآخر

الجيش

الاسطول

وكان أسطول الفاطميين مركبا من نحو خمس وسبعين سفينة حربية بلوازمها من النقالات وغيرها وموزعاً على الاسكندرية ودمياط وعسقلان

وكان الموظفون قسمين رجال السيف ورجال القلم ، أما رجال السيف فمنهم الوزير عادة والحاجب وهو يلى الوزير فى المرتبة وقائد الجيوش العام وحامل مظلة الخليفة وحامل سيفه وحامل رمحه وصاحبا شرطة القاهرة والفسطاط ثم خدم القصر

الموظفون

أما رجال القلم فمنهم الوزير أحياناً وقاضى القضاة ، وكان يشرف على ضرب النقود ويجلس للقضاء فى جامع عمرو يومي السبت والثلاثاء ، ومدير دار الحكمة والمحتسب وخازن بيت المال ، ويتبع رجال القلم صغار الموظفين فى مصالح الحكومة غير العسكرية

الاقليم

كانت مصر مقسمة الى اربعة أقسام كبرى الصعيد ويسمى أقليم قوص يقوم بامره حاكم عظيم ، والشرقية وهى كل ما يلى فرع دمياط شرقاً وأهم مدنه بلبيس وقليوب ، والغربية وهى ما بين فرعى النيل وأهم مدنها المحلة ومنوف وابيار ، واسكندرية منضما اليها البحيرة . وكان حاكم كل أقليم يولى من قبله حكاما على النواحى والقرى وتقوم الحكومة المحلية بكل الاعمال التى تعنى الجهة بما فى ذلك الاحتفاظ بالترع والجسور المحلية ، أما الجسور العامة فكان يلاحظها موظف تنتخبه الحكومة العليا سنوياً ويساعده عدد كبير من الخبراء

الافضل شاهنشاه

ولما مات بدر الجمال والمستنصر سنة١٠٩٤ لم يعد للخلفاء الفاطميين حول ولا قوة واصبح الحكم فى مصر بيد وزراء متنازعين يريد كل منهم ان يصرف الامور كما يهوى لا يتقيد برغبة الخليفة. ولذا اهملت طريقة الوراثة فى الخلافة وصار كل وزير يختار من بين سلالة الفاطميين أصغرهم سناً أو أضعفهم ارادة ليملأ به عرش الخلفاء كلما خلا. فلنترك هؤلاء الخلفاء المستضعفين جانباً ولنأت على شىء من ذكر الوزراء الذين ساسوا البلاد الى انقضاء دولة الفاطميين

خلف بدر الجمالى ابنه الافضل شاهنشاه فسار سيرة أبيه بالعدل والحزم فاستمرت الطمأنينة والرخاء. وكان شغله الشاغل اتقاء الخطر الذى يتهدد مصر من جانب الشرق حيث نزلت الحملة الصليبية الاولى فى سوريا وشرعت تنتزعها من يد السلاجقة والمصريين على السواء. وكانت سوريا بوجه عام تابعة لمصر من أيام ابن طولون، لم تشذ عن حكمها الا فى فترات يسيرة، فلما استولى الصليبيون على بيت المقدس سنة١٠٩٩ من الجنود المصرية وتوغلوا فى جنوب فلسطين، حاول «الافضل» ان يصد غاراتهم فهاجمهم مراراً دون جدوى حتى تشجع «بلدوين» ملك بيت المقدس ودخل الحدود المصرية سنة١١١٧ واحرق «الفرما» وتقدم الى «تنيس»، ولم يرجعه عن فتح مصر كلها الا مرضه. ومن ذلك الوقت التزمت مصر خطة الدفاع عن نفسها وقتل «الافضل» بايعاز من الخليفة سنة ١١٢١ وبقيت مصر بعده فى فوضى لا تكاد سلطة الحكومة تمتد خارج قصر الخليفة حتى تولى الوزارة «طلائع بن رزيق» بلقب بالملك

طلائع ابن رزيق

الصالح سنة ١١٥٤ فضرب بيد من حديد على زعماء الفوضى وعاقب المجرمين، وكانت مصر شديدة الحاجة الى رجل قوى مثله بعد ان فقدت عسقلان فى السنة السالفة وكانت عسقلان آخر حصن من فلسطين فى يد المصريين، يتطلع ملوك بيت المقدس الى الاستيلاء عليه وتدافع عنه مصر بكل جهدها

طمع الصليبيين فى مصر

فلما استولى ملك بيت المقدس على عسقلان لم يبق امامه ما يمنعه من غزو مصر، اللهم الا خوفه من ان ينقض السلطان « نورالدين محمود » صاحب حلب على مملكته اثناء تغيبه بمصر لا سيما حين دخلت دمشق فى حوزة نور الدين سنة ١١٥٤ بعد ان كان أميرها حليف الصليبيين

ومن ذلك الوقت تطلع كل من سلطان حلب وملك بيت المقدس الى منع الاخر من امتلاك مصر . وقد بذل «طلائع» كل ما فى وسعه لمحالفة نور الدين بقصد طرد الصليبيين من «سوريا »، ولكن نورالدين لم يبت فى الامر فصرف «طلائع» همته الى توطيد دعائم الأمن فى مصر نفسها، حيث عرف بقوة العارضة والكرم واستماع شكايات الرعية على اختلاف طبقاتها ومد يد المعونة الى ذوى الفطنة والعلم

ولما قتل «طلائع» بدسائس القصر خلفه ابنه «العادل رزيق »، ولم تأت سنة ١١٦٣ حتى تغلب عليه « شاور » وقتله، الا ان « شاور» لم يتم سنة فى الوزارة حتى نازعه فيها «ضرغام» حاجب الخليفة. ففر «شاور» الى نورالدين واستنجد به وتعهد ان يقوم بجميع تكاليف الحملة اللازمة لعزل ضرغام من الوزارة، ويدفع ثلث ايراد مصر جزية سنوية لنور الدين

اما « ضرغام » فلم يجد بداً من الاستعانة « بأمورى » ملك بيت المقدس، فلما حضر هذا الى مصر اضطر نور الدين الى ارسال حملة بقيادة أسد الدين شيركوه تغلبت على ضرغام والصليبيين ونصبت شاور وزيراً

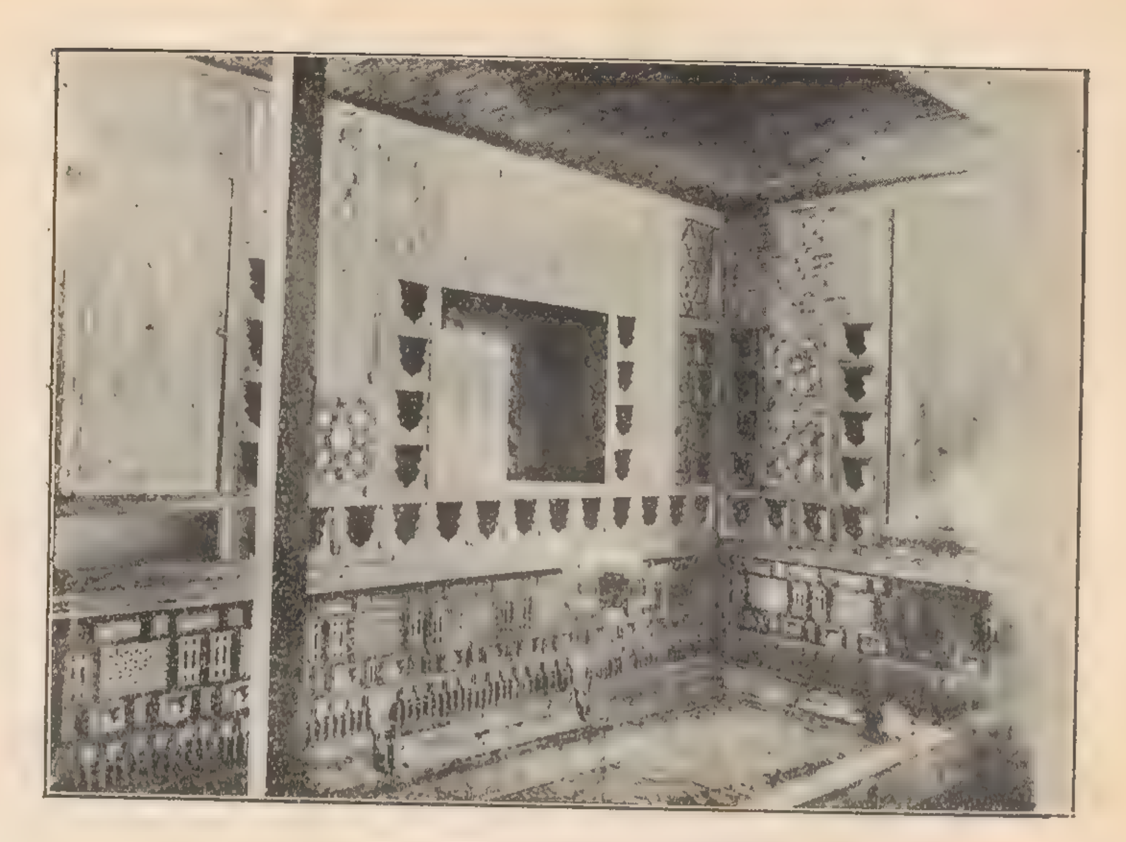
وما زال نور الدين وامورى يتنازعان على مصر حتى انتهى الأمر بفوز نور الدين وصارت مصر مركزاً لدولة صلاح الدين الايوبى كما تراه مفصلا فى الحروب الصليبية

المماليك البحرية

ولما زالت دولة الايوبيين سنة ١٢٥٠ اعقبهم مماليكهم البحرية الذين كانوا سبباً فى محو دولتهم وبقى الحكم وراثياً تارة، وتارة يتولاه أقوى أمراء هؤلاء المماليك حتى استقر الملك ردحاً من الدهر فى أسرة قلاوون (١٢٧٩ — ١٣٨٢) . ولضعف السلاطين الاخيرين من هذه الاسرة عظم شأن فئة المماليك الشراكسة حتى استطاع احدهم ان يعزل آخر خلفاء قلاوون ويتولى الملك باسم « الظاهر سيف الدين برقوق »

المماليك الشراكسة

ولم يستطع احد من المماليك الشراكسة ان يستقل بالسلطة عن زملائه تمام الاستقلال أو أن يورث ابناءه الملك، بل استمروا يختلف اقوياؤهم على عرش مصر حتى انهزم آخر سلاطينهم « الغورى » و « طومانباى » أمام قوات السلطان العثمانى « سليم الاول » سنة ١٥١٧ ففقدت مصر استقلالها الذى تمتعت به طول العصور الوسطى ودخلت ضمن ولايات دولة الاتراك العثمانيين .



صورة حجرة بمنزل في رشيد مأخوذة من دار الآثار



جامع ابن طولون

الفصل الثاني عشر

نشأة الاتراك العثمانيين

أصلهم

الاتراك العثمانيون — كأسلافهم الاتراك الساجوقيين ، وكقبائل الهون الذين زحفوا على أوربا فى القرن الخامس — من الجنس المغولى أو التورانى ، ومهدهم الاصلى وسط آسيا وشمالها . وينتسب الى هـذا الجنس أيضاً قبائل البلغار الذين زحفوا على شرق أوربا واستوطنوه أثناء القرنين السابع والتاسع

أول ظهورهم فى التاريخ

والاتراك العثمانيون آخر القبائل الآسيوية التى زحفت على أوربا واستوطنتها ، وأهم وأثبت الدول المغولية التى ظهرت فى التاريخ [1]

ولقد بدأ تاريخ العثمانيين بحادثة روائية جليلة الشأن ، وتدل على ما فى أخلاقهم من الشهامة والبطولة . ففى منتصف القرن الثالث عشر كانت قبيلة صغيرة من قبائل وسط آسيا — التى اكتسحها المغول —

---

(٢) أول ظهور المغول فى التاريخ كأمة حاكمة كان فى القرن الحادى عشر ، وأول زعيم عظيم لهم هو « جنكزخان » (١٢٠٦-١٢٢٧) ، ويعد من أشد وأقسى القواد الذين روى التاريخ أخبارهم ، فقد اكتسحت جيوشه شمال الصين وتركستان والفرس وروسيا ودمرت كل ما وقع تحت نظرها . وامتد سلطان المغول بعـد موته الى وسط أوربا ، وقضى حفيده « هولاكو » على الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨

ومن أهم خلفائه « قبلاى خان » (١٢٥٩-١٢٩٤) الذى اتخذ « بكين » عاصمة له ، وجاءت اليه الوفود والسفراء من كل الانحاء ، الا أن دولته اضمحلت بعد موته .

وجاء « تيمور لنك » (١٣٦٩-١٤٠٥) فوحد الدولة من جديد ، واتخذ « سمرقند » عاصمة له . وكان يريد اخضاع جميع العالم لسلطته ، لكن دولته انقرضت بعد موته ، ولم يبق لها أثر الا فى الهند حيث اسس « بابر » — وهو من نسل تيمور لنك — سنة ١٥٢٥ دولة المغول العظيمة ، التى خلفت فيها ابدع الآثار ، واستمرت الى أن قضى عليها الانجليز فى القرن الثامن عشر .

تجول بقيادة رئيسها « أرطغرل » فى آسيا الصغرى قرب أنقرة ، إذ رأت جيشين يقتتلان فى معركة قد حمى وطيسها ، فما كان من رجال هذه القبيلة الصغيرة إلا أن اقتحموا ميدان القتال ، مدفوعين بغريزتهم الحربية ، آخذين جانب الضعيف من المتحاربين ، فدارت الدائرة على الاقوياء وانتصر « ارطغرل » وحلفاؤه الضعاف

ولشد ما دهش « ارطغرل » ورجاله عند ما علموا أنهم ما نزلوا إلا لمساعدة بنى قرابتهم — الاتراك السلاجقة — ضد جموع المغول المغيرين على سلطنة « قونية » ومليكها إذ ذاك « السلطان علاء الدين »

جزاء الشهامة

وقد كافأ علاء الدين تلك القبيلة الصغيرة على صنيعها الجميل بان أقطعها جزءاً من مملكته قرب « بروسة » — تلك القبيلة الصغيرة هى أصل الاتراك العثمانيين ، ورئيسها « ارطغرل » هذا هو والد عثمان الذى سميت باسمه الامة والدولة

عثمان

ولما مات « ارطغرل » سنة ١٢٨٨ ، خلفه ابنه الاكبر عثمان وأبدى شجاعة عظيمة فى التغلب على القبائل والقلاع المجاورة له والتى كانت بأيدى الروم . وكان جزاؤه أن رقاه السلطان « علاء الدين » الى رتبة الامراء ، وجعله حاكما مستقلا فى جميع الاراضى التى فتحها

استقلاله

وفى عام ١٣٠٠ أغار المغول على دولة السلاجقة بآسيا الصغرى فقضوا عليها ، وتوفى السلطان علاء الدين ، واستقل كل أمير بمقاطعته وأصبح عثمان مستقلا تمام الاستقلال فى إمارته ، فجعل يوسع أملاكه رويداً رويداً حتى قاربت فتوحه « بروسة »

وقد اهتم عثمان بتنظيم جيشه وحكومته ، فكبر اسمه وعظم شأن دولته وطار صيت آل عثمان بين الامراء . لذلك كله اعتبر عثمان المؤسس الاول لدولة آل عثمان ولهذا أيضاً انتسبت اليه الدولة والامة

اورخان

وفى سنة ١٣٢٦ مات عثمان وخلفه ابنه « اورخان » الذى تدرب على أعمال الحرب والحكم فى عهد أبيه . وكان « أورخان » عالى الهمة شجاعاً ، فواصل الحرب حتى استولى على بروسة واتخذها مقراً للدولة الحديثة و بذلك اقترب آل عثمان من القسطنطينية مقر الدولة البوزنطية. ولم يكن بد من استمرار الحرب بين حكومتين إحداهما فتية قوية تريد أن توسع سلطانها والاخرى هرمة آخذة فى الاضمحلال فاستولى اورخان على أزميد، ولكن قبل أن يتمكن العثمانيون من الوصول الى القسطنطينية رأى أورخان ضرورة القيام بعدة اصلاحات كان لها أثر مباشر فى الانتصارات التى كسبها العثمانيون بآسيا الصغرى أولا ثم فى أوربا

بدء الانكشارية

وأهم الاصلاحات فى عهد أورخان تنظيمه للجيش وإنشاء فرقة الانكشارية أو اليكجيرية ومعناها الجيش الجديد . وقد كان الجيش فى أول الامر عبارة عن عدد من الفرسان يجتمعون وقت الحرب من غير نظام أو معرفة ثم ينصرفون بعد الموقعة ، فعول اورخان على أن يكون جيشه ثابتاً ووضع نظاماً خاصا لتدريب الجند وأشار عليه أحد وزرائه بتكوين فرقة من الشبان الاسرى من أبناء المسيحيين يجمعونهم ويفصلونهم عن كل ما يذكرهم بوسطهم الاول فينشأون على حب الدين الاسلامى والوطنية العثمانية، لايعرفون سوى السلطان أباً والحرب والجهاد ديدنا. ولما كانوا مقطوعين عن الاهالى صار لايخشى من عصبيتهم أو تحزبهم

فأعجب السلطان بهذا المشروع وأمر بتنفيذه وبذلك نشأت طائفة من أقوى الطوائف العسكرية التى ظهرت فى التاريخ. ويعد ظهورها من أهم العوامل التى ساعدت الدولة على فتوحها العظيمة فى أوربا والشرق . ولما كان مجال الرقى مفتوحاً أمام أفراد هذه الطائفة استبسل الجميع فى الحروب وخاضوا غمارها مضحين بكل شيء الا الشرف. وكان السلطان يجمع لهذه الفرقة

جندى انكشارى

الفاً من أبناء المسيحيين كل سنة . ولما وقفت الفتوح فرضتها الحكومة جزية على المسيحيين من رعاياها واستمرت هذه الطائفة عوناً للسلطان والحكومة مدة ثلاثة قرون وصل فيها أفرادها الى أرقى الدرجات[١]

اصلاحاته الداخلية

ومن اصلاحات اورخان أنه ولى أخاه الاكبر « علاء الدين » الوزارة وأمر بسك العملة وأسس المدارس والتكايا. ولما مات علاء الدين خلفه فى الوزارة أكبر أولاده «سليمان» وعهد اليه السلطان فى كثير من الحروب فاجتاز سليمان باشا مضيق الدردنيل سنة ١٣٥٧ ومعه عدد من

أول فتح فى اوربا

---

(١) لما ضعفت الحكومة المركزية فى القرن الثامن عشر استأثر ضباط الانكشارية بالسلطة وأساؤا التصرف وكانوا سبباً فى وقوع كثير من القلاقل والاضطرابات واستمروا فى شغب وتمرد حتى قضى عليهم السلطان محمود الثانى سنة ١٨٢٦ م

أقوى جنوده ، حتى اذا وصلوا الى الشاطىء الاوربى أخذوا ما كان به من قوارب وعادوا تحت جنح الظلام، ونقلوا عليها جيشهم وكان يبلغ ثلاثين ألفاً فتمكنوا من احتلال «غاليبولى» وبعض مدن اخرى كانت مبدأ فتوح العثمانيين فى اوربا

وفى سنة ١٣٥٩ مات سليمان باشا ولى العهد فحزن عليه اورخان حزناً مفرطاً ولم يعمر بعده سوى سنة، وتولى بعده ابنه مراد الاول

مراد الاول

واصل مراد الفتوح كأسلافه وكانت فاتحة أعماله ان استولى على « انقره » مقر سلطنة بعض أمراء السلاجقة الذين مافتئوا مستقلين فى آسيا الصغرى والذين مالبثوا ان اندمجوا تدريجاً فى دولة العثمانيين . أما على الساحل الاوربى ففتح مراد مدناً مهمة أولها « أدرنه » التى نقل اليها عاصمته لحصانة موقعها ولقربها من الميدان الاوربى . وفتح أيضاً « فِلِبه » وغيرها من المدن و بذلك أحاط العثمانيون بالقسطنطينية وحالوا دون اتصالها بالممالك المسيحية الاخرى في البلقان. ولما عظم اتصال أملاك الترك بالساحل الاوربى رأى السلطان مراد ضرورة العناية ببناء بعض السفن الصغيرة فى بحر مرمره وبذا تكونت نواة القوة البحرية العثمانية

فتح انقره

نقل العاصمة

بدء الاسطول

ولما رأى المسيحيون ازدياد قوة العثمانيين في اوربا هالهم الامر وخشوا أن يكتسح الترك شرق أوربا فاجمعوا أمرهم وتكون حلف من ملوك الصرب والبلغار والمجر وكاتبوا البابا وطلبوا اليه أن تساعدهم أوربا ضد تقدم الاتراك، وسار جيش الحلفاء قاصداً « أدرنه » فارتدوا عنها خاسرين . وتقدم الاتراك غرباً يضمون أراضى البلغار ثم الصرب وتقابل الجيشان في سهول « قوصوه » سنة ١٣٨٩ حيث قامت معركة هائلة من أشهر معارك

حلف أوربا

معركة قوصوه

التاريخ دافع فيها الصربيون ومن تطوع لمساعدتهم من أهل أوربا دفاع الابطال، واستمرت الحرب سجالا بين الجانبين مدة من الزمن الى أن ضعفت مقاومة الحلفاء أمام هجمات الاتراك، فانهزم الصرب وقتل ملكهم. وكانت نتيجة هذه الموقعة ان فقدت الصرب والبلغار استقلالهما ومات كثير من امراء وأعيان أوربا

وبينما كان السلطان مراد يتفقد ميدان الحرب بعد الموقعة قام جندى من بين القتلى وطعنه بخنجره فخر صريعاً ومات لوقته، بعد أن وصل حدود دولته فى اوربا الى شواطىء نهر الطونه

الصاعقة

وخلفه السلطان «بايزيد الأول» الملقب «بالصاعقة» وكان كأسلافه على جانب عظيم من الشجاعة والاقدام والمهارة الحربية، بدأ أعماله بأن أمن جانب الصرب الذين أظهروا فى حروبهم وفى سبيل صيانة استقلالهم استبسالا واستماتة خليقين بالاعجاب، فعين «اسطفان» بن «لازار» الملك

استرضاء الصرب

المقتول، ملكا مستقلا على صربيا يحكم البلاد حسب قوانينها وعاداتها بشرط دفع الجزية وتقديم عدد معين من الجنود يشترك مع العثمانيين فى حروبهم. وتأييداً لهذا الاتفاق قبل السلطان أن يتزوج بأخت الملك اسطفان

رد الاوربيين

ثم اهتم بتوطيد السلم فى اسيا الصغرى حيث لم يزل بقايا آل سلجوق يثورون ضد الدولة من حين لآخر، فضم كثيراً من مدنهم وأملاكهم، ثم عاد الى اوربا فواصل الفتح فيها فاحتل «سلانيك» وحاصر القسطنطينية، ثم بلغه أن اوربا قد كونت حلفا جديداً اشترك فيه عدد عظيم من فرسان المجر وبولنده وفرنسا والمانيا برياسة «سجسمند

Sigismond » ملك المجر ، فسار اليهم السلطان بايزيد وأدركهم يحاصرون « نيقوبوليس » ، فانقض عليهم بايزيد وأوقع بهم شر هزيمة سنة ١٣٩٦ .

نيقوبوليس

وأخذ بايزيد بعد هـذا النصر المبين يخترق بلاد مقدونيا واليونان ويفتح المدن ، وبينما هو يستعد لفتح القسطنطينية إذ وصل اليـه خبر هجوم المغول أو التتار على أسيا الصغرى بقيادة الطاغية « تيمورلنك » أى تيمور الاعرج، فجمع جيوشه وتقابل الجيشان فى سهل أنقرة سنة ١٤٠٢، ولما بدأت المعركة انحاز عدد كبير من جنود بايزيد الاسيويه الى امرائهم الاصليين الذين انضموا الى تيمور بعد أن استولى العثمانيون على بلادهم ، لذلك ضعف جانب العثمانيين فى الموقعة ودارت الدائرة على بايزيد فوقع أسيراً هو وابنه وانكسر العثمانيون شر انكسار . أما بايزيد فمات فى الاسر كمداً سنة ١٤٠٣ ، وسمح تيمور بنقـل رفاته الى بروسة ليدفن بجانب أجداده . وهذا يدل على أن تيمور كان يكرم بايزيد

هجوم المغول

هزيمة انقره

وقد كادت هزيمة أنقرة تقضي الى زوال دولة العثمانيين لولا تجزؤ دولة المغول على أثر موت تيمورلنك سـنة ١٤٠٥ وهو فى طريقه الى الصين

وقد تجزأت الدولة بعد بايزيد وعاد أمراء آل سلجوق الى اماراتهم كما استقل الصرب والبلغار والافلاق . وقد زاد حرج الحالة أن أبناء بايزيد تنازعوا فيما بينهم على العرش واستمرت الحروب بينهم الى أن تغلب « محمد الاول » (١٤١٣ — ١٤٢١) فوحد الدولة من جديد وقمع الفتن وقضى على الفوضى والثورات واسترد جميع ما كان للدولة قبل واقعة أنقرة ، وعقد المعاهدات مع امبراطور القسطنطينية والامراء

الانقسام

لم الشعث

المسيحيين ، ليتفرغ الى توطيد دعائم الدولة فى الداخل. وبينما هو مجد فى ذلك فاجأته المنيـة عام ١٤٢١ فى الثالثة والثلاثين من عمره ، وخلفه ابنه «مرادالثانى» (١٤٢١ — ١٤٥١) فسار وفق الخطة التى ورثها عن أجداده وهى العمل على توسيع رقعة الدولة ومواصلة الفتوح فى أوربا . وكان امبراطور القسطنطينية قد اتفق مع مصطفى بن مراد الاول أحـد المطالبين بالعرش ، فزوده بالسفن والجيوش وسيره لمقاتلة أخيه فانحاز جنوده الى مراد الثانى وقبض على مصطفى وقتل .

القضاء على الفتنة

وأراد «مراد» أن ينتقم من امبراطور القسطنطينية فأعد جيشاً عظيماً وحاصر المدينة عام ١٤٢١ وبعد قتال عنيف ارتد عنهـا العثمانيون لمقاتلة بعض أمراء آسيا الصغرى حيث انتصر مراد واستأنف فتوحه فى اوربا ، فقام المجر بجمع جيش أوربى عظيم بقيادة القائد المجرى « هنياد » فسار الجيش مخترقا بلاد البلقان حتى وصل الى «ورنة» على ساحل البحر الاسود سنة ١٤٤٤ فانتصر العثمانيون انتصاراً باهراً وقتل « لادسلاس Ladisias» ملك المجر وبولونيا . ومات مراد سنة ١٤٥١ بعد أن ثبت حكم الاتراك فى أوربا . ولم يقف فى طريقه سوى اسكندر بك زعيم البانيا الذى أحسن الدفاع عن بلاده وقد ساعدته حصانتها ووعورة مسالكها

هنياد

وخلفه ابنه محمد الثانى أو الفاتح (١٤٥١ — ١٤٨١) وهو الذى أحرز أعظم نصر بفتحه القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وبذلك قضي على الدولة الرومانية الشرقية التى صارت تعرف بالدولة البوزنطية أو الاغريقية بعد ان عاشت عشرة قرون بعد سقوط رومة فى الغرب

وقبل ان نختم الكلام عن نشأة الترك يجدر بنا ان نعرف شيئاً

عن أسباب ضعف الدولة البوزنطية وعن الخدمات التى قامت بها نحو أوربا .

خدمات الدولة الشرقية لاوربا

اما خدماتها فانها بطبيعة موقعها وقفت تحرس اوربا وتصونها من خطر هجوم الشعوب الشرقية كالفرس والعرب والسلاجقة ، وبعملها هذا ساعدت الممالك الحديثة على المضى فى سبيل تكوينها السياسى والدستورى . ومن خدماتها للمدنية والعلم انها فى الوقت الذى عمت فيه الجهالة فى اوربا كانت عاصمتها العظيمة مركزاً حصيناً لمختلف العلوم والفنون وفيها احتفظ بالكنوز الادبية التى خلفها الاغريق والرومان القدماء ومن خدماتها أيضاً أنها مدينت القبائل الصقلبية التى نزلت بالبلقان ووسط اوربا ونشرت بينهم المذهب الارثوذكسى . وهذا هو سبب ارتباط الشعوب الصقلبية ببعضها ذلك الارتباط المتين .

الشعوب الصقلبية

والشعوب الصقلبية باوربا قسمان : القسم الشمالى ويشمل البولونيين سكان بولونيه أو بولنده ، و « التشك » فى بوهيميا وهؤلاء قدتحولوا فى القرن العاشر الى المسيحيـة بواسطة مرسلين من الغرب فكان مذهبهم الكاثوليكي لا الارثوذكسى . أما صقالبة الجنوب فمنهم الصرب الذين نزلوا بالبلقان فى القرن السابع وتحولوا الى المذهب الارثوذكسى فى القرن التاسع واسسوا دولة عظيمة برياسة ملكهم « دوشان » (١٣٣١—١٣٥٥) . ومع أن هذه الدولة تجزأت عقب موته فانها قاومت العثمانيين طويلا كما رأينا . ومنهم اهل البوسنه أو البشناق والهرسك والجبل الاسود .

الشعوب المغولية

أما البلغار فمن الجنس المغولى كالاتراك نزلوا بالبلقان فى القرن السابع وتحولوا الى المذهب الارثوذكسى كالصقالبة . والمجر كذلك من

الجنس المغولى نزلوا باوربا فى القرن التاسع ولكنهم اعتنقوا المذهب الكاثوليكي . وقد اختاروا عليهم ملكا من الاسرة الحاكمة فى فرنسا فى القرن الرابع عشر (١٣٠٨) فادخل فيها المدنية الغربية . وقد قاموا بدور عظيم فى مكافحة الأتراك وخاصة بعد سقوط القسطنطينية .

أسباب ضعف الدولة

أما اسباب ضعف الدولة البوزنطية فتتلخص فيما يأتي : —

(١) ظهور دول شرقية فتية قوية كالفرس والعرب اخذت من الدولة معظم املاكها فى الشرق وجعلت سلطانها قاصراً على شبه جزيرة البلقان وبذلك قلت موارد ثروتها

(٢) ظهور الشعوب الصقلبية فى البلقان وتكوينهم ممالك قوية كثيراً ما شنت الغارة على الدولة وحاولت الاستيلاء على القسطنطينية نفسها .

(٣) كان استيلاء الصليبيين على املاك الدولة كما بينا فى الحرب الصليبية الرابعة سبباً لتجزئة امـــلاك الدولة وايجاد الشحناء والاضطرابات الداخلية

(٤) انقسام الاراء الدينية داخل البلاد وخاصة فى القسطنطينية فقسم الاشراف كان يرى ضم الكنيسة الى بابا رومة حتى تنتفع البلاد بمساعدة البابا وملوك اوربا ضد غارة الاتراك.وقسم الشعب يرى وجوب استقلال الكنيسة الارثوذكسية. اضف الى هذه الاسباب التنازع على الملك وانتشار الوباء المعروف «بالموت الاسود» الذى ظهر فى شرق أوربا سنة ١٣٤٧ وفتك بالناس فتكاً ذريعاً مما أثر فى تجنيد الجيوش وجمعها .

فتح القسطنطينية

غير أن من أهم العوامل التى أدت الى سقوط الدولة البوزنطية ظهور الترك وتضييقهم الخناق على الدولة من كل جهة حتى صارت فى آخر امرها قاصرة على مدينة القسطنطينية وما حولها . ولما استعد السلطان محمد الثانى للحرب الحاسمة بينه وبين البوزنطيين حاصر القسطنطينية براً وبحراً فكان جيشه يبلغ ٢٥٠٠٠٠ وأما السفن فعددها ٨٠ سفينة واقام حول أسوار المدينة عددا من المدافع الضخمة التى كانت تقذف كرات عظيمة من الحجر الى مسافات بعيدة وكانت القسطنطينية فى غاية المنعة من الاسوار والبروج

الحصار

وكان امبراطور القسطنطينية «قسطنطين باليولوغس» آخر الاباطرة رجلا شجاعاً وطد عزمه على ان يموت فى سبيل الدفاع عن عاصمته فاستنجد بأوربا فلم تلب الدعوة سوى جمهورية جنوة إذ أرسلت عدداً من السفن عليها بضعة آلاف من الجنود. ولما رأى السلطان دخول الميناء متعذراً لوجود سلاسل ضخمة على باب الميناء المعروف «بالقرن الذهبى» تحول دون دخول السفن ، فكر في طريقة تغنيه عن اقتحام الميناء من جهة السلسلة وذلك بان يصنع طريقاً من الخشب تنزلق عليه السفن على البر حتى تصل الى القرن الذهبى . وفعلا وجد المحصورون أنفسهم في صبيحة ذات يوم أمام سبعين سفينة كانت قد انزلقت الى الميناء تحت جنح الظلام. واستمر الحصار اكثر من خمسين يوماً أظهر فيها الجانبان بسالة نادرة . وقد قتل قسطنطين بينما كان يدافع بنفسه على أسوار المدينة. وفى ٢٩ مايو

تسيير السفن على اليابس

١٤٥٣ هجم الاتراك هجومهم الاخير فتسلقوا الاسوار ودخلوا المدينة واعملوا السيف فيمن اعترض طريقهم واحتلوا سراى الامبراطور ودخلوا كنيسة « القديسة صوفيا » وكان جمهور المسيحيين واقفاً فى الميدان ينتظر نزول ملاك من السماء ينقذ المدينة فى الساعة الاخيرة، فقتل العثمانيون منهم وأسروا

تأمين السكان

ولما دخل السلطان المدينة أبطل النهب والسلب ودخل كنيسة القديسة صوفيا وحولها الى مسجد جامع للمسلمين كما حول بعض كنائس



أسوار القسطنطينية

أخرى بالمدينة ، وترك الكنائس الباقية للمسيحيين وأعلن الاهالى أنه لا يعارضهم فى اقامة شعائرهم الدينية وانه يضمن لهم حرية دينهم وأملاكهم

اقامة البطريق

ودعاهم الى انتخاب بطريق لهم تكون له ولاساقفته السلطة القانونية التامة فى جميع قضايا المسيحيين المدنية والجنائية . وهذه المنح تدل على مقدار ما أظهره الاتراك من التسامح مع رعاياهم من المسيحيين

ويعتبر المؤرخون سقوط القسطنطينية فى أيدى الترك من الحوادث العالمية التى تدل على نهاية عهد و بدء عهد جديد ، وذلك لعظم أهمية القسطنطينية من جهة ، وللنهضة العلمية التى أحدثها علماء الاغريق وذيوع الادبيات الاغريقية القديمة بفضل هجرة بعض علماء الاغريق على أثر تهديد الاتراك للقسطنطينية

بقية أعمال محمد الفاتح

وقد واصل محمد الثانى فتوحه بعد سقوط القسطنطينية فاخضع معظم شبه جزيرة الموره . وتم له اخضاع البوسنة والصرب والبانيا والقرم . ولم يقف أمامه سوى « هنياد » القائد المجري وأمير ترانسلوانيا الذى صده عن بلغراد عام ١٤٥٦ . وقد حاول فتح ايطاليا فلم يوفق إلا لاحتلال « أترانتو » عام ١٤٨٠

ثم مات سنة ١٤٨١ وخلفه ابنه « بايزيد » الثانى ١٤٨١ — ١٥١٢ وكان ضعيفاً فثار عليه أخوه الاصغر . وبدأ الانكشارية يتدخلون فى سياسة العرش حتى أرغموا بايزيد على النزول عن العرش . وأعلن ابنه سليم الأول ١٥١٢ — ١٥٢٠ الذى هاجم فارس وفتح مصر وضمها للدولة عام ١٥١٧ ، ونزل له الخليفة العباسى بمصر عن لقب الخلافة فأصبحت له ولمن جاء بعده من سلاطين آل عثمان الزعامة الدينية والادبية فى العالم الاسلامى الشرقى ، وقد بلغت الدولة منتهى قوتها فى عهد سليمان القانونى (١٥٢٠ — ١٥٦٦) وبدأت تركيا تتدخل فى السياسة الاوربية الحديثة وتأخذ مكانها بين الدول

الفصل الثالث عشر

حضارة العصور الوسطى فى اوربا

يمكن تقسيم العصور الوسطى بوجه عام الى قسمين :

القسم الاول يبتدىء من سقوط الدولة الرومانية الغربية الى القرن العاشر وتعرف هذه المدة بالعصور المظلمة ، لأنها كانت عصر جهل وفوضى لم تستقر فى غضونها القبائل المتبربرة فى مكان واحد ولم تقم حكومات مركزية قوية، بل كانت السلطة العليا ضعيفة والحروب الداخلية لا تخمد نارها

وأما القسم الثانى فيبدأ بالقرن الحادى عشر وينتهى بظهور معالم النهضة الاوربية وفيه ظهرت بوادر الرقى على أثر قيام الحروب الصليبية فتكونت المدن واشتد ساعد الملوك ونشأت القوميات الاوربية المختلفة بعد أن اضمحلت قوة الاقطاع وانحط شأن البابوية. وفى هذا العصر ظهرت الجامعات ونبتت فكرة البحث العلمي الحديث

الحالة الاجتماعية

لما بدأت غارات المتبربرين أخذت المدن التى كانت عامرة زاهرة في طول الامبراطورية وعرضها تضعف تدريجياً وتفقد أهميتها بسبب الفوضى التى عمت البلاد فنقص عمرانها جميعاً وعفت آثار أكثرها وصارت المعيشة فى الأرياف هى السائدة .

وكان مركز الحياة الاجتماعية ضيعة السيد حيث يقيم الشريف أو

الأسقف أو رئيس الدير وكانت الضيعة وحدة اقتصادية قائمة بذاتها مسقله عن بقية العالم تنتج كل ما تحتاج اليه من مأكل وملبس ومسكن ، ولما كان أهل كل ضيعة يتعاملون بطريق المبادلة ويدفعون الضرائب من نفس محصولهم لم تدع الضرورة الى كثرة النقد .

وقد ولّدت العزلة عن العالم شعور الأخاء بين أهل الضيعة الواحدة وقوّى فيهم هذا الروح اجتماعهم فى كنيسة واحدة وتبعيتهم لسيد واحد واشتراكهم فى الحضور بمحكمة الضيعة حيث يفصلون فى القضايا ويفضون المشاكل باشراف السيد أو نائبه

طبقات المجتمع

الملوك

(١) لم يكن الملوك يتميزون عن عظماء الأشراف بغير اللقب فلم يكن للملك إيراد ثابت ولا جيش دائم . إذ كان اعتماده فى كل ذلك على ما يمده به اتباعه وكثيراً ما كان يوجد بين أتباع الملك من هم أكثر منه ثروة وأعز نفراً ، لا يترددون فى محاربته وانتقاص أملاكه وكسر شوكته

الاشراف

(٢) كان كل شريف مستقلا فى قطيعته يتصرف فيها كيف شاء ، بيده حق الادارة والقضاء والتجنيد وسك العملة ، يقضى وقته فى الصيد والحروب التى يثيرها على جيرانه أو أتباعه ، ويعيش فى قصر حصين مشيد فى الغالب على جبل أو تل يحيط به خندق واسع لا يسهل عبوره إلا بواسطة قنطرة متحركة يخفرها فرسان مدججون بالسلاح ، وفى قمة القصر برج المدفاع عنه إذا هاجمه عدو وفى الطبقات السفلى منه مخازن لحفظ

المؤن والذخائر وكل ما يحتاج اليه أهل القصر من مأكل ومشرب وعدة حتى لا يؤخذون على غرة إذا هم حوصروا ، وكذلك كان بهذه الطبقات كهوف ضيقة مظلمة أعدت لحبس المجرمين أو الاسرى والاعداء، وفى أحد أبهاء القصر كان الشريف يعقد محكمته بحضور أتباعه ويولم الولائم أيام الأعياد والأفراح

الفرسان

(٣) كان للفروسية عهد يربط أفراد هذه الطبقة على تباين درجاتهم وجنسياتهم ولا يعد فارساً إلا من يملك إيراداً سنوياً معيناً وجواداً مطهماً ومالا يستغنى عنه الفارس من دروع ورماح وأسياف ، وكانوا ينشئون فى خدمة الاشراف حتى ينالوا لقب الفروسية فيقضون معظم وقتهم فى الحروب والنزال

ملابس سيد فى القرن الخامس عشر

الرقيق

(٤) كان السواد الاعظم من القائمين بفلح الأرض وغيره من الاعمال من طبقة رقيق الاراضى وكانوا مرتبطين بالارض وملزمين بالعمل فى أرض السيد الخاصة نحو نصف الاسبوع ، ويزرع كل منهم قطعاً صغيرة مبعثرة فى أنحاء الضيعة يمنحه الشريف اياها ويتقاضى عنها جزءاً معيناً مما تنتجه

وكانت حال الطبقة فى منتهى البؤس يعيشون فى أكواخ حقيرة من غرفة واحدة لا يدخلها الهواء والنور إلا من نافذة صغيرة، هى أيضاً المخرج الوحيد للدخان ولا يكاد يوجد بها من الأثاث أكثر مما نراه اليوم عند فقراء الفلاحين فى بلادنا



ملابس سيدة فى القرن التاسع





ملابس سيدة فى القرن الخامس عشر

وقد بقى رقيق الأراضى على حالهم هذه حتى حدثت الحروب الصليبية ونشطت حركة التجارة وزاد النقد واستطاع الارقاء أن يبيعوا ما يزيد على حاجاتهم فى أسواق المدن المجاورة، فلما أحسوا بما يعود عليهم

من هذه الارباح رغبوا فى الاتفاق مع السيد على أداء مبلغ معين بدل ما يقومون له به من الخدمات حتى يتفرغوا لاعمالهم الخاصة . وبدأ هذا النظام يتلاشى فى القرن الثانى عشر وان بقيت آثارها فى بعض الممالك الى القرن الثامن عشر بل التاسع عشر

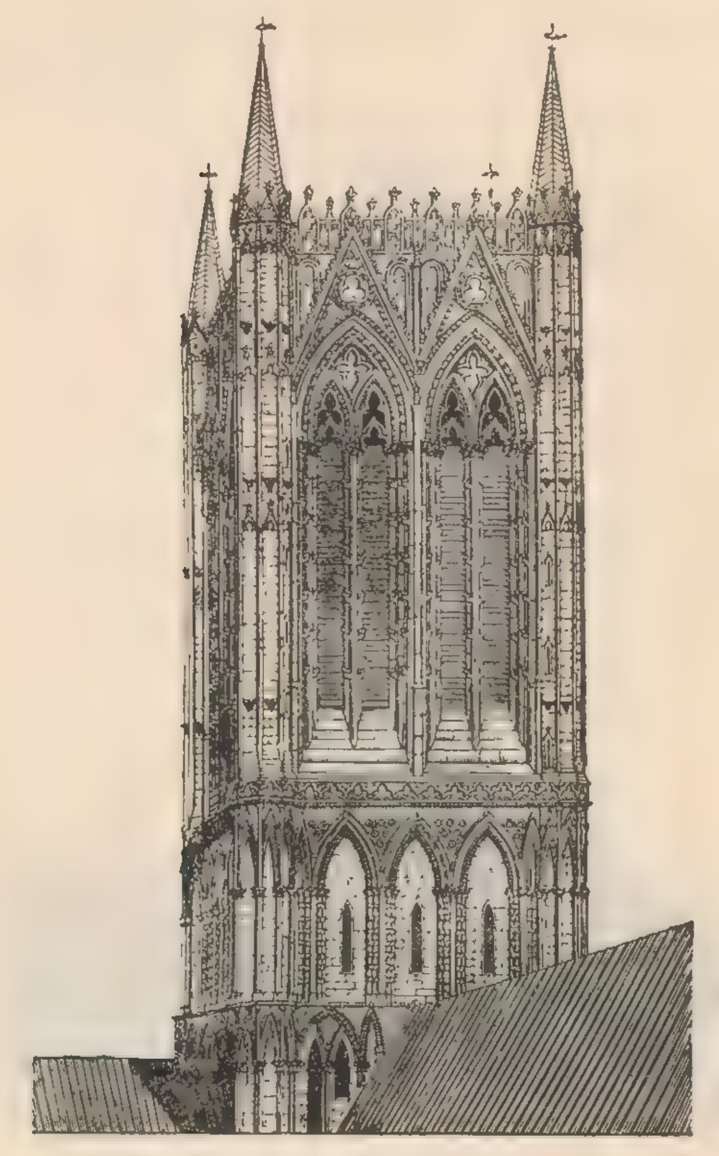
المدن

كانت المدن عند اليونان والرومان مركز الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية بل والسياسية . ولا تزال المدن فى عصرنا منبعث هذه القوى وعماد الدول ولا تقوم الحياة الريفية نفسها بدونها. وقد بدأت تظهر المدن بكثرة فى العصور الوسطى من أول القرن الحادى عشر ، تتألف حول ضيعة السيد أو حول حصنه أو قرب دير كبير. ولما كان الدافع الأول لتكوين المدينة حماية أهلها واللاجئين اليها من غارات الاعداء دعت الحاجة الى احاطتها باسوار تكون دروعاً لها . ولهذا السبب أيضاً كانت بيوتها متقاربة وأزقتها ضيقة على عكس ما كانت عليه المدن الرومانية من السعة والعظمة، فجاءت مدن العصور الوسطى خلواً من المبانى العامة كالحمامات والمدرجات والميادين واقتصرت على فضاء صغير تعقد فيه السوق . ولم تستطع المدن أن ترقى إلا بعد أن تحررت من تبعيتها للسيد وأقامت من أهلها حكومة محلية موافقة لمصالحهم وأفكارهم

بناؤها

ومن مميزات المدينة تشييد برج شاهق يوضع فيه ناقوس كبير ويقوم رجال بحراسته ليل نهار يدقونه ساعة الخطر ، وكان البرج يعد رمزاً لاستقلال المدينة . وبدأ أكثر المدن يقيم منذ القرن الرابع عشر قصوراً للبلدية تعقد فيها الاجتماعات العامة ولا يزال السياح يؤمون

هذه القصور كما يؤمون الـكنائس الجامعة التى بقيت من آثار المدن فى تلك الأيام



برج كتدرائية لنـكان بانجلترا

النقابات

وتحت اشراف نقابة التجار والصناع التى قامت المدينة على كاهلها نمت نقابات فرعية عدة لـكل صناعة نقابة واجبها حماية أفراد المهنة وحرمان غير الاعضاء بالاشتغال بها، فكانت النقابة تحدد عدد من يلتحقون بها وسنى التمرين فى حرفتها الخاصة وعدد « الصبيان » الذين يباح لـكل

« معلم » قبولهم، كما كانت تحدد ساعات العمل وأسعار السلع فى الاسواق وقد ادت هذه النقابات للمدن خدمات قيمة فى عصر سادت فيه الفوضى واشتد ساعد الاشراف فهى التى حمت حرية المدينة من عبث الامراء والاشراف المشاغبين



بلدية بروج في بلجيكا

التجارة

لما اضمحلت الدولة الرومانية قلت العناية بالطرق التى كانت شرايين التجارة من أقصى الدولة الى اقصاها واضطرب الأمن بسبب توغل المتبربرين فى أنحاء الدولة فكسدت التجارة والصناعة، فلما زالت الدولة

الرومانية العالمية وحلت محلها أمارات ضئيلة محلية وأكتفت كل بما تنتجه أهملت الطرق نهائياً ووقفت حركة التبادل وقل النقد . أما فى ايطاليا فلم تنعدم التجارة جملة بل بقيت فيها مدن كالبندقية وجنوة تقوم بجزء عظيم من تجارة البحر الابيض المتوسط وقد رأينا هذه المدن تقدم للصليبيين والحجاج مايحتاجون اليه من سفن ومؤن تكفل لهم الوصول الى الاراضى المقدسة ومنها يعود تجار هذه المدن محملين بنفائس الشرق ، وسرعان ماأقاموا محطات تجارية على سواحل بحر المشرق واتصلوا بتجار القوافل الذين كانوا يجلبون السلع النادرة من بلاد العرب والهند والصين

مدن ايطاليا

ومما زاد نشاط التجارة فى جنوب أوربا عامة وايطاليا وجنوب فرنسا خاصة وجود العرب فى شمال افريقية وفى الاندلس وصقلية. ومن الجنوب سرت التجارة الى بقية اوربا فجعل التجار يعرضون نفائس الشرق فى الاسواق ، فحركت رغبة الاهلين فى الحصول عليها ودعاهم هذا أن ينتجوا فوق مايحتاج إليه مجتمعهم الصغير ليبيعوا الزائد ويشتروا بثمنه تلك النفائس الجذابة من منسوجات حريرية وأبسطة قيمة واعطار نادرة وآنية من الصين وتوابل من جزر الهند الشرقية

نفائس الشرق

ولما وصلت هذه المصنوعات الى أيدى الغربيين حاولوا تقليدها فقامت صناعة الحرير والزجاج والمخمل واستعملت الاصباغ الشرقية وبدأت المدن الفلمنكية بتصدير المنسوجات الصوفية الى الشرق. وماجاء القرن الثالث عشر حتى تكونت مراكز مهمة للتجارة مثل همبرج ولوبك وبريمن فى شمال ألمانيا ومثل نورمبرج واجزبرج فى جنوبها وعلى الطريق التجارى بين ايطاليا والشمال ومثل غنت وبروج فى الاراضى المنخفضة

قيود التجارة في العصور الوسطى

ولم تكن التجارة فى تلك العصور حرة كما هى الآن بل كان المتعارف أن لكل سلعة ثمناً عادلا هو ثمن المواد الغفل وتكاليفها واتعاب صانعها من غير نظر الى قانون العرض والطلب ، ولهذا كان كل منتج ملزماً أن يبيع سلعته للمستهلك مباشرة دون وساطة تاجر الجملة

ولا يقل عن هذا التقييد اعتقاد الناس أنه لا يجوز أخذ ربح على النقود المسلفة وأن هذا يعد ربا، وقد حرمته الكنيسة فى العصور الوسطى تحريماً باتاً فامتنع المسيحيون من التعامل بالربا ، ولما كان قرض المال ضرورياً لترقية الصناعة والتجارة لجأ المنتجون الى اليهود . وكثيراً ما كانوا يفرضون على المدينين ربا فاحشاً يتغاضى عنه الملوك نظير مايفرضونه على هؤلاء المرابين من الاتاوات، فلا عجب ان أصبح اليهود فى غرب أوروبا موضع السخط والاضطهاد فكانوا يميزون عن غيرهم بشارات خاصة ويضطرون للاقامة فى حى خاص من كل مدينة

على أن تحريم الربح أخذ شكلا جديداً حين أباحت الكنيسة اقراض النقود للمنتجين الذين يستغلونها مع بقائه محرماً على غير المنتجين . وعلى أثر ذلك ظهرت البيوت المالية فى لمباردية وقامت شركات تجارية ، وتداعت العقبات التى عطلت التجارة فى العصور المظلمة

ومن القيود الثقيلة التى عاقت سير التجارة فى العصور الوسطى اضطرار التاجر أن يدفع عوائد وضرائب متباينة على الطرق العامة وعلى رؤوس القناطر والمعابر ودخول المدن وعبور حدود كل مقاطعة فضلا عما يحدث من ضياع الوقت والنهب . ومنها اختلاف النقد من جهة الى اخرى فى حدود المملكة الواحدة والاخطار العظيمة التى كانت تحيط

بالتجارة فى البحر من هجوم القرصان وقلة المنائر على الشواطىء وسوء حالة الثغور وقلة الحياض

وللتغلب على هذه المصاعب تكونت عصابات من المدن أهمها عصابة «مدن الهنسا» فى شمال ألمانيا التى بلغت شأواً عظيما من القرن الرابع عشر الى أول السادس عشر، وكانت تضم نحو سبعين مدينة أكثرها على ساحل بحر البلطيق وشواطيء نهر الرين ولها محطات فى أكثر الممالك التجارية، وأشهر مدن الهنسالوبك وكولونى ودنزج وبرنزويك. وقد أنشأت أسطولا للقضاء على القرصان كما كان لها سفراء يمثلونها فى لندن وغيرها، وظلت عصابة الهنسا صاحب السيطرة التجارية فى شمال وغرب أوروبا الى أن كشفت أمريكا

ولما عظمت ثروة التجار زاحموا الطبقتين الممتازتين فزاحموا رجال الدين في تحصيل العلم ونافسوا الاشراف فى الترفه والتنعم، فاهتم الكتاب منذ القرن الرابع عشر بسد حاجة هذه الطبقة الجديدة للعلم فارتفع شأنها وجعل الملوك يعنون برغباتها ويحسبون حسابها فى سياستهم. ويعتبر ظهور الطبقة الوسطى من أكبر العوامل فى التاريخ الحديث

الحالة العلمية فى العصور الوسطى

على الرغم من فناء الدولة الرومانية الغربية بقيت اللغة اللاتينية مستعملة طول العصر الوسيط فكانت تستعمل فى الكنائس وفى الجامعات وكتابة المعاهدات والتقاضى والتأليف، فلا عجب اذا أصبحت معرفتها معياراً لما يبلغه كل شخص من التربية والتعليم. وبفضل استعمال اللغة

اللاتينية فى غرب أوروبا، بقيت شعوبها مرتبطة وسهل على البابا الاتصال بجميع رجال الدين واستطاع الرهبان والتجار وطلاب العلم أن ينتقلوا من جهة الى أخرى غير حاسبين حساباً لاختلاف اللغات المحلية ما دام فى قدرتهم أن يتفاهموا باللغة اللاتينية . على أنه لا يصح أن يتبادر الى الذهن أن اللاتينية المستعملة إذ ذاك كانت اللاتينية التى كان يتكلمها الرومان أيام عظمتهم. لأن هذه لها قواعد وأصول يصعب على المتبربرين فى العصر الوسيط أن يفقهوها، فجعلت لغة الكلام تبعد تدريجاً عن اللغة اللاتينية الصحيحة وتتفرع إلى لهجات عدة فى كل جهة لهجة خاصة .

ظهور اللغات الحديثة

وما زالت هذه اللهجات تنمو وتبعد عن اللاتينية حتى أصبحت كل لهجة لغة قائمة بنفسها رغم أنها جميعاً مشتقة ومؤسسة على اللغة اللاتينية، وأهم هذه اللغات الطليانية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية

أما الاقاليم التى لم تتأثر كثيراً بحضارة الرومان أو لم تدخل فى حدود الدولة يوماً من الأيام ، فبقيت على لهجاتها الجرمانية الأصلية وقويت هذه اللهجات المتفرقة حتى نشأت منها اللغات الالمانية والدانمرقية والهولندية والانجليزية وغيرها

وكل هذه اللهجات سواء منها المؤسسة على الجرمانية والمؤسسة على اللاتينية بقيت مستعملة فى الكلام — من غير أن تكتب — مدة طويلة وتغنى بها الشعراء والرواة وتناقل الشعب قصائدهم وقصصهم بطريق السماع والحفظ ولم يكتب بها شىء قبل عهد شرلمان

وأول ما ظهر من اللغات الجرمانية المكتوبة الانجليزية، السكسونية فقد دون بها فى نهاية القرن الثامن وشجع الكتابة بها الملك « الفريد

الاكبر » ومن ذلك الوقت ظهر السجل « الانجليزى السكسونى » واستمر تدوين الحوادث بها الى سنة ١١٥٤، وكانت اللغة الانجليزية السكسونية فى ذلك الوقت تختلف اختلافاً بيناً عن اللغة الانجليزية الحالية ولم تقرب منها قربا محسوساً إلا فى عهد ادوارد الاول فى أول القرن الرابع عشر

وأما اللغات التى ترجع فى أصلها الى اللاتينية فكان أكثرها شيوعا اللغة الفرنسية ولم تكن لغة واحدة إذ ذاك بل كان فى النصف الشمالى لغة تختلف عن لغة النصف الجنوبى، و بكليهما تغنى الشعراء والعامة وقصّوا تواريخ أبطالهم. ولم يدون شيء بهاتين اللغتين قبل أول القرن الثانى عشر، وأهم ما دون أنشودة « رولند » أحد فرسان شرلمان الذى مات فى جبال البرانس أثناء عودته من قتال المسلمين فى أسبانيا

الشعراء

وما لبثت لغة الجنوب « بروفنسال Provençal » ان بلغت أوج عظمتها حين ظهر جماعة « التروبادور Troubadours » وقصدوا القصائد ووضعوا الاغانى وترددوا على قصور الاشراف يوقعون أشعارهم على نغمات الآلات وخاصة القيثارة. وبهؤلاء الشعراء أزهرت اللغة والادب والحضارة في جنوب فرنسا وخصوصاً فى أمارة « تولوز » الي اوائل القرن الثالث عشر

وظهر فى المانيا جماعة يشبهون « التروبادور » ويسمون « منسنجرس Minnesingers » أنشدوا القصائد الغرامية وعظم شأنهم فى القرن الثالث عشر أيضاً

وعلى الرغم من التقدم اللغوى الذى سبق ذكره كان الجهل متفشياً

جهل العصر الوسيط

فى العصر الوسيط لأن علوم القدماء وآدابهم كان مدونة بأحدى اللغتين الاغريقية واللاتينية ولم يكن لها تراجم باللغات الحديثة. ولما كانت معرفة هاتين اللغتين قاصرة على القليل النادر من الناس بقيت العلوم والآداب كنوزاً مغلقة لا تعرف قيمتها بل لا يحس لها وجود، فكان مبلغ علمهم بالتاريخ عبارة عن تصورات ابتدعها الوهم وجسمها الخيال تدور حول أشخاص من العظماء السابقين كالاسكندر وقيصر وشرلمان

وأما من حيث العلوم الطبيعية فكانت أدمغتهم محشوة بالخرافات إذ كانوا يعتقدون بوجود حيوانات كالغول والعنقاء ووحيد القرن

الفنون

كانت الفنون ناطقة بأفكار العصر وعاداته وأولها ظهوراً التصوير اذ كان الرهبان ينسخون الكتب بأيديهم ويحلون صدورها وبعض صفحاتها بصور صغيرة تمثل موضوعاً دينياً على الاكثر، وكانوا يستعملون فى تصويرها الألوان البهجة ويسرفون فى اللون الذهبي، وأهم ما عنى الرهبان بتحليته صدور الكتب الدينية التى يتناولها كبار القساوسة، وتدرجوا من ذلك الى تصوير الرسل والقديسين والأسرة المقدسة وبعض المناظر المذكورة فى الانجيل كالجنة والجحيم والشيطان، حثاً على الفضيلة وتنفيراً من الرذيلة

كذلك كانت الكتب غير الدينية تحلى بصور مألوفة مأخوذة من الحياة اليومية أو بصور خيالية. وقد شاع أيضاً تزيين هوامش الكتب والحروف الاولى من كل فصل من فصولها بأشكال هندسية وصور بديعة منقولة عن الطبيعة كالازهار والاوراق والاشجار. ولم يكن المصور

حراً فى صناعته ، بل كان مقيداً بما جرى به العرف من أن لكل لون استعمالا خاصاً ولكل شكل وضعاً معيناً لا بد من مراعاته



كنيسة ريم فى فرنسا من أبدع نماذج البناء القوطى

أما الحفر فكان مقصوراً على زخرفة البناء دون تجاوز ذلك الى الحفر تمثيل الجسم الانسانى كما كان يفعل القدماء ، لذلك كان الحفر فى العصر

البناء الوسيط خادماً لفن العمارة . وبلغت العمارة إذ ذاك شأواً بعيداً إذ كانت الشعوب بل المدن تتبارى فى تشييد الكنائس الجامعة التى لا تزال موضع اعجاب العصر الحاضر ، وكان النمط الشائع فى البناء الى القرن الثالث عشر هو النمط الرومانى وأهم مميزاته العقود المستديرة والعمد الاسطوانية الضخمة والقباب الشاهقة والنوافذ الصغيرة المقوسة . وأما بعد ذلك الوقت فانتشر استعمال النمط القوطى ويمتاز بالعقود المخمسة المتداخلة ، والدعائم البارزة : وتفنن المصورون فى زخرفة الكنائس بأنواع شتى من صور وتهاويل وتماثيل أكثرها غريب ذو روعة

ويلى الكنائس فى الاهمية دور البلديات التى أقيمت فى القرن الرابع عشر على النمط القوطي أيضاً . أما قصور الاشراف فلم يراع فيها سوى المتانة والمناعة فكانت جدرانها سميكة ونافذاتها صغيرة وابهاؤها عارية من كل زخرف

ظهور الجامعات

استمر الناس فى جهلهم حتى أوائل القرن الثانى عشر حين ظهر أبيلارد شاب من أقليم برطانية غربى فرنسا اسمه « ابيلارد Abelard » ، وأخذ يجوب انحاء البلاد طلباً للعلم الذى كان مداه قاصراً على الفلسفة والمنطق والمناظرة والجدل والبيان وعلوم الدين. واستقر به المقام فى باريس حيث حضر على أساتذتها واشترك معهم فى الجدل ، وما لبث ان بدأ يحاضر فالتف حوله آلاف من الطلبة . وكان مبدؤه فى التعليم مناقشة ما يعرضه على تلاميذه من الحقائق ، حتى الدينية منها ، مناقشة عقلية بحتة فما وافق

العقل قبله ، وما خالفه رفضه بغض النظر عما جاء فى كتب الدين. وبظهور « ابيلارد » ظهرت طريقة تحكيم العقل واستعمال الاسئلة للوصول الى الحقيقة واتباع قواعد منطق ارسططاليس . وقد أثارت طريقته هذه سخط رجال الدين وانبرى لمعارضته القديس « برنارد St. Bernard» الذى كان يعتقد صحة الكتابات الدينية دون مناقشة ، وما زال ابيلارد يعانى هذه المعارضة حتى مات سنة ١١٤٢

مبدأ الجامعات

وقد مهد ابيلارد السبيل لظهور جامعة باريس وذلك لأن حماسته للعلم وحسن اسلوبه وطريقة البحث التى سلكها — كل ذلك رغب الناس فى تلقى العلم ،فكثر المعلمون والمتعلمون فى باريس ورأوا - ضمانا لمصالحهم - أن يكوّنوا نقابة تدافع عن حقوقهم وتقيهم شر العدوان شأن غيرهم من الطوائف فى العصر الوسيط . وتم تأليف هذه النقابة قبل نهاية القرن الثانى عشر وسميت « جامعة Universitas » ومنها أخذت التسمية الحديثة لمعاهد العلم الكبرى

وقد تسابق البابوات وملوك فرنسا الى منح الجامعات حقوقاً وامتيازات تشابه ما كان للقسس والرهبان على اعتقاد أن العلم من خواص رجال الدين

وبينما أبيلارد وبرنارد يتجادلان بدأ معهد للعلم فى بولونيا فى شمال ايطاليا ولم يشتغل علماء بولونيا بالعلوم الدينية كما كانت الحال فى جامعة باريس ، بل تفرغوا لدراسة القانون الرومانى وقانون الكنيسة ، فلما وضع الراهب « جراسيان Gratian » سنة ١١٤٣ مجموعة لقوانين الكنيسة خالية من التناقض والتكرار وشاملة لما أصدره البابوات والمجالس الملية

دراسة القانون

من القرارات الدينية ، هرع الطلبة الى بولونيا من كل صقع لارتشاف علم القانون بفرعيه ونشأت جامعة بولونيا على أثر ذلك

جامعات انجلترا

وفى نحو هذا الوقت نشأت جامعة « اكسفورد » فى حكم هنرى الثانى وربما كان سبب انشائها إنفصال جماعة من الطلبة والمدرسين الانجليز عن جامعة باريس. وتلتها جامعة « كمبردج » فى انجلترا وجامعات أخرى فى فرنسا وايطاليا واسبانيا فى القرن الثالث عشر . أما جامعات المانيا فقد جاءت متأخرة ولم تبلغ شأناً يذكر قبل القرن الرابع عشر بل الخامس عشر . وقد اتخذت جامعات شمال أوربا جامعة باريس نموذجاً لها بينما حذت جامعات الجنوب حذو جامعة بولونيا

الدراسة في الجامعة

ولم يكن للجامعة بناء معين بل كان الطلبة والمعلمون يجتمعون حيثما شاءوا فى الحى الذى يقيمون فيه ، ولم تكن الحاجة ماسة الى معامل أو مكاتب أو مقاعد لأن كل ما كان مطلوباً هو نسخة من الكتاب الذى يدرس ، فيجلس الطلبة على الأرض حول استاذهم ويأخذ هذا فى تفسير الكتاب جملة جملة بينما الطلبة يستمعون ويأخذون مذكرات أحياناً كما لا يزال متبعاً فى الازهر . ومتى أتم الطالب مدة فى تلقي العلم امتحنه أساتذته فاذا نجح أعطى درجة تخول له التدريس . وقد تطلع الى الدرجات العلمية من الجامعات أناس لا يريدون الاشتغال بالتعليم، فصارت الدرجات شرفاً يصبو اليه محبو العلم

وكانت مواد الدراسة فى الغالب قاصرة على كتب ارسطاليس باللغة اللاتينية ، وكان ارسطاليس موضع اعجاب العلماء حتى أن دراسة كتبه فى المنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة والأخلاق وغيرها من الموضوعات

المختلفة التى طرقها كان يعد غاية ما وصل اليه العقل البشرى . ولم يكن معروفاً من هذه الكتب أولاً غير المنطق فلما جاء القرن الثالث عشر كانت قد وصلت الى أوربا بقية كتابات ارستطاليس عن طريق العرب فى أسبانيا أو فى جنوب ايطاليا أو عن طريق قسطنطينية

وكان هم الاستاذ منصرفاً الى ثلاثة أمور مهمة : أولها فهم الترجمة اللاتينية الركيكة التى كانت بيده ، وثانيها تعليق علماء العرب عليها ، وثالثها التوفيق بين ما كتبه ارستطاليس وبين ما جاء فى الانجيل

وكان الناس قد افتتنوا بمنطق « المعلم الاول » وخلب لبهم ما أتيح له من العلوم التى كانوا يعتبرونها منتهى مايصل اليه العقل الانسانى فلقبوه « الفليسوف الاوحد » ورفعوه الى مستوى الانجيل والقانون الرومانى

بدء البحث العلمى

على أن القرن الثالث عشر لم يخل من علماء يخالفون أهل عصرهم فى الاعتماد كل الاعتماد على ارستطاليس ، اذ ظهر راهب انجليزى من الاخوان الفرنشسكان اسمه « روجر بيكون Roger Bacon » المتوفى سنة ١٢٩٠ درس علوم العرب وتشبع بطريقتهم العلمية فجاهر بلزوم ترك كتابات ارستطاليس ونبذ الجدل جانباً ، ودعا الناس الى دراسة طبيعة الاشياء من نبات وحيوان، وملاحظة تركيبها وغرائزها وخطأ الفكرة القائلة بأن ارستطاليس بلغ غاية مايمكن أن تصل اليه الفطنة البشرية، لان العلم لا نهاية له ولأن الانسان لو عاش الى الابد لما أحاط علماً بكل شىء، وأبان أن الطريقة المثلى للوصول الى الحقائق العلمية انما هى اختبار الاشياء كما هي فى حالتها الطبيعية واجراء التجارب الكثيرة عليها ، وأن هذه الطريقة أفضل ألف مرة من الانكباب على التراجم المحرفة لكتب

ارستطاليس. وبالتدريج شاعت طريقة البحث العلمى الجديدة وقضى على طريقة علماء العصر الوسيط

مظاهر التقدم العام فى أواخر العصور الوسطى

(١) **القوميات الجديدة** : كانت الدولة الرومانية تحكم غرب اوربا بنظام واحد لا يراعى فيه اختلاف عادات أهالى الاقاليم المختلفة وما تتطلبه بيئتهم الخاصة . ثم حل محلها حكومات محلية اقطاعية عقب هجوم المتبربرين ، ولا ينافى ذلك قيام دولة شرلمان لانها تمزقت بعد موته وقوى امراء الاقطاع . وبعد ذلك أخذت قوة الملوك تزداد واتحد معهم أهل المدن فنشأت حكومات وطنية تعمل على استقلالها التام فيما عدا ايطاليا والمانيا

(٢) **نفوذ القومية على الكنيسة** : بعد أن كانت الكنيسة تعتبر نفسها وارثة الدولة الرومانيه وبعد أن كان لها السيطرة فى كل غرب أوربا خصوصاً فى عهد « غريغوري السابع » و « انسنت الثالث » ، لم ينته القرن الثالث عشر حتى ظهرت القوميات الحديثة وشرعت تتخلص من سلطان البابوية وتقصر الكنيسة على الواجبات الدينية وتنتزع منها ما عدا ذلك من السلطات كما فعلت فرنسا فى حكم فليب الرابع وانجلترا فى حكم ادوارد الاول

(٣) **ظهور الطبقة الوسطى** : لما اتسعت حركة التجارة وتحرير الرقيق ونمت المدن استطاع أهلوها من تجار وصناع أن يحصلوا على الثروة التى بها تمكنوا من ترقية شئونهم الاجتماعية والعلمية حتى أصبحوا ذوى نفوذ عظيم ، الى جانب الاشراف والفرسان ورجال الدين

(٤) **ظهور أدبيات اللغات الحديثة** : كانت اللاتينية لغة الكتابة الى نهاية القرن العاشر ، فلما ترعرعت اللهجات القومية أخذ الكتاب بعد القرن الحادى عشر يدونون بها فصار فى وسع عامة الشعب أن يفهموا ما دوّن من حكايات وأشعار وأناشيد . وكذلك استطاع غير رجال الدين أن يظهروا فى ميدان الكتابة والعلم اللذين كانا وقفا على القساوسة والرهبان وأدت رغبة الناس فى تحصيل العلوم الى قيام الجامعات وهى من أهم مميزات الرقى الحديث

ومن هذه الجامعات نشأت طريقة البحث العلمى الذى فتح باب الاكتشاف والاختراع أمام علماء العصر الحديث فأماطوا اللثام عن أسرار الطبيعة وقوتها الكامنة مما لم يسبق له مثيل




أوربا سنة ٣٥٠ م
لبيان الإمبراطورية الرومانية والمتبربرين
رسمها الشيخ محمد عز الدين
مدرس الجغرافية والتاريخ بدار العلوم
البحر الجرماني
بريطانيا
السكسون
الوندال
الصقالبة
الهون
القوط الغربيون
نهر الدانوب
البحر الأسود
المحيط الأطلانطي
بحر كنتبريان
غالة
الإمبراطورية الرومانية
إسبانيا
كورسقه
سردانيا
إيطاليا
صقلية
مقدونيا
آسيا الصغرى
كبدوكيا
غلاطيه
كريت
قبرص
البحر المتوسط
موريتانيا
نوميديا
إفريقية
مرمريكا
مصر




هجوم القبائل المتبربرة
رسمها الشيخ محمد فخر الدين
مدرس الجغرافية والتاريخ بدار العلوم
بحر الشمال
البريطانيون
المحيط الأطلسي
السكسون
الصقالبة
مملكة الفرنجة
قبائل الألمانى
مملكة القوط الشرقيين
الدانوب
البحر الأسود
الدولة الرومانية الشرقية
الدولة الرومانية الغربية
السويف
مملكة القوط الغربيين
قورشقه (الونزال)
سردانيه (الونزال)
رومه
صقليه
البحر المتوسط
الونزال




دولة شرلمان
وتقسيم سنة ٨٤٣
رسمها الشيخ محمد فخر الدين مدرس الجغرافية والتاريخ بدار العلوم
بحر الشمال
مملكة الانجليز السكسون
لندره
فريزيا
سكسونيا
بوهيميا
مورافيا
الصقالبة
بانونيا
بقاريا
نستريا
باريس
بريطانيا
اكيتانيا
برغنديا
لمبارديا
البندقية
راقنا
روما
بنفنتوم
الصرب
الدولة الرومانية الشرقية
بحر الادريا
البحر المتوسط
مقاطعة الحدود الاسبانية
المحيط الاطلسى
الدانوب
الرين
الب
اودر
طلوشه
غسقونيا



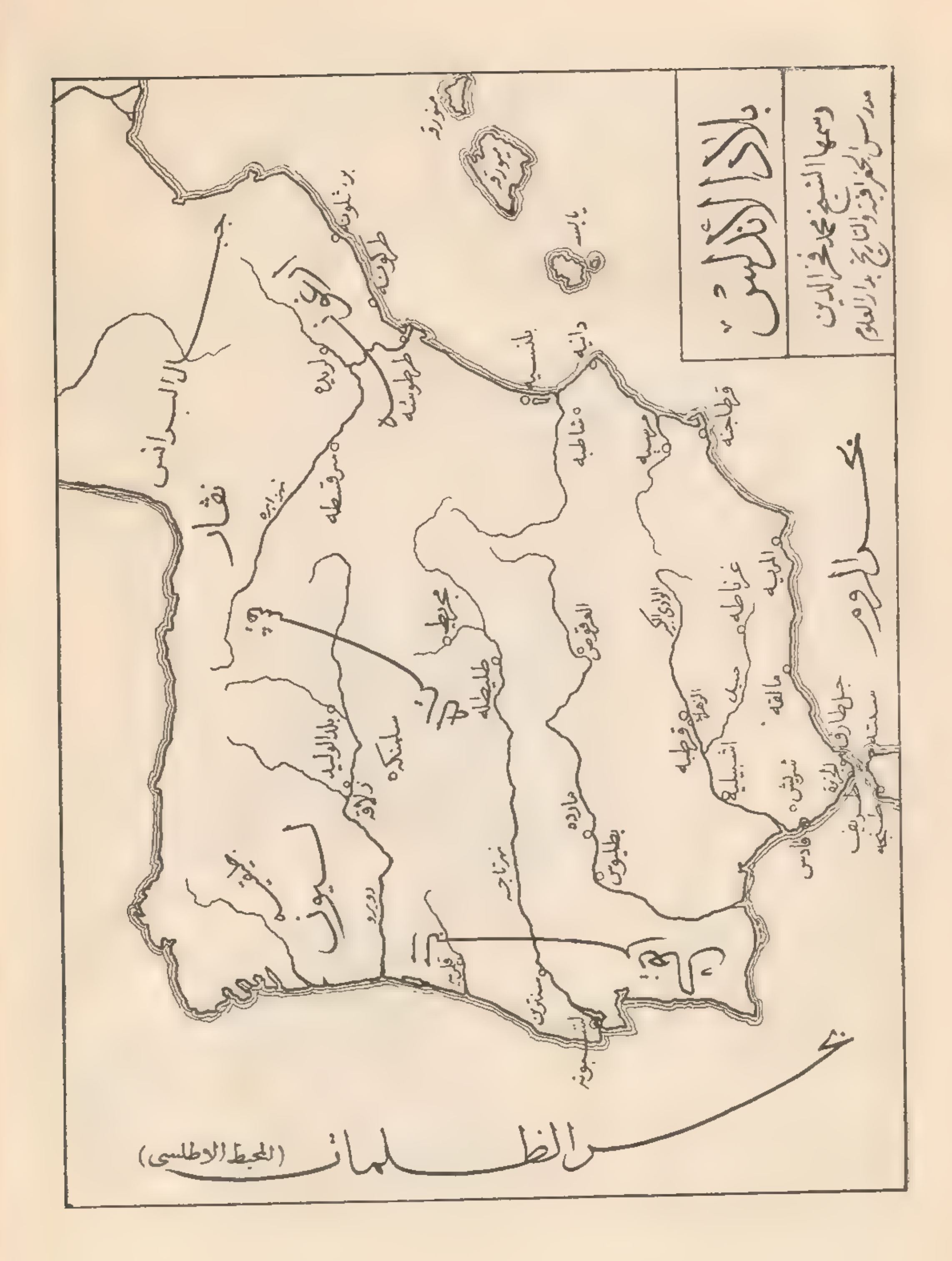

الأمبراطورية في عهد أتو الأكبر
رسمها الشيخ محمد فخر الدين مدرس الجغرافية والتاريخ بدار العلوم
بحر الشمال
بحر البلطيق
دانمرقة
سكسونيا
بوميرانيا
بولندة
جرمانيا
بوهيميا
موراڤيا
المجر
الصرب
بلغاريا
كرنتيا
صقلية
باريس
مرسيليا
الدولة العربية
الامبراطورية البيزنطية
البحر المتوسط





الخزر
الترك
بحر نيطش
دولة الروم القياصرة
بحر الروم
ارمينية
اران
اذربيجان
خوارزم
فرغانة
ما وراء النهر
طخارستان
خراسان
دولة الفرس الاكاسرة
سجستان
كرمان
فارس
مكران
السند
البحر الاخضر
عمان
بحر فارس
جزيرة العرب
نجد
الحجاز
بحر القلزم
مصر
السواد

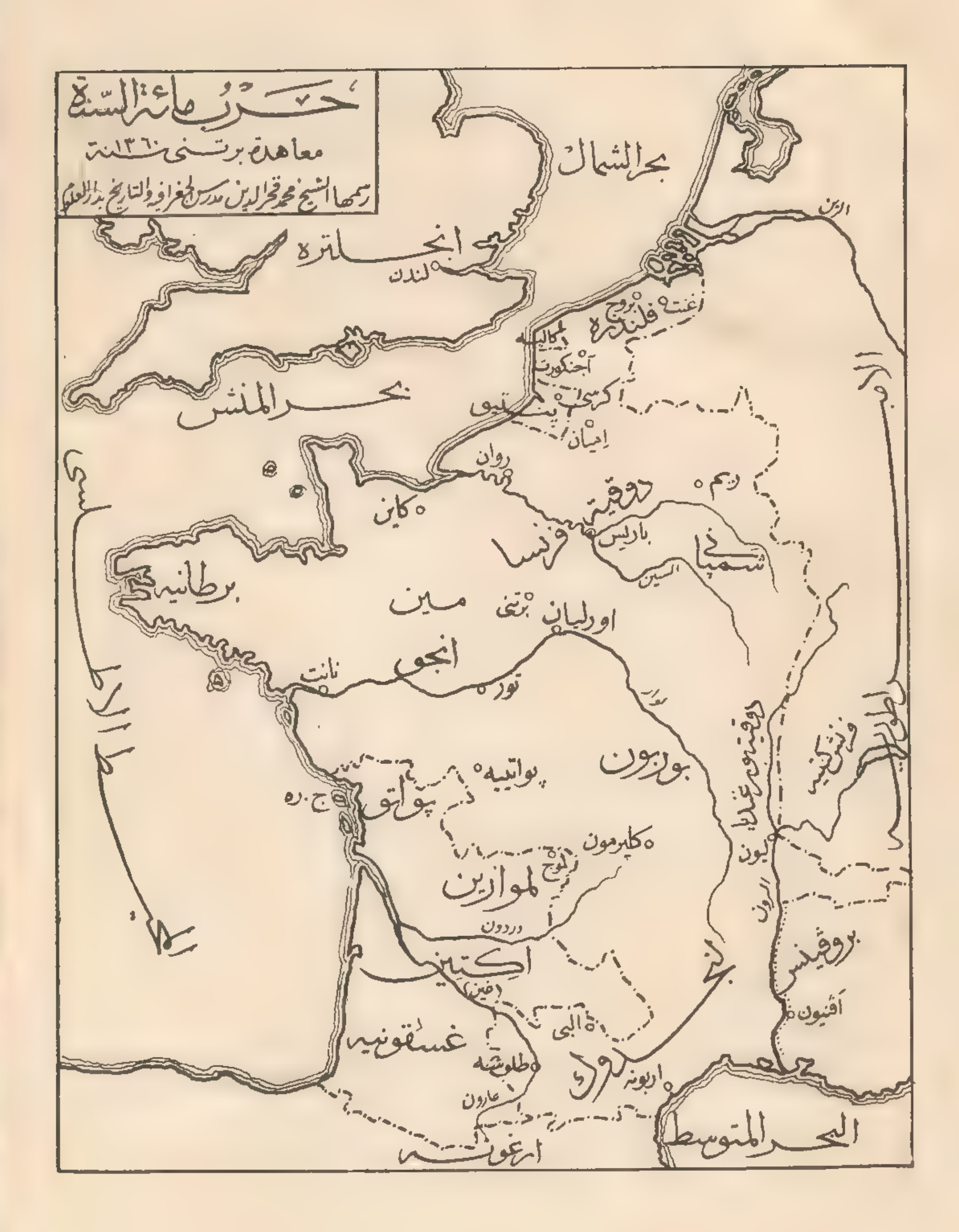



بلاد الأندلس
رسمها الشيخ محمد فخر الدين
مدرس الجغرافيا والتاريخ بدار العلوم
بحر الظلمات
(المحيط الاطلسى)
بحر الروم
جبال البرانس
برشلونة
طركونة
سرقسطة
بلنسية
دانية
قرطاجنة
مرسية
المرية
غرناطة
مالقة
قرطبة
اشبيلية
طليطلة
سلمنكة
ماردة
بطليوس
شنترين
يابسة
ميورقة
منورقة




الحروب الصليبية
الحرب الاولى ١٠٩٦-١٠٩٩
،، الثانية ١١٤٧-١١٤٩
لويس السابع وكنراد الثالث
الحرب الثالثة ١١٨٩-١١٩٠ فردريك الاول
الحرب الثالثة ١١٩٠-١١٩١ رتشارد وفيليب
البحر الاسود
البحر المتوسط
افريقية
الدانوب
البيزنطية
فلوبولس
القسطنطينية
سلانيك
تساليا
صقلية
نيقية
مملكة سلاجقة الروم
قونية
هرقلة
طرسوس
قيصرية
مرعش
الرها
(اذاسا)
حلب
انطاكية
الفرات
دمشق
قبرص
طرابلس
بيروت
صيدا
صور
عكا
قيسارية
يافا
عسقلان
اورشليم
الاسكندرية
دمياط
مصر
الخلافة الفاطمية




حرب مائة السنة
معاهدة برتنى سنة ١٣٦٠
رسمها الشيخ محمد فخر الدين مدرس الجغرافية والتاريخ بدار العلوم
بحر الشمال
انجلترة
لندن
بحر المنش
فلندرة
بروج
غنت
كاليه
أجنكورت
كريسى
بنتيو
إميان
روان
كاين
نرمنديه
ريمس
شمبانى
باريس
السين
فرنسا
برطانيه
مين
اورليان
انجو
نانت
تور
بوربون
بواتيه
بواتو
كلرمون
لموازين
اكتين
غسقونيه
طلوشه
ليون
الرون
بروفينس
افنيون
البحر المتوسط
ارغونه
بحر الاطلانطيك

